حسنين بن عمو

باب العلوج

رواية

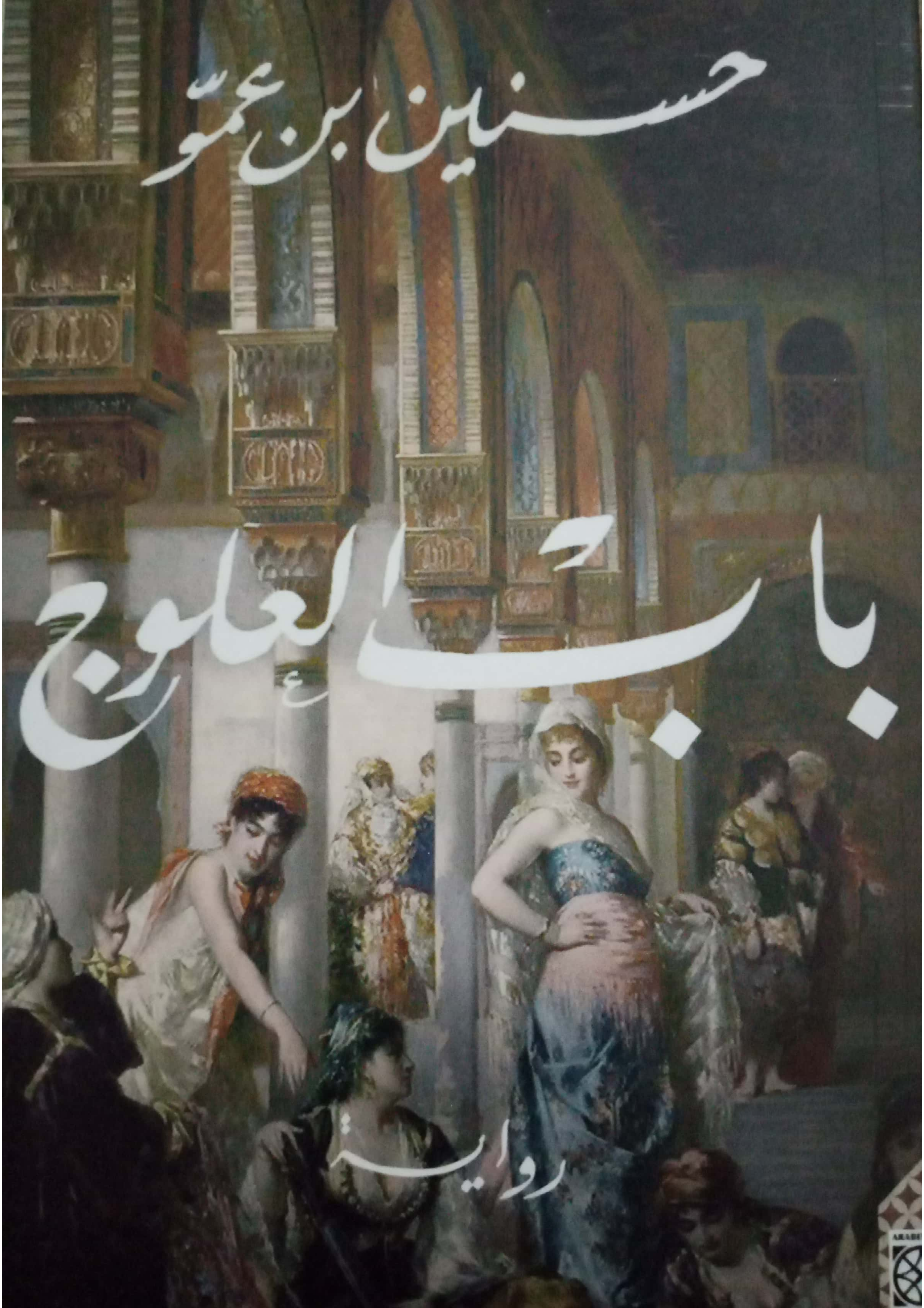

عنوان الكتاب: باب العلوج
تأليف: حسنين بن عمّو
الطبعة الأولى عن دار العمل تونس 1988
طبعة جديدة ومنقحة، نقوش عربية 2019
الطبعة الثالثة نقوش عربية 2020
الطبعة الرابعة نقوش عربية 2022
تصميم الغلاف: بيرم الغانمي
فكرة الغلاف: حسنين بن عمّو
لوحة الغلاف للرسام: Edward Frederic Richter
الترقيم الدولي للكتاب:
978-9938-07-338-6
جميع الحقوق محفوظة للناشر
الناشر: دار نقوش عربية
5 شارع 20 مارس باب سعدون 1005 تونس
www.arabesqueseditions. tn
editionsarabesques. tunis@gmail. com

إلى ابنتي عزيزتي سيرين..

كانت هذه الرواية باكورة رواياتي

وكنت أنت باكورة أبوتي

فأنت ابنتي من حب

بينما هي ابنتي من أرق على ورق

فانظري ما أرحب فضاء الأبوة

الفصل الأوّل

البندقيّة، مارس 1415

راح قرص الشّمس يغوص شيئا فشيئا في الأفق المُموّه بحمرة الغروب تاركا ظلام اللّيل يزحف على المدينة العائمة، ويحيل بناياتها إلى أشباح قائمة تنعكس ظلالها على صفحة ماء البحر الّذي يغمر قوائم الدّيار والجسور.

كان الصّمت قد خيّم على المدينة بعد الصّخب اليوميّ الّذي شغلها، وكان الظّلام قد زحف عليها بالكامل فحبس أهلها في بيوتهم حتّى لم يَبْقَ منهم في الطّرق المبلّطة وعلى الجسور الخشبيّة إلاّ بعض السّكارى المتلكّئين، أو بعض البحّارة سواء منهم المنشغلين بترصيف السّلع أو العائدين بمراكبهم إلى الميناء.

سكن اللّيل لافًّا المدينة بردائه الأسود فاختفت أشباح الكنائس والقصور والدّيار ولم يعد يبدو منها إلاّ بعض أضواء خافتة تسلّلت من نوافذها ومن كُوّاتها، وسكنت الحركة تاركة تجاعيد الأمواج تضطرب على جنبات قوارب الجندول محدثة شقشقة أليفة تشقّ برتابة صمت اللّيل.

رغم برد شهر مارس فقد قرّر الشّابّ "أنطونيو كازيلا" أن يتحدّى البرد وأن يقف كالصّنم على الرّصيف يتأمّل بهرة الأفق وقد طوّح به خياله إلى ردهات فيلاّ تقع في طرف أحد الأحياء الرّاقية.

أخذ رذاذ المطر يتساقط بتثاقل واحتدّ وقع البرد اللّيليّ ممّا دفع بأنطونيو إلى جمع أطراف معطفه حول جسمه ومغادرة ذلك المكان

حيث كان وقف به منذ ساعة والعودة إلى مسكنه الواقع في قاع حيّ فقير قريب من الميناء.

ما كاد يمضي في تتبّع وقع خطواته الرّتيبة على الأرصفة المبلّطة ويحاول لملمة شتات أفكاره على إيقاعها، حتّى داهمت سمعه جلبة وأصوات متداخلة آتية من ناحية الحانات المنتصبة في مجال الميناء. فعرج بسرعة إلى ناحية تعوّد على ارتيادها، لكنّه سرعان ما ارتدّ إلى منعطف آخر حين باغتته مجموعة من السّكارى شاهرين الخناجر وهم يلاحقون ثلاثة رجال ويطلقون صيحات غضب تتخلّلها عبارات من فصيلة السّباب والشّتيمة، فقد عجز أنطونيو عن فهمها لأنّها كانت بلهجة يجهلها فزمجر الشّابّ من بين أسنانه قائلا:

- من أيّ مِلّة هم يا ترى؟ اللّعنة على هذا الميناء الّذي لم يجمع سوى أرهاط من الغلاظ ومن المغامرين ومن القراصنة المتنكّرين في أزياء التّجّار.. متى يا ترى أخرج من هذا الوضع المزري؟ اللّعنة على البؤس؟

اختبأ في أحد المنعطفات في انتظار مرور السّكارى وبقي برهة تتنازعه نوازع الخوف من هؤلاء الغرباء الّذين لا يعرفون حدودا لأهوائهم الّتي تبرز بحدّة كلّما لعبت الخمرة برؤوسهم، فقد شهد مرّة، وهو في وضع مثل هذا، كيف برز من الظّلام أنفار من القراصنة انقضّوا على أربعة شبّان سكارى خرجوا توّا من حانة واقتيدوا قسرا إلى ناحية مهجورة تفضي إلى البحر حيث ابتلعهم المجهول.

لمّا ران الصّمت وابتعد السّكارى، غادر أنطونيو مخبأه في اتّجاه حانة "الدّيك الأزرق" حيث تعوّد على احتساء كأسين قبل الرّواح، لكنّه عدل فجأة بسبب شعور خفيّ انتابه وفضّل العودة إلى بيته حيث أمّه الّتي تنتظره كالعادة وككلّ ليلة، وحين توغّل في الأزقّة المظلمة اصطدمت رجله بجسم رجل تفوح منه رائحة كريهة ممزوجة

بالعرق وبالخمر وبرائحة البحر وبروائح أخرى تذكّره بروائح مطبخ جاره اليهوديّ شالوم المرابي.

لم يفهم أنطونيو سبب صياح الرّجل الّذي راح يرغي ويزبد بلهجة غريبة ومتعثّرة، فحاول تفاديه لكنّ قبضة قويّة شدّت رجله وحبستها أرضا، فحاول الانفلات منها ولم يستطع، فاستسلم برهة ليوهم السّكران بأنّه يروم مساعدته، فانحنى عليه يسأله عن حاجته. ولمّا أحسّ بارتخاء الشّدّ على رجله انفلت من القبضة وأطلق ساقيه للرّيح وقلبه يكاد يسدّ حلقه بسبب استحضاره لحادثة مماثلة وقعت لشابّ في مثل سنّه، إذ عمد قرصان إلى حيلة تظاهره بالتّوجّع من ألم حين مرّ به ليلا شابّ رقّ لحاله فانحنى عليه يسأله عن سبب وجعه، لكنّ يد الرّجل أطبقت فجأة وبشدّة على رجل الشّابّ فحبسته ومن ثمّة انقلب عليه القرصان وأوقعه أرضا، ومن شدّة المفاجأة أغمي على المسكين فاغتنم القرصان تلك الحالة فصفر تصفيرة مميّزة حضر على إثرها أصحابه الّذين كانوا متخفّين غير بعيد عنه ورفعوا الشّابّ إلى مكان آخر حيث فاحشوه ثمّ قتلوه وألقوا بجثّته إلى البحر.

- يا لهذه اللّيلة الملعونة... هل تنتهي بي إلى...

توقّف عن التّساؤل وعن الجري بعدما ناله تعب شديد، وأحسّ بالعرق ينديّ جبينه فمسحه بكمّ معطفه ورفع وجهه إلى السّماء ليتلقّى قطرات المطر الّتي أخذت تبلّله وتنعم عليه بقليل من البرودة، ثم التفت وراءه، ولمّا أيقن من خلوّ المكان من شيطان إنسيّ، أسند ظهره إلى عمود خشبيّ وحاول التّخفيف من حدّة الإجهاد الّذي أصابه ثمّ أرهف السّمع علّه يلتقط حركة مريبة، ولمّا أيقن أنّه في مأمن أطلق لزفراته العنان ثمّ انحنى معتمدا بيديه على ركبتيه ليستجمع قواه ويتخلّص من الخوف الخانق الّذي استحوذ على كيانه، ولمّا عاد إليه

هدوءه ابتسم ابتسامة سخرية من نفسه بسبب انسياقها وراء هواجس لا وجود لها، ولكي يطرد خوفه ويؤنس نفسه، امتطى صهوة خياله فطوّحت به حالا إلى حيث كان ينوي التّوجّه قبل أن يداهمه خوفه من غرباء الميناء ومن سوء أفعالهم.

رغم برودة الطّقس، ورغم المخاطر اللّيليّة الّتي يمكن أن تبرز في أيّة لحظة ومن أيّ منعطف، فقد قرّر أن يعود أدراجه إلى حيث كان ينوي الذّهاب منذ حين، فتوجّه نحو الحيّ الرّاقي، وكان يدفعه إحساس غامض لكنّه ممتع وحميم فلم يشعر لا بالظّلام ولا بالبرد ولا حتّى بالخوف، فقد انقلب خوفه إلى لامبالاة ثمّ إلى إقدام، فالمسألة تستحقّ المغامرة ولا بدّ من جرعة من الشّجاعة لبلوغها.

كان بلاط الشّارع المبلّل يعكس في بعض بقعه أضواء خافتة منبعثة من بعض النّوافذ القريبة، وكان أنطونيو يتحسّس طريقه وعيناه إلى وجهة تبدو له بعيدة، لكنّه كان مصمّما على الوصول إليها، فقد سبق له أن خبر الموقع منذ أيّام، وزاد فحام حوله نهار اليوم ولم يجرؤ على الاقتراب منه خشية شيء مبهم.

وصل أخيرا إلى المكان وعثر على النّافذة المبتغاة، فإذا بستائرها الدانتاليّة الخفيفة لم تحجبها بعد السّتائر الثّقيلة ممّا مكّنه من مشاهدة انعكاس ظلال حركات تدلّ على أنّ صاحبة النّافذة مازالت لم تهجع إلى الفراش فتسارعت دقّات قلبه وتردّدت الابتسامة على شفتيه وتمتم بوجل:

- إنّها هي... شكرا للرّب.

اقترب من الفيلاّ الفخمة وحام حول الحديقة المحيطة بها بحثا عن مكان قريب من النّافذة المضاءة وعندما لم يجد ضالّته قنع بالنّظر عن بعد والتّمسّح بعينيه على خيال الظّلّ، ولمّا أعياه الوقوف عبثا قنع بالإياب على أمل العودة في اليوم الموالي ليرابط بالمكان حتّى يراها،

ولولا شعوره بالبرد القارس يتسرّب بحدّة إلى عظامه لبقي واقفا في موضعه حتّى مطلع الفجر يرعى نومها بسهره وبسهده.

لقد رآها لأوّل مرّة منذ أسبوع في ساحة "سان مارك" وهي تتلهّى بالنّظر إلى الحمام وتحادث رجلا كهلا كان يصاحبها فأدرك من هيئتها أنّها غريبة عن فينيسيا وأنّها من جموع الغرباء الوافدين على المدينة، خصوصا هذه الأيّام الّتي تستعدّ فيها المدينة البحريّة لإقامة كرنفالها المشهور. فالبحر باب واسع تدخل منه كلّ يوم كرنفالات بشريّة لا تحتاج إلى أقنعة.

لكن لماذا هي بالذّات؟ فعشرات الصّبايا الحسناوات يجبن المدينة سواء على القوارب أو في السّاحات العامّة؟ لا يدري. ثمّة شيء غامض يدفعه إليها وخيط رفيع يشدّه إليها.

صار يراها مرارا وهي تتأبّط ذراع ذلك الرّجل الكهل وتحادثه بكلّ مرح وخفّة وهي تنظر حواليها بغبطة وبانبهار، وحاول مرّات أن يقترب منها ليستزيد من التّطلّع إلى حسنها السّاحر ويحاول لفت انتباهها واقتلاع نظرة منها، لكنّه لم يظفر في النّهاية سوى بنظرة يتيمة بدت له حاملة لبعض المعنى، يصاحبها طيف ابتسامة مبهمة ارتسمت على شفتين تشبهان ثمرة لم يستطع إيجاد قرين لها في تلك اللّحظة. لكنّه اكتفى بالسّؤال الأزليّ: ترى هل يهفو قلبها إليه كما يهفو الآن قلبه إليها؟

علقت تلك النّظرة وتلك الابتسامة في ذهنه فأدخلتا على روحه أملا واسعا سعة البحر وكبيرا كبر الدّنيا، وعظمت غبطته حين عرف أين تسكن، واندهش فقط لفخامة المكان الّذي تقيم فيه، وحسب أنّها أميرة منحدرة من عائلة كبيرة من النّبلاء، لكنّه طرد هذه الفكرة من ذهنه قائلا: إنّ الأميرات لا يتجوّلن في الشّارع بدون حاشية وخدم، وهذه الحوريّة، وإن بدت له أميرة في وجهها وفي حركاتها، فإنّ لباسها رغم أناقته لا يوحي بأنّها من تلك الفصيلة.

ارتاح لهذه النّتيجة الّتي توصّل إليها في ذلك اليوم، كما ارتاح لهذه اللّيلة الّتي وقف فيها أمام نافذة الفتاة، وشعر بأنّها مازالت مقيمة هناك وبأنّه سوف يراها في الغد.. وسوف يبادرها بالكلام هذه المرّة، وليحصل ما يحصل.

*****

استيقظ باكرا هذا الصّباح على غير عادته وترك أمّه تعد فطور الصّباح وتسلّل إلى الخارج دون أن يحدث ضجّة فقد اعتاد أن يتكاسل في الفراش ولا يغادره إلاّ عندما تتكاثر ضجّة الحيّ وصياح الأطفال والباعة والملاّحين الّذين يقودون المراكب المشحونة بالسّلع عبر المسالك المائيّة من الميناء إلى داخل المدينة العائمة.

اتّجه إلى سوق "لامارسيريا" في قلب المدينة وهو عاقد العزم على التّغيّب عن العمل وتمضية الوقت في التّسكّع في أرجاء الحيّ التّجاريّ حيث تتلاصق المحلاّت الصّغيرة وتتنوّع أشكالها بأنواع من البضاعة الّتي تعرضها سواء من المصوغ أو الدّانتال الجيّد والأقمشة الحريريّة وغيرها من مكوّنات الأسواق.

وصل بعد جولة متراخية إلى ساحة "سان مارك" فوجدها مازالت خالية من الحركة، فالوقت مازال باكرا فجلس على مقعد حجريّ وتشاغل بالنّظر إلى جموع الحمائم وهي تنقر حبّات أو تطير وتحطّ بحثا عن أخرى وهي ماضية في حركاتها وفي هديلها كأنّ الدّنيا كلّها سعادة وحرّيّة.

لم يأبه للوجوه الّتي بدأت تتوافد على السّاحة، فقد كان يراهم يغدون ويروحون كأنّهم أشباح تتحرّك بدون هدف، فقد كان عقله في غير هذا المكان وأحلامه تسرح به في غير هذا الزّمان، حتّى أنّه كان يلقي من حين لآخر نظرة تجاه برج السّاعة دون أن يهتمّ بالوقت ولمّا أعياه

الجلوس قام وخطا خطوات نحو برج السّاعة ومرّ من بابه القصير في اتّجاه العودة إلى شارع "لامرسريا" وحينها دقّت السّاعة مشيرة إلى الثّامنة صباحا.

توقف وقد أصابه تردّد وساءل نفسه: هل يذهب إلى هناك في هذه السّاعة المبكّرة أم يواصل تسكّعه حتّى ساعة معقولة من النّهار؟ واصل طريقه بتثاقل على رصيف القنال الكبير حيث تجمّع الصيّادون يعرضون أنواعا من السّمك إلى جانب البقّالين الّذين طرحوا أنواعا طازجة من الخضر والغلال.

- أنطونيو... ماذا تفعل هنا؟

انتفض فزعا والتفت إلى صاحبة الصّوت فإذا به وجها لوجه مع "ريتا" صديقته القديمة وجارته في المحلّ التّجاريّ الّذي يعمل به، فارتاح قليلا لهذا اللّقاء الصّباحيّ.

- آه ريتا، صباح الخير، لم أرك منذ مدّة، أين كنت؟

اقتربت منه الفتاة بدلال قائلة:

- لماذا؟ هل اشتقت إليّ؟ أجزم أنّك تراني كلّ يوم وتتجاهلني، أو أنّك تريد خدمة؟

لم يعرف بماذا يجيب، فقد أراد فقط أن يتسلّى بصحبتها حتّى تحين السّاعة الّتي ينتظرها.

- مزاجي متعكّر هذا الصّباح يا ريتا، ولا أرغب في المزاح، هيّا رافقيني قليلا وحدّثيني عنك.

- نتحدّث؟ منذ متى كنّا نتجوّل ونتحدّث؟ لقد نسينا هذا الأمر من زمان. ماذا دهاك هذا الصّباح حتّى قمت تهذي؟

- أمر يبدو لي أكبر من دماغي يا ريتا.

- يا سلام؟ ومتى كنت تهتمّ بالأمور الكبيرة؟ لا لا، أنت مشغول بما يشغل عادة قلوب المراهقين.

- غير صحيح، الأمر أكثر جدّيّة ممّا تدّعين، لقد تعرّفت على تاجر كبير له نشاط واسع مع بلدان الشّرق وأريد أن أتعامل معه، أو أجد طريقة للوصول إلى كسب ثقته، وأنا كما تعلمين، مفلس، وقد زهقت روحي من العمل في ذلك الدّكّان المظلم مع ذلك العجوز الشّحيح.

رفعته ثمّ حطّته بنظرة ساخرة وقالت:

- أنت يا أنطونيو؟ أنت تتعرّف على التّجّار؟ كيف؟ ومتى؟ أنت لم تغادر ميناء البندقيّة أبدا، ولم تخرج من المدينة إطلاقا، ولم تتاجر حتّى بالسّمك، أنت أكثر من مفلس فكيف بك تتعرّف على كبار القوم من التّجّار وترغب في التّعامل معهم، وبماذا؟

- الصّدفة يا ريتا الغبيّة، الحياة صدف وفرص، وقد حصلت لي فرصة التّعرّف على أحدهم صدفة، وبما أنّي رأيتك هذا الصّباح صدفة فلا بأس من أن تخدمني... صدفة...

- وما نوع هذه الخدمة يا صاحب الأعمال؟

- لا شيء... فقط رافقيني، وسوف تعرفين السّبب.

نظر إليها بطرف خفيّ فوجدها كما عرفها دوما، متوسّطة الجمال، خفيفة الرّوح، مرحة، وجهها ضاحك حتّى لو كان بداخلها حزن أو كآبة، تلبس لباسا يقترب شيئا ما من الأناقة، لكنّ الأهمّ من كلّ هذا ذكاؤها ولباقتها، لذلك قرّر استخدامها في مهمّة الغرام الّتي نوى خوض غمارها.

- لا أستطيع الذّهاب معك يا أنطونيو، إنّي كما تعلم، أعمل ولا أرغب في أن أطرد من محلّ "الدنتال" الأنيق.

- سوف أعطيك أجرة يوم كامل زيادة على هديّة.

- أنطونيو... ما هذا الكرم الفيّاض؟ هذا ليس موضوع تاجر وتجارة لكي تتصرّف بهذا الشّكل... أجزم أنّه موضوع امرأة. إنّي أعرفك جيّدا يا خبيث، لكنّي سأجاريك وسأذهب معك، ودون مقابل أيضا. فقط لأعرف شكل الّتي وقعت في حبّها... يا صاحبي العاشق.

دارى أنطونيو ابتسامة إعجاب بذكاء "ريتا" ثمّ توجّها نحو الحيّ الرّاقي وقد غمرهما مرح صبياني متبادل. ولمّا وصلا إلى المكان صاحت ريتا:

- إلى هنا وصلت أيّها المجنون؟ ماذا جرى لعقلك... أأنت جادّ؟

صفّرت ريتا وضحكت ضحكة ساخرة ثمّ ابتعدت قليلا عن أنطونيو ونظرت إليه مرّة أخرى من أعلى إلى أسفل ثمّ من أسفل إلى أعلى ودارت على أعقابها فأمسك بها أنطونو متوسّلا:

- ريتا، أرجوك لا تتصرّفي تصرّف العامّة، فنحن في حيّ الأغنياء، فلا تكوني مستهترة ودعيني أحاول الخروج من بوتقة الفاقة والخصاصة.

- ديك منتوف الرّيش ومثله دجاجة في حرم الصّقور؟ دعني منك. أنت معتوه وتريد أن تسخر منّي، سوف أذهب بهدوء، إنّي لا أستطيع أن أجد راحتي في هذا المكان الرّاقي جدّا، ثمّ إنّ لباسي لا يتماشى وبدلة أبسط خادمة في إحدى هذه الدّور الفخمة.

- أُسكتي.. أُسكتي ها هي... أوه عفوا. أردت أن أقول ها هو، إنّه خارج من داره.

نظرت ريتا إلى حيث أشار أنطونيو، ولما تعرّفت على الرّجل ومرافقته انفعلت ورامت التّوجه إلى ناحية أخرى قائلة بارتباك:

- أنطونيو سوف أذهب.

لم يتركها تزيغ عنه، فقد عصر ذراعها بيده حتّى جعلها تستقيم وتتوقّف ثمّ تصلح من شأنها وتتصنّع الوقار وتكفّ عن الهذر، فهمس في أذنها قائلا:

- ريتا اعقلي، هذا هو الرّجل الّذي أريد لقياه، وأمّا مرافقته فإنّي لا أعرفها.

- طبعا لا تعرفها، ولكنّي أنا أعرف الرّجل معرفة جيّدة، أرجوك، أرجوك.. أرجوك، فلن أجد سببا أو كذبة أداري بها تغيّبي عن العمل هذا الصّباح.

- تعرفينه حقّا؟ من يكون يا ريتا؟

- إنّه "كارلو ماندرياني" تاجر الأقمشة والحرير وصديق مخدومي تاجر الدّانتال، هل ارتحت الآن؟

ارتبك أنطونيو كما ارتبكت ريتا وحاولا أن يزيغا عن المكان وأن يبتعدا عن طريق التّاجر الثّريّ، لكنّ شعورا ما اجتاح كيان أنطونيو وتركه يتردّد ثمّ يتوقّف عن السّير ويشير على ريتا بالتّوقّف أيضا.

- أنطونيو، انظر إنّها جميلة، يا إلاهي ما أروعها! قل لي أيها المأفون هل؟...

رشقته بنظرة مستفسرة فصمت برهة ثمّ زفر وقال:

- نعم يا ريتا هذه هي الّتي ألهبت قلبي ومازال اللّهيب يتصاعد إلى دماغي رغم أنّي لم أرها إلاّ منذ أيّام قليلة فكيف العمل يا ريتا؟ دعيني أعتمد عليك لإيجاد حلّ لحيرتي، أرجوك لا تبخلي عليّ.

كادت ريتا أن تصفعه لولا حرمة المكان في نظرها ولولا ارتباكها، فقد غمرت قلبها غيرة عمياء وشعرت بأنّها لا تساوي شيئا أمام جمال تلك الفتاة، لكنّها أدركت لحظتها أنّ أنطونيو لن يكون لها ولن يتزوّجها أبدا، ولن يكون حتّى لتلك البورجوازيّة، ومع ذلك غيّرت لهجتها وهمست للشّاب:

- أنطونيو سوف أساعدك ولا أدري لماذا، لقد كنت أطمع في قليل من الحبّ منك لكنّي عرفت الآن أنّ ذلك مستحيل مع أنّي نفضت يديّ منك من زمان، لكنّي سوف أساعدك لأنّ اللّعبة استهوتني، ولأنّ الفتاة أعجبتني، لكن دعني أقُلْ لك إنّها لن تكون لك يا صديقي، أبدا أبدا، إنّي أشعر بذلك ولا تحاول سؤالي فلن أستطيع إجابتك أو أن أفسّر لك شعورا داهمني هذه اللّحظة، إنّها جميلة جدّا، إنّها أميرة، ولن تكون إلاّ لأمير، ولن تعيش إلاّ في القصور يا حبيبي، سوف أعيش معك هذه المغامرة، وسوف أساعدك لأتمتّع فقط بتلوّن وجهك من فرط الارتباك، وسوف أخلّصك من المآزق الّتي تنتظرك، لا حبّا فيك ولا خدمة لك... بل تشفّيا وشماتة. تعال معي الآن لأقدّمك إلى السّنيور كارلو مندرياني.

سوّت ريتا فستانها ورسمت على وجهها علامات الوقار والهدوء ثمّ التفتت إلى أنطونيو وقالت له:

- اتركني أقدّمك للرّجل فلا تتكلّم، بل اِكْتَفِ بالانحناء علامة على الموافقة على كلامي وأنصت واصمت.

تقدّم أنطونيو وريتا نحو كارلو ماندرياني وكان ذلك قبل أن يصل الجميع الى ساحة "لابيازيتا"، تلك السّاحة الكبيرة الّتي تعجّ بكلّ أصناف السّكّان وبالغرباء، حيث تجد ريتا نفسها في إطارها الأليف بعد خروجها من الحيّ البورجوازيّ فراحت تراقب عن كثب التّاجر الكهل ورفيقته، فلاحظت من خلال مراقبتها لهما أنّ الفتاة غريبة عن المدينة، وأنّ التّاجر مستغرق في الكلام معها كأنّه يشرح لها تاريخ البنايات وتاريخ الكنيسة الجميلة الّتي تتصدّر السّاحة الكبيرة.

لكزت ريتا رفيقها بمرفقها وهمست له:

- الآن...

ارتبك أنطونيو واحتار ولم يدر ماذا سيفعل، فقد انفلت خيط اللّعبة من يده، وأصبحت ريتا الّتي طالما اعتبرها من الدّرجة الثّانية، هي صاحبة اللّعبة، والمتحكّمة منذ الآن في مصيره، في حين أنّ اللّعبة لعبته ومغامرته هو، ووجد نفسه على حين غفلة وجها لوجه أمام التّاجر الثّريّ وسمع ريتا تنطق:

- سنيور كارلو، صباح الخير... أوه يا إلاهي... أوه سانتا ماريا... ما أجمل هذه الوردة الرّبيعيّة الرّائعة !

التفت إليها الرّجل فبدت على وجهه علامات الانشراح، لكن سرعان ما كساه الوقار المصطنع وقال بلهجة السيّد لخادمة:

- ريتا... ماذا تفعلين هنا؟ هل كافأك السّنيور "جيوزابي" بيوم راحة حتّى تتجوّلي في البيازيتا؟

- لا يا سنيور كارلو إنّي أرافق فقط حريفنا هذا الّذي حلّ بمدينة فينيسيا منذ يومين قادما من الهند، إنّه السّنيور أنطونيو كازيلا، تاجر العطور والبهارات، وهو ابن صديق قديم للسّنيور جيوزابي، ألا تعرفه؟

اضطرّ السّنيور كارلو للانحناء أمام أنطونيو علامة على التّرحيب به، وإن كان في قرارة نفسه غير مقتنع بعظمة هذا التّاجر الغريب الّذي لا يلبس لباسا يدلّ على مقامه المزعوم، أو على ثرائه الكاذب، لكنّه قبل بالأمر عن مضض فدارى ضيقه بتقديم مرافقته الحسناء قائلا:

- هذه "ماريا" ابنة أخي القادمة من جنوب إيطاليا، جاءت تزورني لأوّل مرّة في فينيسيا، وها أنّي أفرد لها وقتا لمرافقتها حتّى أطلعها على روعة مدينتنا رغم كثرة مشاغلي، ولكن كيف لا أعرفك يا سنيور أنطونيو ونحن أصدقاء للسّنيور جيوزابي؟ فهل أنت غريب عن فينيسيا؟

ارتبك أنطونيو وصدمه هذا السّؤال الّذي لم يكن ينتظره، حتّى أنّه لم يُعِدّ له الجواب المقنع، لكنّه سرعان ما تدارك حين استحضر قصّة جدّه للأمّ أصيل مدينة جنوة والّذي كان قدم مغامرا إلى فينيسيا في مطلع شبابه، فقال بديهة:

- فعلا سنيور كارلو، أنا من جنوة.

- أوه، جنوة؟! غريمة فينيسيا الأبديّة ومزاحمتها على الدّوام، أنتم فعلا من المغامرين، ومن الغرماء الأشدّاء.

ضحك أنطونو حتّى لا ينزلق به الحديث إلى منزلق مجهول فقال وهو يشرع ذراعيه في حركة مسرحيّة:

- معك حقّ سنيور كارلو، لقد قضيت معظم وقتي في السّفر بين بلاد الشّرق والغرب، وكوّنت ثروتي العظيمة من هنا وهناك، وأنا أجوب البحار بعيدا عن اليابسة وعن المدن وعن الحياة الّتي بدأت أكتشفها الآن.

- أوه حقّا؟ إذن وبما أنّ الأمر على غاية من الأهمّية فالأفضل لنا أن نجتمع حول مائدة الطّعام، في بيتي طبعا، لنواصل هذا الحديث الشّيّق، ويحصل لي الشّرف لو تتفضّل بقبول هذه الدّعوة المتواضعة، فلربّما يكون لقاؤنا المرتقب فاتحة خير لعقد صفقات مشتركة بيننا، هاه، موافق يا سنيور أنطونيو؟

- كيف لا أقبل يا سنيور كارلو وأنا غريب هنا مثل الآنسة ماريا، فنحن على الأقلّ نشترك في جهل روعة هذه المدينة ولا نجد من يفتح لنا أبوابها سوى حضرتكم.

- إذن لم يبق لنا إلاّ تحديد موعد لقائنا القادم، وسوف يكون بعد غد في فيلاّ ماندرياني طبعا، أمّا أنت يا ريتا فسلّمي على صديقنا السّنيور جيوزابي، وقولي له إنّنا لن ننسى له صنيعه بإتاحته لنا هذه

الفرصة السّعيدة لنتعرّف على السّنيور أنطونيو، ولولا انشغالي باستضافة ابنة أخي لذهبت إليه توّا لاستدعائه إلى مائدتنا.

غمرت أنطونيو سعادة لا حدود لها، ونسي المكان الموجود به، وأغرق نفسه في عيني ماريا الزّرقاوين، ونفخ الحبّ في صورته فجعله يتخيّل نفسه فعلا تاجرا غنيّا وصاحب ثروة تمكّنه من الارتقاء إلى مصافّ البورجوازيّين.

نظر إلى ريتا فوجدها حانقة تكاد تغتاله بنظراتها، وشعر بأنّها نادمة على دخولها هذه اللّعبة الّتي لم تطل والّتي خرجت منها بهذه السّرعة الّتي لم تكن تتوقّعها.

- إذن نلتقي بعد غد يا سنيور أنطونيو، سوف تدلّك ريتا على عنواني، وسوف أنتظرك بفارغ الصّبر.

انحنى أنطونيو انحناءة طويلة أمام ماريا ثمّ أمسك بذراع ريتا برفق كأنّه يطلب منها الهدوء، ولمّا افترق الجمع الصّغير همس أنطونيو لصديقته:

- ريتا... ما بك؟

- دعني منك، فمذ عرفتك وأنا خاسرة على كلّ الجبهات، ماذا تريد منّي الآن بعدما حصلت على ما لم تكن تحلم به أبدا؟ وماذا غنمت أنا في المقابل؟ لا شيء... سوى انحناءة لا تكاد تظهر من السّنيور كارلو ونظرة جامدة من تلك الفتاة المتعالية... آه... آه من الفقر!

- ريتا، سوف أعوّضك عن خدمتك الغالية بهدية ثمينة، لكن بقي شيء غامض بدأ يقلقني الآن.

- ما هو أيّها التّاجر الكذّاب؟

- كيف قبل السّنيور كارلو ماندرياني بكلّ هذه السهولة؟ أعني كيف قبل استضافتي في... قصره أو في داره الفخمة، رغم عدم معرفتنا السّابقة، كيف؟

ضحكت ريتا وعادت إليها شقاوتها ومرحها ثمّ قالت:

- الطّمع، الطّمع والجشع يا عزيزي أنطونيو، فكلّما امتلأت جيوب هؤلاء بالمال إلاّ وازدادوا شراهة، والسّنيور كارلو من هذا الصّنف، فهو يرتمي بكلّ ثقله عندما يسمع بشيء اسمه ذهب وتجارة، وهو مستعدّ أن يبيع نفسه للشّيطان مقابل صفقة أو معاملة تدرّ عليه أرباحا سهلة يراكمها على أرباحه، وخوفي عليك يا صديقي شديد لأنّك لا تساوي شيئا، وأرجو أن لا تطرد طرد الكلاب إذا ما اكتشف أمرك وافتضح سرّك. سوف أذهب الآن إلى عملي فقد انتهت مهمّتي... آه قبل أن أنسى... اِبحث عن محلّ تكتري منه ملابس فاخرة تليق بمقام كبار التّجّار، فأنت مدعوّ رسميّا إلى مأدبة غداء فاخرة تليق بمقامك الرّفيع، وسوف تتحدّثون عن التّجارة والمغامرات في بلدان الدّنيا، ومن المفروض أن تكون على قدر المقام يوم تشرّف فيلاّ السّنيور ماندرياني، ولا تنسَ أن تأخذ معك هديّة فاخرة أيّها العاشق الولهان.

- هديّة؟

- طبعا هديّة. ولا ككلّ الهدايا، هديّة فاخرة، لا تحملها أنت بل أرسل عنك خادما أنيقا يقدّمها باسمك إلى مضيّفك ويعلن عن قدومك في ساعة محدّدة... الوداع يا سنيور أنطونيو كازيلا... يا تاجر العطور والأحلام.

ابتعدت ريتا وهي تقهقه بمرح تاركة أنطونيو في حيرة مطلقة، فأدرك حينها أنّها تعرف أشياء كثيرة يجهلها هو، فخاف من الموعد ومن التّاجر الثّريّ ومن ماريا الرّائعة، وتمنّى لو تكرّم السّنيور كارلو واستدعى ريتا لهذا الغداء حتّى تسنده في اللّحظات الحرجة، ثمّ تفطّن إلى المشكل الكبير الّذي طرحته صديقته، من أين سيجد المال الكافي لشراء الهديّة؟ آه... الهديّة... ترى ما نوعها؟ وما شكلها؟ هل يختارها من ذهب أو من فضّة أو من حرير أو...؟

- من أجل عينيك يا ماريا أقلب فينيسيا وأشتري لك أغلى هديّة.
قالها في سرّه ثمّ انطلق للبحث عن صديق يقرضه المال، فقد انزلق إلى المغامرة وعليه تحمّل تبعاتها.

*****

جاء الموعد فأرسل أنطونيو خادمه. فعلا، لقد وجد "الخادم" في شخص "جورجيو" صديق عجوز كان عمل طباخا في قصر "الدّوج" حاكم المدينة، له تجارب في مجال إقامة المآدب والحفلات وله خبرة في فنون ربط العلاقات السّرّية كما العلنيّة، فحمل عنه هديّة ثمينة فعلا، تتمثّل في صندوق أنيق مصنوع من خشب الورد عليه نقوش رقيقة تمثّل حوريّات عاريات وسط بحيرة تكسو ضفافها الزّهور والخمائل، وقد احتوى الصّندوق على قنّينات من البلّور الرّفيع بها أنواع من روح العطر الشّرقيّ الثّمين والمجلوب فعلا من بلاد الهند.

لقد سرق أنطونيو هذه الهديّة من متجر كبير بحيّ المارسريا، واقترض من نفس العجوز مالا لاكتراء كسوة فاخرة غيّرت مظهره بالكامل بفضل نصائح صديقه الّذي لم يبخل عليه بدروس في كيفيّة الجلوس على موائد الكبار.

كان جورجيو هو المستمتع الفعليّ بهذه اللّعبة بعدما أطلعه أنطونيو على نواياه، فقال له:

- إطمئنّ يا جميل، سوف أخدمك كأنّك ابن الدّوج نفسه، وسوف أقف في انتظارك لمعرفة ما ستسفر عنه مغامرتك، فقط تجلّد وكن جسورا ولا تظهر أبدا أنّك خجول.

عندما دقّت ساعة برج ساحة سان مارك معلنة منتصف النّهار، كان أنطونيو يقف أمام الباب الحديديّ الأنيق لفيلاّ التّاجر يسوّي أطراف كسوته الأنيقة ويضع اللّمسات الأخيرة على هيئته، وما كاد

يضع يده على مطرقة الباب حتّى انفتح بكلّ هدوء محدثا أزيزا معدنيّا ثمّ توقّف وبرز من ورائه خادم أنيق جدّا:

- سنيور أنطونيو كازيلا؟ سيّدي ينتظر حضرتك. تفضّل اتبعني من فضلك.

صار قلب أنطونيو يدقّ بعنف وهو يتبع الخادم الأنيق الّذي تمثّل له كشمعة منتصبة من فرط استقامة جسده النّحيف، لكنّ انشغاله لبرهة بهيئة "الماجوردوم" هذا لم تمنع قلبه من الدّقّ العنيف، إذ لم تكن تلك الدّقّات بفعل الخوف والرّهبة من لقاء التّاجر فحسب، وإنّما كانت أيضا دقّات قلب كبرت جنباته بأمل لقاء الحبّ، فعظم الإيقاع وتموّج حتّى غمر كلّ كيان الشّابّ الفقير الدّاخل إلى قصر تاجر ثريّ، شابّ معدم لا حيلة له سوى حرارة المهجة ولهفة اللّقاء، ولا رأس مال له سوى رأسه ووهج في القلب.

انبهر أنطونيو بفخامة الفيلاّ وباتّساع أرجائها وبالخصوص بهندستها وبروعة نقوشها المذهّبة وبستائرها الثّقيلة، وبمراياها العالية وبالكراسي والأرائك المنقوشة والمزركشة، وبالورود المرشوقة في الأواني الصّينيّة الموزّعة في كلّ ركن وعلى كلّ طاولة ومنضدة.

حضرت في ذهنه مقارنة سخيفة بين كوخ أمّه المهمل في حيّ بائس من أحياء البندقيّة وبين هذه الجنّة الّتي دخلها وهو مهزوز الذّات بفعل استصغار نفسه أمام هذا البذخ السّاحق.

كان استقبله منذ لحظات السّنيور كارلو ماندرياني على عتبة الباب مرحّبا:

- أهلا ومرحبا بك سنيور أنطونيو، تفضّل، نحن في منتهى الامتنان لتشريفنا بهذه الزّيارة، وأرجوك المعذرة على عدم قيامي بالخطوات اللاّزمة لاستقبالك بالباب الخارجيّ، فلا تؤاخذ عجوزا انحسر عنه مدّ الشّباب وأصبح يعتمد على الخدم. تفضّل سنيور أنطونيو تفضّل.

تقدّم أنطونيو نحو الصّالون الفخم الّذي يفضي إلى قاعة الأكل الّتي بدت له كأنّها رواق لا ينتهي، ممّا زاد في ضياعه وكاد يغفل عن ضرورة تقمّصه لدور تاجر غنيّ لا تبهره مثل هذه الفخامة فقال لمضيّفه بلهجة خالية من أثر الإعجاب بما رأى:

- أنت صاحب ذوق رفيع يا سنيور كارلو، وإنّي أرى أثر ذلك في كلّ ركن من أركان هذه القاعة وما جاورها، وبالخصوص في اللّوحات الزّيتيّة الّتي تأثّث الجدران.

- أوه سنيور أنطونيو، لا مجال للمقارنة، فلا يرتقي هذا المكان إلى ما عليه دور الأغنياء وقصورهم في فينيسيا، وفلورنسا وبيزا وروما، وحتّى عندكم في جنوة. تفضّل بالجلوس لنشرب كأسا ريثما تلتحق بنا السّنيوريتا ماريا.

ما كاد أنطونيو يستمتع بالجرعات الأولى من كأس النّبيذ الرّفيع الّذي قدّمه له الماجوردوم على طبق فضّيّ وبكيفيّة أنيقة حتّى عاجله السّنيور كارلو بسؤال كاد يعطّل جرعة النّبيذ في حلقه حين قال له:

- على ذكر جنوة سنيور أنطونيو، ما رأيك في الحرب القائمة بين جنوة وفينيسيا من أجل الهيمنة على المفاصل التّجاريّة وعلى أسواق الشّرق والغرب؟

- حرب؟

كان ذهن أنطونيو خاليا تماما من دواعي هذه العداوة المتأصّلة بين المدينتين التّجاريّتين العظيمتين، لكنّه كان قد التقط بالسّماع نتفا عن أخبار المعارك الّتي كانت تثار من حين لآخر بين فينيسيا وجنوة عن طريق بحّارة الميناء والتّجّار الّذين يرسون به، أخبار تدور كلّها حول المنافسة الشّرسة بين البلدين على مواقع النّفوذ التّجاريّ، فقهقه غبطة لأنّه عثر على إجابة اعتقد أنّها دامغة لتغيير مجرى الحديث فقال بلهجة الواثق من قوّة حجّته:

- الحرب... الحرب يا سنيور كارلو أزليّة وقائمة في كلّ مكان وزمان، مادام في الأمر مصالح حيويّة، أي الدّفاع عن الحياة ضدّ الفناء من أجل البقاء، والحرب بين جنوة وفينيسيا تندرج في دائرة التّنافس، والمنافسة هي روح التّجارة، ربح وخسارة، تماما كما الحياة، انتصار وفشل، حزن وفرح، أخذ وعطاء.

- طبعا، طبعا يا عزيزي... دعنا الآن من هذا الآن وقصّ عليّ شيئا من مغامراتك في بلاد... الصّين مثلا، أو الهند، فأنت تذكّرني، ولا أدري لماذا، بالرّحّالة الفينيسي "ماركو بولو" الّذي جاب الدّنيا وكتب عن رحلاته.

- ماركو بولو؟

- معك حقّ لا تعرفه، فقد مات منذ تسعين سنة تقريبا. هيّا بنا الآن إلى قاعة الصّفرة فما زال الحديث سيأخذنا إلى بعيد.

قام أنطونيو وقد شعر بأن قميصه قد التصق بجلده من تأثير تعرّقه، فقد بدا له أنّ كارلو هذا رحالة وعالم بما لا يعلمه هو إطلاقا، وبأنّ المصيدة بدأت تضيق عليه إن لم يعرف كيف يراوغ ويتقتّر في الكلام، فقام بحركة تفضيليّة للسّنيور كارلو حتّى يمرّ هو الأوّل لقاعة الأكل، ولمّا دخلاها رأى مائدة مستطيلة وطويلة عليها من الأواني الّتي لم ير مثلها من قبل، كلّها مذهّبة ومزركشة، وقد وقف قبالتها جمع من الخدم في أزياء أفضل من زيّه الكاذب فازداد ارتباكه لكنّه قدر على إخفائه بابتسامة ظلّت ملصقة على شفتيه حتّى جلس على كرسيّ أفرده له باحترام أحد هؤلاء الواقفين.

حانت منه التفاتة نحو مضيّفه فخيّل إليه أنّه يراقبه بطرف خفيّ ليسبر أغواره ويقرأ ما في سرّه فأوسع في ابتسامته الغبيّة الّتي سرعان ما تقلّصت بفعل الإحراج الّذي انتابه، فقال له السّنيور مطمئنا:

- لا تقلق سنيور أنطونيو، سوف تلحق بنا ماريا، ولن تكون مائدتنا خالية من الحسن ومن الرّقة، وفي رأيي المتواضع، سنيور أنطونيو، فعندما تكون المائدة خالية منهما فإنّها لن تعمر بالمرح وبالفرح، دعنا نتمتّع بهذه الخلوة قبل أن تحضر حبيبتنا، آه... بالمناسبة لا أستطيع أن أعبّر لك عن مدى شكري وامتناني لهديّتك اللّطيفة، فقد كانت رائعة وفريدة من نوعها، وقد أعجبت بها ماريا أيّما إعجاب لدرجة أنّها طلبت منّي السّماح لها باستعمال بعض القنّينات لتتعطّر بها.

اغتنم أنطونيو هذه الفرصة لكي يقول شيئا ويعبّر عن وجوده في هذا المكان الّذي طغت عليه الفخامة وتركته في صمت وضياع منذ دخله، فقال متظاهرا بأنّ هديّته لا تساوي كلّ هذا الإطراء.

- سنيور كارلو، هذا قليل من كثير، ولا تعزّ علينا رغبة السّنيورينا ماريا، فكلّ مراكبنا بما فيها وبما عليها في خدمتها وتحت إمرتها، وما عليها إلاّ أن تطلب ونحن المجيبون المطيعون، ولا يعزّ على ابنة الأصول ما تحتويه جنبات الأسطول.

ضحك السّنيور كارلو فعضّ أنطونيو على شفتيه، فقد أعجبه قوله وعرف أنّه يستطيع أن يخرج من هذا الامتحان مظفّرا، وأنّ بإمكانه أن يتفوّق على هذا التّاجر بمعسول الكلام وبسرعة البديهة لو... يقف الحظّ إلى جانبه.

عندما حضرت ماريا ترفل في فستان آية في الأناقة والجمال، لم يجد أنطونيو كلمة يعبّر بها عن إعجابه وعن تيهه بهذا الجمال الصّارخ الّذي بدا له أفضل من قبل، فأسرع إلى يد الفتاة يقبّلها بكلّ شغف غافل عن الأخذ بأبسط قواعد اللّياقة والأناقة المتعارف عليها عند هؤلاء السُّراة.

- أرى أنّ ماريا قد نالت إعجابك يا سنيور أنطونيو.

- أوه.. هي الإعجاب نفسه يا سنيور كارلو.

لم يصمت السّنيور كارلو ماندرياني لحظة، فقد كان يأكل ويحكي عن سفراته وعن مغامراته لمّا كان في أوج الشّباب، وكان أنطونيو يشجّعه بابتسامة أو بكلمات دالّة على استحسانه للحكاية، وكان يسترق النّظر من حين لآخر إلى ماريا الّتي كانت تستمع إلى كلامهما في صمت ودون انتباه كأنّها غير موجودة، وكأنّ حديثهما لا يعنيها، والأغرب من هذا، أنها لم تحاول أن تطيل النّظر في وجه أنطونيو لأنّها لم تشعر نحوه بأيّ شعور رغم لطف وجهه وتناسق قسماته. وكانت تودّ لو تنتهي هذه الثّرثرة وأن تنصرف إلى غرفتها، لكنّها فضّلت احترام قواعد الضّيافة والبقاء حتّى يأذن لها عمّها بالانصراف.

- هل أعجبتك فينيسيا يا سينورينا ماريا؟

- كثيرا... فهي تذكّرني بما حكاه لي أبي المرحوم عن مدينتنا الّتي فارقتها منذ الصّغر، مدينة فالانسيا الإسبانيّة... لا أدري لماذا رغم اختلافهما، ربّما منظر البحر وربّما شيء آخر... لا أدري حقّا...

- إذن أنت من أصول إسبانيّة؟

- ربّما... إسبانيّة، ربّما إيطاليّة، لكنّي ترعرعت في جنوب إيطاليا.

تدخّل السّنيور كارلو وقد تضايق قليلا من هذا السّؤال فقال:

- سوف تتحدّثان في هذا الموضوع في فرصة قادمة. ما قولك سنيور أنطونيو في مصاحبة ماريا إلى احتفالات كرنفال فينيسيا الّتي ستنطلق غدا؟ فأنا لم أعد ذلك الشّابّ القادر على خوض معامع الكرنفالات الصّاخبة.

- غدا؟ أوه فعلا فعلا وبكلّ سرور، هذه فرصة عظيمة لكي تتعرّف حسناؤنا على فينيسيا وعلى كرنفالها المشهور.

نطقت ماريا بحدّة أدهشت عمّها، كما انطفأ إشراق وجه أنطونيو فجأة حين قالت:

- لا... لا يا عمّي أرجوك، أعفني من الخروج غدا... أرجوك.

حدجها السّنيور كارلو بنظرة خاطفة فيها أمر صارم بالبقاء، ثمّ قال موجّها الكلام لأنطونيو:

- أنت تعلم دون شك يا عزيزي أنّ الهدف الأساسيّ من إنشاء كرنفال فينيسيا هو إلغاء الفوارق الاجتماعيّة لحين، فلمّا يتنكّر النّاس أثناء حفل صاخب تنتفي بينهم تلك الفوارق الّتي تميّزهم عن بعضهم في سائر الأيّام، فالغنيّ يتنكّر في هيئة فقير، وهذا الأخير يتنكّر في هيئة غنيّ بفضل الأقنعة والملابس، أليس كذلك يا سنيورينا؟

- بالفعل بالفعل يا عمّي، ثمّة ناس يواصلون التّنكّر في هيئات غير هيآتهم حتّى بعد أيّام الكرنفال.

أبدت هذا التّعليق بعدما حدجت أنطونيو بنظرة أحرجته، فردّ العمّ دون أن يدرك حقيقة معنى الغمز قائلا:

- ذاك حال الكثير من الأغبياء يا عزيزتي.

ردّ أنطونيو بلهجة جافّة:

- وثمّة يا سنيورينا ماريا ناس خانهم الحظّ في الدّنيا مع أنّ قلوبهم صادقة فيضطرّون للكذب، أو للتّجمّل بالهيئة لا بالفعل.

أحضر الخدم الطّعام وطافوا يوزّعونه على الثّلاثة في مراسم كادت تفقد أنطونيو أعصابه، وبذلك انتهى الحديث المشحون حول الكرنفال فارتاح أنطونيو الّذي كان متوجّسا من منزلق يفضح سرّه.

*****

استأذنت ماريا من عمّها السّماح لها بالانصراف إلى جناحها لأنّها تشعر بصداع ألمّ بها ثمّ التفتت إلى أنطونيو وحيّته بانحناءة خفيفة فسارع إلى يدها وأمسك بها بكلّ رفق ثمّ انحنى وقبّلها كما فعل في البداية لكن بلمسة أرادها حميمة فسرت في جسمه نفحة من الحرارة وهو يلامس طرفا من جسد ماريا، ولم تطل متعته فقد جذبت الفتاة يدها برفق ثمّ استدارت وانصرفت تاركة وراءها نسمة من العطر وحفيف فستانها الطّويل... ولوعة في قلب الفتى.

- سنيور أنطونيو لا تؤاخذ ماريا على طبيعتها الّتي تبدو حادّة نوعا ما، فهي هكذا كالمرحوم أخي، وعلى كلّ حال سوف تتعرّف عليها أكثر حين تستمتعان بأجواء الكرنفال بداية من الغد. المهمّ الآن، أمورنا نحن... نعم نحن. أريد أن أتعرّف أكثر على ميدانك وآفاقه، ربّما يسعدنا الحظّ ونصبح شريكين أو شيئا من هذا القبيل.

ترك أنطونيو السّنيور كارلو يضحك ضحكة مجاراة مفتعلة بينما حلّق هو في أجواء خيالاته وقد شعر بأنّه سيتعب مع ماريا وأنّها لن تكون كما يريد. ولم يفقه من حديث الرّجل معه أيّ شيء، فقد كان كلّ واحد منهما يسعى وراء أهوائه وطموحاته فلم يطل المقام بأنطونيو أكثر من نصف ساعة ثمّ استأذن من مضيّفه في الانصراف متعلّلا بمشاغل في الميناء، على أن يعود صباح الغد لمرافقة ماريا إلى ساحات مدينة فينيسيا وإلى جسورها العديدة، وقد أقرّ العزم في سرّه على مصاحبتها في جولة في الجندول والسّعي إلى كسب مودّتها. تماما كما يفعل العشّاق: لكن...

ما كاد يطمئنّ للحال وهو على عتبة الباب حتّى نفضه السّنيور كارلو بسؤال:

- في أيّ رصيف رست مراكبك سنيور أنطونيو؟ لا بدّ من أن نردّ لك الزّيارة بأحسن منها.

سقط السّؤال على أنطونيو سقوط سارية مركب قصمتها صاعقة في عرض البحر، فحطّمت كلّ أمانيه وبعثرت كلّ أحلامه، فما كان منه إلاّ أن سارع بلملمة شتاته وهو يحاول إخفاء دفق الخوف الّذي يصكّ وجهه فلوّنه حالا بالأصفر من فرط الغصرة:

- أوه سنيور كارلو، عفوا على إغفالي لهذا الأمر، كان عليّ أن أبادرك بالدّعوة لزيارتي في مركبي الّذي تركته في الحقيقة في عرض البحر، لأنّي على أهبة سفر إلى بلاد البربر، وأنا أقيم مؤقّتا عند صديق، فهلا وفّرت لي الوقت لإعداد زيارة تليق بمقامك الرّفيع؟

- لا تأخذ كلامي مأخذ الجدّ يا عزيزي فأنا أمزح ولم أفكّر في ردّك للزّيارة بهذه السّرعة، فما زالت الأيّام بيننا لنلتقي مجدّدا، أراك إذن غدا، مع السّلامة.

لمّا علمت ماريا أنّ أنطونيو قد غادر الفيلاّ أسرعت إلى عمّها فوجدته واقفا أمام إحدى نوافذ قاعة الاستقبال ينظر إلى الحديقة الواسعة.

- عمّي، أريد أن أتحدّث إليك قليلا.

- تحدّثي يا عزيزتي، تحدّثي، إنّي لا أرغب إلاّ في ذلك.

- أنطونيو هذا، أو السّنيور أنطونيو كما يحلو لك أن تناديه ما هو إلاّ رجل... محتال.

- محتال؟

- نعم مخادع ومحتال ولا أدري ماذا أيضا، إنّه جاهل ولا يعرف من التّجارب شيئا، ولم يسافر ولو مرّة في حياته، ولم يخرج أبدا من فينيسيا سواء إلى اليابسة أو إلى أعماق البحار كما يدّعي، وأقول إنّه لم يحاول أن يقود جندولا أو حتّى مركب صيد أو اصطياد سمكة.

- مهلا!... مهلا يا بنيّتي!... ما هذا التّحامل على رجل لا تعرفينه وتجهلين عنه كلّ شيء، بل دعيني أسألك هل تعرفينه من قبل؟

- لا أعرفه يا عمّي، بل رأيته مرارا...

- كيف... ومتى؟

- منذ ثلاثة أيّام في ساحة سان مارك، وفي البيازتا عندما كان يتبعنا عن بعد ويتظاهر بأنّه يتجوّل مثلما كنّا نفعل... وكان يلبس لباسا متواضعا يدلّ على تواضع منشئه... كان لباسه عاديًا جدًا ولا يدلّ على أنّه ثريّ أو تاجر أو حتّى خادم تاجر، نعم يا عمي رأيته ولاحظت عليه ما لاحظت.

- ولماذا لم تخبريني بهذا يوم التقيناه وقدّمته لي تلك... الـ ... تلك الفتاة ريتا... لماذا؟

- لا أدري يا عمّي. كنت أشكّ في حدسي، ثمّ إنّي أجهل هذه المدينة وأهلها وعاداتها، وقلت في نفسي ربّما يكون الرّجل تاجرا بالفعل، لكنّي عندما جالسته منذ حين وسمعته يتحدّث تحقّق عندي أنّه لا يساوي شيئا.

- ومن أين لك أنت بمعرفة الرّجال ولغة التّجارة والبحّارة؟

- من إخوتي، إنّهم يعرفون كلّ شيء عن حياة التّجّار والبحّارة والقراصنة وعن أشياء عديدة وهم يقصّون عليّ دائما حكايات غريبة وعديدة عن هذه العوالم.

- اللّعين... ضحك على ذقني، لكن لا بأس، سوف يعود غدا صباحا ليأخذك إلى الكرنفال وحينها سوف يجد من ينتظره بالباب، وسوف ينال عقابا لن ينسيه فعلته الدّنيئة، لكنّي أتساءل: لماذا فعل كلّ هذا؟

- عجبا عميّ؟ أنت الذّكيّ وتفوتك هذه الإشارات؟ طبعا يريدني أنا يا عمي-

*****

لم يرتح أنطونيو أبدا لنظرات ماريا الّتي كانت تحدجه بها من حين لآخر طوال جلوسهم على المائدة، كما لم يرتح إلى الطّريقة الّتي رفضت بها مرافقته إلى احتفالات الكرنفال، وتوجّس خفية من هذا الشّعور، وأحسّ بأنّه سيقع في فخّ لا نجاة له منه، إذا لم يجد مخرجا لهذه المغامرة الّتي حشر نفسه فيها بدون شعور وبغير رويّة. ثمّ داهمه سؤال طائر ألهب وجهه كأنّه صفعة من يد غليظة: كيف؟ كيف يطلب منّي السّنيور كارلو ماندرياني أن أرافق ابنة أخيه إلى احتفالات الكرنفال الفينيسي وهو عارف أنّي غريب عن المدينة، ولم يتمّ على تعارفنا سوى ساعات؟ ثمّ إنّه يعلم أصول هذه الاحتفالات وقواعد لعبتها الّتي لا يجهلها أحد هنا؟ يا إلاهي!... هناك فخّ إذن؟

ذهب إلى ريتا يطلب منها النّصح بعدما حكى لها بالتّفصيل ما حصل في اللّقاء بفيلاّ ماندرياني، فلم يلق منها سوى ما زاد في إرباكه وفي تعميق شكوكه:

- وحقّ الرّبّ أنت غبيّ بامتياز، فقد وضعت رأسك بين فكّيْ أسد وحسبت نفسك شاطرا وذهب في ظنّك أنّك تفوّقت على ذلك الرّجل بذكائك وأنّك نجحت في الامتحان في حين أنّك سقطت في الفخاخ الّتي نصبها لك دون أن تدري، فالسّنيور ماندرياني رجل خطير وله رجاله الأشدّاء في أوساط البحّارة والنّوتيّة، وله عيون تستقي له الأخبار عن التّجّار الغرباء الوافدين على الميناء، وسوف يسلّط عليك عيونه ليعرف حقيقتك، لذا يا صاحبي العزيز أعدّ نفسك لنيل عقاب في حجم ما اقترفته من قلّة اعتبار تجاه السّنيور وتلك الّتي أغرمت بها.

*****

أنطونيو متعوّد على المشاركة سنويّا في الكرنفال باعتباره تظاهرة عريقة يستعدّ لها أهل المدينة استعدادا لا مثيل له وتدوم الحفلات أيّاما عديدة، ومن ميزة هذا الكرنفال أن يلبس المحتفلون كسوة تنكّرية تسمّى "التبارو". يلبسها كلّ أهالي فينيسيا رجالا ونساءً، من حاكمها إلى أبسط خادم فيها، الكلّ بغير تمييز، وهكذا يحافظ كلّ فرد سواء كان رجلا أو امرأة على سرّيّة هويّته، فلا يتعرّف عليه أحد ولا يظهر من وجهه المغطّى إلاّ ثقبان ينظر من خلالهما إلى ما حوله حتّى لا يتمكّن أيّ كان من أن يفرّق بين ذكر وأنثى وبين حاكم ومحكوم وبين خادم ومخدوم، وذلك طوال أيّام الاحتفال وهكذا يعيش النّاس أحلى أوقات الحرّيّة والاستمتاع دون قيود وبلا حدود، وهنا يكمن سرّ هذا التّنكّر.

أمّا جانب الطّرافة في هذا الكرنفال فتتمثّل في أنّ كلّ الحواجز والممنوعات تسقط، وكلّ من يرغب في إتيان فعل لم يجرؤ على القيام به في حياته العاديّة، يجد لنفسه متنفّسا في أيّام الاحتفال ويحقّقه ويتمتّع به دون أن يكتشف أمره أو يفتضح سرّه، كلّ هذا في جوّ من المرح ومن الموسيقى الصّاخبة ومن الضّوضاء ومن الصّياح المتعالي من كلّ حدب وصوب، فلا أحد يرغم أحدا، ولا أحد يمنع أحدا، إنّها الحرّيّة المطلقة في إطار رائع من الزّينة الّتي تفيض بها المحلاّت التّجاريّة قاطبة، وما تتنافس في إظهاره للوافدين على المدينة من مختلف الجهات والأجناس.

ساحة سان مارك الرّحبة جدّا هي المنتهى والقلب النّابض للمدينة، حيث تلتقي الجموع المتوافدة من مختلف الشّوارع والأزقّة، ومن القنالات المائيّة الّتي اشتهرت بها المدينة. أمّا متنفّسها فلا يقلّ عنها اتّساعا واستيعابا لجموع المحتفلين، منها ساحة البيازيتا وشارع المارسريا اللّذان يتكفّلان بالتّنفيس من الضّغط والازدحام. وفي النّهاية

فإنّ هذه الأيّام المجنونة الّتي تعيشها فينيسيا بسكّانها وبالوافدين عليها هي أحلى الأيّام لمن يريد اغتنام الفرصة وتحقيق حلم أو أمنية راودت خياله أو داعبت فكره.

قال أنطونيو لنفسه:

- لماذا الخوف؟ إنّها مغامرة، يمكن أن تنجح كما يمكن أن تخفق. فالفرصة عزيزة ولن تتكرّر إلاّ في السّنة القادمة، فهل ستبقى ماريا في فينيسيا إلى السّنة المقبلة؟ لا أظنّ، إذن وبما أنّ الكرنفال يعتمد على قاعدة إلغاء الفروقات بين الطّبقات باعتماد التّنكّر، فمرحى لانقلاب الأوضاع بما أنّه يمكن للغنيّ أن يتحوّل إلى فقير والفقير يتحوّل إلى غنيّ ولو لحين، فليكن إذن الأمر كذلك بالنّسبة إليّ حتّى أبلغ مناي وأفوز ولو بلحظات خاطفة مع ماريا الحلوة.

قرّر أن تكون مغامرته مع ماريا في إطار هذا الكرنفال، كما قرّر أن لا يذهب في الغد إلى فيلاّ كارلو ماندرياني لمرافقة ماريا، بل سيذهب ويقف عن بعد ليرى كيف ستتنكّر الفتاة وعمّها الثّريّ، وحينها تبدأ لعبته، سوف يخضعها، سوف ينزع منها تلك النّظرات المتعالية، وسوف... وسوف...

*****

في الغد بدأت حفلات الكرنفال واختلط الحابل بالنّابل وتعالت إيقاعات الموسيقى من كلّ جانب والتقت الجموع الغفيرة المتنكّرة في أزياء بهيجة الألوان ومتنوّعة الأشكال في ساحة سان مارك.

تخلّف أنطونيو عن الاختلاط بتلك الجموع الرّاقصة والهازجة فاتّخذ لنفسه مكانا غير بعيد عن فيلاّ التّاجر وهو متنكّر في زيّه الكرنفاليّ يرقب حركة المكان وينتظر خروج ماريا وعمّها حتّى طال به الانتظاره إلى ساعة قريبة من الظّهر. فدبّ اليأس إلى قلبه وهمّ

بالالتحاق بالجمهور المتلاطم ليلهو مثلهم، لكنّه تراجع قليلا حين لاحظ انفتاح باب حديقة الفيلاّ وخروج ماريا وعمّها.

لم يتعرّف أوّل الأمر على ماريا فقد كانت متنكّرة مثل عمّها، لكنّه أيقن أنّها هي دون شكّ فتبعهما عن بعد وعيناه لا تفارقانهما حتّى لا يضيعا عنه في الزّحام.

صعب على أنطونيو اللّحاق بماريا، فقد كانت الجموع الحافلة ترقص وتراقص بعضها البعض ولا تترك فجوة لمن يريد شقّ طريقه، وبينما كان يحاول الوصول إلى ماريا ليراقصها وجد نفسه فجأة بين ذراعي سيّدة بدينة أخذت تراقصه بكلّ خفّة وتحبسه في مكانه، فجاراها أوّل الأمر ثمّ انفلت منها ليتّجه إلى حيث رأى ماريا تبتعد عن عمّها وتراقص شخصا آخر، ثمّ تلقّفها راقص ثان ودار بها دورات متعدّدة ثمّ دفعها أخيرا إلى راقص ثالث، وهذا الأخير أخذها وراقصها بسرعة دون أن يترك لها لحظة لتعيد توازنها، وهكذا رأى أنطونيو حبيبته تنتقل من ذراع إلى أخرى وهو لا يستطيع أن يلحق بها ويظفر برقصة معها حتّى ابتعد عن ساحة سان مارك وهو يصارع خضمّ المحتفلين إلى أن بدأت هذه اللّعبة تفقده أعصابه وتدفعه لأن يكون خشنا مع كلّ من يعترض طريقه أو مع كلّ من تريد مراقصته أو استدراجه ليشاركها فرحها ولهوها.

هبط اللّيل ومازال الصّخب يطغى على المدينة فتحوّلت الشّوارع والأرصفة والقنالات والمراكب والجنادل إلى كتل سوداء تحمل الشّموع المضاءة والمصابيح الصّينيّة الملوّنة فتضفي على الجوّ مسحة جماليّة رائعة، ورغم كلّ تلك الأضواء وومضات الشّماريخ وطرطقاتها في السّماء فقد انقبض قلب أنطونيو لمّا فشل في اقتفاء أثر ماريا فمضى يبحث عنها بلهفة وبجنون في كلّ حلقة يجد نفسه فيها، وكاد يدفعه

تهوّره هذا إلى مدّ يده والكشف عن كلّ رأس لولا يقينه بأنّ مثل هذه الحركة تؤدّي به إلى الضّرب المبرّح من طرف المحتفلين.

دفعته الأمواج البشريّة غصبا إلى الميناء فأسرع إلى حافّة الرّصيف وتنفّس نفسا عميقا ورام الجلوس على كومة من الحبال ليرتاح من العناء الّذي أصابه، لكنّه ما كاد يفعل حتّى تنامت إلى سمعه جلبة وصيحة مكتومة آتية من مركب بصدد مغادرة الميناء وهو يضرب صفحة الماء بمجاديفه.

- عمّي... عمّي كارلو... النّجدة ع...

كان لوقع هذه الاستغاثة في أذن أنطونيو وفي قلبه الأثر الانفجاريّ، فاندفع يجري بكلّ قوّته نحو مصدر الصّوت غافلا عن مخاطر الوقوع في البحر، لكنّه استدرك متأخّرا حين عثرت قدمه بحبل غليظ يشدّ قاربا فسقط في الماء وحينها استفاق من كابوسه لمّا غمره ماء البحر البارد ولسعه في عظامه فراح يسبح بكلّ قواه وهو لا يحسن ذلك إلاّ قليلا ودفعه خوفه من الموت ومن فقدان ماريا إلى التّشبّث بالحياة وتفجير طاقة أخرى في جسمه لكي يلحق بذلك المركب الّذي يسري الآن بسرعة نحو عرض البحر.

لم يلحق بالمركب، فداهمه إعياء قاتل، وكاد يستسلم إلى الموج المتلاطم الّذي أعمى عينيه وقطع عنه التّنفّس، فرفع عقيرته بالصيّاح طالبا النّجدة، لكنّ صياحه كان يختنق في فمه كلّما فتحه لينال نفسا، لكنّه كان سرعان ما ينسدّ بدفق الماء المالح فيستحضر وهو في لحظات الصّراع مع الموت ومع الأمواج صورة ماريا الّتي حُرم منها بسبب هذا الكرفنال اللّعين، واستطاع في آخر رمق من مقاومته أن يصيح بأعلى صوته وبكلّ ما في كيانه من إرادة للنّجاة والبقاء والتّشبّث بالبقاء على قيد الحياة من أجل حبّ وليد كبّله توّا كأنّه كمّاشة عاتية.

- ماريا... ماريا...

تلاشى صوته في ذلك المدّ المظلم الرّهيب، حتّى لم يبق إلاّ هدير الموج المتلاطم بتواتر مرعب.

*****

بعد إغماء طويل، وجدت ماريا نفسها وسط مجموعة من النّساء والشّابّات مثلها وهنّ بأزياء الكرنفال في قاع سفينة كبيرة يبدو أنّها راسية في عرض البحر، فقد ظهر للفتاة أنّ لعبة الكرنفال مازالت متواصلة بعدما تغيّر نسقها واعتقدت أوّل الأمر أنّ هذا المكان هو جزء آخر من مفاجآت الحفل، لكنّ شعورها بالخوف في هذه العتمة، وما لاحظته بصعوبة على النّساء من فساد زينتهنّ وتبعثر شعورهنّ ولباسهنّ جعلها تصيح بهلع:

- أهذه حفلة كرنفال؟ ماذا نفعل هنا؟ ولماذا رموا بنا في هذا الرّكن العفن؟

لم يقابل تساؤلها سوى الوجوم وشهيق متقطّع وبكاء بعضهنّ، ولمّا ألحّت في السّؤال انبرت واحدة من النّسوة وقد بان عليها سكر خفّف عليها وقع المأساة فقالت بلهجة ساخرة:

- يبدو أنّك غريبة عن مدينتنا يا حلوة، إنّنا هنا بعيدا عن الكرنفال، وقد انتهى بالنّسبة إلينا منذ استدرجونا بالرّقص وبالخمرة إلى الميناء، نحن أسيرات يا صبيّة... سبايا... اختطفونا... وربّما سيأخذوننا إلى كرنفال آخر.

قهقهت المرأة كأنّها تستمتع بقولها الّذي ملأ القلوب هلعا حتّى أنّ بعضهنّ رحن ينتحبن، لكنّ ماريا لم تقبل بعد هذه الحقيقة فتمادت في السّؤال:

- ماذا؟ من هم الّذين... لا... لا... لن أبقى هنا سوف أهرب سوف أنتحر... لا بدّ لنا من منقذ.

- يبدو أنّهم قراصنة أجلاف، ولن تقدري على الهروب من هنا، وكما قلت يا حلوة، نحن في قاع سفينة وحول الفتحة فوقية لهذا السّجن يقبع حرّاس أشدّاء وسكارى أيضا، فإذا أردت الخروج فلن يكون مصيرك سوى قضاء بقيّة اللّيل وأنت مطروحة على الخشب موثوقة القوائم والقراصنة يتداولون عليك، ثمّ وبعد قضاء وطرهم منك يرمونك هنا كالجيفة.

ارتمت ماريا على كومة قشّ قرب إحداهنّ وهي تصارع دموعا عصيّة ثمّ ما لبثت أن انخرطت في البكاء مع بقيّة الباكيات إلى أن سمعت امرأة تسأل المتكلّمة:

- من أين لك بمعرفة هذه الأشياء وأنت تقعين في السّبي لأوّل مرّة؟ أو هل أنت متعوّدة على مثل هذه الحفلات؟

- سمعت بعضهنّ يحكين عن مثل ما حدثتكنّ به الآن نقلا عن مومس وقعت في قبضة قرصان، فحدث لها ما يحدث لامرأة وسط همج مخمورين، ولولا تعوّدها على الرّجال بحكم عملها لقضت نحبها، لكنّها استطاعت أن تغري أحدهم فتظاهرت بالوقوع في غرامه، ثمّ اختلقت له حكاية دسّت فيها سرّا كاذبا وادّعت أنّها تملك مجموعة من الجواهر الثّمينة أخفتها عند إحدى صديقاتها، ولمّا سقط المغفّل في الفخّ عرض عليها خطّة للهرب ليلا والعيش سويّا.

طمع القرصان في الاستحواذ على المجوهرات المزعومة، وربّما خطّط لقتل المومس حالما ينال مبتغاه، وانتظر الوقت الملائم لإنزال المومس في زورق تحت ستر الظّلام وفي غفلة من أصحابه، عازما على مصاحبتها حتى الميناء تحت تهديد خنجر، لأنّ الشّكّ داخله في جدّيّة زعم المرأة بوجود الجواهر، لكنّ أمله كان أقوى من الكذبة. وعندما وصلا إلى المكان المتّفق عليه زاغت عنه المومس فجأة إلى منعطف ضيّق ومظلم وغابت عن نظر القرصان الّذي فشل في العثور عليها طوال تلك اللّيلة.

- دعينا من هذه الحكايات الآن، كيف العمل للانفلات من قبضة هؤلاء القراصنة؟ هل ذلك ممكن وهل نجد من يساعدنا؟

بينما هنّ مستغرقات في التّساؤل وفي ندب حظوظهنّ انفرجت فجأة الفتحة الفوقيّة لتتدافع منها مجموعة أخرى من الحسناوات بلباس الكرنفال.

نسيت ماريا للحظة حالها حين رأت المجموعة الجديدة الّتي تتكوّن من خمس نساء وقرأت على وجوههنّ نفس الشّعور ونفس علامات التّساؤل والهلع الّتي شعرت بها وهي تُساق إلى هذا المكان القذر. تساءلت إحدى القادمات الجديدات ببلاهة:

- هل سنواصل حفلة الكرنفال هنا؟

ضحكت واحدة من الجالسات وقالت:

- يبدو أنّ هذه الحمامة متعوّدة على أجواء كرنفاليّة من نوع خاصّ، تقدّمي يا سنيورينا، فالكرنفال الحقيقيّ لم يبدأ بعد، وسوف تجدين نفسك بداية من الغد في دنيا أخرى لا حاجة لك فيها بلباس تنكّريّ، ولن يتعرّف عليك أحد ولن تتعرّفي على أيّ وجه... سوف تجدين نفسك غريبة تماما وحينها تستطيعين فعل ما يحلو لك لو تمكّنت طبعا من فعل شيء...

لم تنم ماريا فقد قادها خيالها إلى حيث إخوتها وأمّها، وإلى ذلك الشّابّ ابن الجيران الّذي خيّل إليها أنّه تسلّل إلى قلبها فضاعت في متاهات ذكرياتها.

فجأة فُتحت الفجوة العلويّة فاستوت البنات والنّسوة والتصقن ببعضهنّ في حركة دفاعيّة لا إراديّة وعيونهنّ معلّقة إلى فوق تتطلّع إلى قدمين نازلتين السّلّم ثمّ ما لبثتا أن توقّفتا لمّا ظهر وجه صاحبهما على ضوء مصباح بدّد ظلمة المكان وجعل قسمات وجه الرّجل تبدو كأنّها أخاديد غائرة.

تعلّقت أنظار المخطوفات الخائفات بمنظر الرّجل البدين الّذي وقف أمامهنّ بكلّ صلف ورقاعة وقد برقت عيناه ببريق مخيف، وأجال فيهنّ بصره متفحّصا القطيع المرتجف، ثمّ أشار بيده إلى فوق فنزل أربعة رجال أتعس منه منظرا ومظهرا ووقفوا وراءه وبأيديهم مصابيح بائسة الأضواء ينتظرون إشارة ثانية.

ران على النّسوة صمت مفزع، وارتفعت دقّات قلوبهنّ فأمسكن ببعضهنّ كأنّهنّ يتحصّنّ بما تبقّى لهنّ من شجاعة لمواجهة هذا الشرّ الّذي أطلّ عليهنّ.

تقدّم الرّجال وراء رئيسهم فأشعّت أضواء مصابيحهم بأنوار بدّدت العتمة وكشفت أرجاء السّجن البائس الّذي ضاقت جنباته بعدد المختطفات وفاضت منه روائح التّعرّق الممزوج بأنواع من العطور وبالرّطوبة فاستحال جوّ المكان إلى رائحة عطنة أكثر منها منعشة.

أخفت ماريا وجهها وراء ظهر حسناء حتّى لا تقع نظرات القرصان عليها، وكانت تتوجّس خيفة من هذا الجلف الّذي لن يخرج من هنا إلاّ بعد أن يأتي فعلا ما، ولم يستطع خيالها أن يوصلها إلى ما يمكن أن يقدم عليه الرّجل، ففضّلت أن تنتظر الآتي بكلّ قلق ورجفة.

حدثت ضربة سوط في الهواء فارتعدت أجسام الخائفات ورأت عيونهنّ عصا السّوط تتّجه ناحية واحدة منهنّ وصوت القرصان يجلجل:

- هـذه...

كانت إشارة القرصان متّجهة بسوطه الغليظ إلى إحدى الحسناوات القابعات قرب سارية يتدلّى منها مصباح يوزّع ضوءا شحيحا على وجوه النّساء، لكنّه كان ضوءا كفيلا بأن يطبع على سحناتهنّ الكالحة مسحة غريبة من الظّلال حوّلت وجوههنّ إلى ما يشبه رؤوس فزّاعات وقت الغروب.

تقدّم الأربعة الأشدّاء نحو الشّابّة المسكينة الّتي تكوّرت على نفسها كالقطّة الخائفة ولم تستطع حتّى أن تصيح وهي تنظر بهلع إلى أرجل الرّجال الأربعة الّتي تقدّمت نحوها، وعندما أحسّت بأيديهم الغليظة تنطبق على ذراعيها أطلقت صيحة أفزعت كلّ رفيقاتها، ولم يفدها صياحها فقد انتزعها الرّجال من مكانها انتزاعا ورفعاها إلى فوق فبدت بينهم كأنّها دمية من كتّان، ثمّ وضعوها أمام رئيسهم الّذي برقت عيناه وتحلّب ريقه وهو يرى المسكينة ترتعد كالعصفور المبلّل، فأشار برأسه إلى أحدهم إشارة خفيفة فتقدّم من الفتاة، وبحركة خشنة مزّق ثوبها بيد واحدة فظهرت تحت الثّوب ثياب أخرى فأسرع بكلتا يديه ومزّق البقيّة وأنزلها بعنف إلى مرفقي الفتاة فتعرّى ظهرها وصدرها فهمهم الرّجل بتعبيرات دلّت على عدم رضاه بما انكشف له من جسد الفتاة.

كان القرصان يتحدّث بلغة إيطاليّة فيها لَكْنَة دلّت على أنّه غريب وأنّه من هؤلاء القراصنة الّذين يحفظون جملا من لهجات موانئ البلدان الّتي يرتادونها وبذلك يتمكّنون دوما من الحفاظ على سرّيّة هويّاتهم وجنسيّاتهم.

- أحضر لي تلك المختفية وراء صاحبتها.

شعرت ماريا بقلبها ينسف صدرها، وبعرق بارد ينزّ من جبهتها، وبخصلات شعرها تلتصق بخدّيها وبارتجاف في مفاصلها، فنظرت بعين واحدة إلى القرصان فرأته يشير إلى فتاة أخرى كانت متخفيّة أيضا وراء رفيقتها فاطمأنّت برهة ممّا أسال دمعة من عينيها فلم تعرف هل هي دمعة فرح من النّجاة أو دمعة شكر للرّبّ أو دمعة غُلب؟ المهمّ أنّها استوت قليلا لترقب ماذا سيفعل ذلك الوحش بتلك الحسناء الثّانية الّتي رُفعت كالأولى ووُضِعت أمام القرصان الّذي لم يطل فيها النّظر

واكتفى بأن أدارها على نفسها دورة كانت كفيلة بانتزاع همهمة استحسان من شفتيه الغليظتين.

دار الرّجل على أعقابه بعدما ابتسم ابتسامة كريهة إلى القطيع المتراصّ ببعضه من شدّة الخوف ثمّ قهقه بمرح بعدما ضرب بسوطه في الهواء ضربة اهتزّت لها أجساد السّبايا مرّة أخرى ومضى يتسلّق السّلّم ووراءه رجاله يحملون المسكينتين الموثقتين بالأذرع القويّة.

سألت واحدة من الفتيات بلهجة بريئة وهي ترسم علامة الصّليب بسرعة:

- ماذا سيفعلون بهما يا ترى؟ أوه سانتا ماريا...

أجابتها أخرى برقاعة المومسات:

- ما أغباك أيّتها البلهاء، ماذا يمكن أن يفعل قرصان مخمور بامرأة في مثل هذه السّاعة من اللّيل؟ سوف يكتفي بتشمّمها حسب ظنّك؟ نامي أحسن لك واحمدي الرّبّ على أنّك لم تكوني من ضيفات هؤلاء.

ما أن انتهت المرأة من قولها حتّى حدثت ضجّة وجلبة أقدام عديدة على سطح السّفينة ثمّ تبعتها أصوات ارتطام أجسام ثقيلة في قاع السّفينة حذو حبس النّسوة.

*****

انغلق الباب الحديديّ المشبّك الثّقيل على الأكوام البشريّة الّتي ازداد عددها بقدوم هذه الشّحنة الجديدة من المختطفين ثمّ سرت حركة حثيثة على جسر السّفينة وبدأ النّوتيّة ينشرون الأشرعة استعدادا للإبحار أو للهروب من ذلك المكان تحت ستر الظّلام.

انطلقت الأوامر من كلّ جهة وأخذ الرّجال أمكنتهم ولم تمض بضع دقائق حتّى تحرّكت السّفينة في تثاقل تاركة وراءها مدينة فينيسيا تعيش كرنفالها المتواصل في صخب وضجيج دون أن تتفطّن إلى أنّها فقدت إلى الأبد بعض نسائها وفتياتها ومجموعة من فتيانها.

في قاع السّفينة المخصّص للسّلع وللدّوابّ قبع سبعة شبّان هم آخر من تمّ اختطافهم في تلك اللّيلة، فقد كانوا في حالة سكر مطبق ولم يعرفوا بعد ما حدث لهم ولا أين هم ولا كيف وصلوا إلى هذا المكان الّذي تنبعث منه روائح كريهة إلى حدّ الغثيان والتّقيّؤ.

فتح أنطونيو عينيه فلم يتبيّن أوّل الأمر شيئا ثمّ لمّا استعاد وعيه قليلا أعاد فتح عينيه فاستغرب من عدم وجود ماء أو أمواج متلاطمة. وأراد أن يتأكّد من ذلك فرفع يده إلى عينيه لكنّه لم يستطع واكتشف أنّه مقيّد بحبال غليظة ولا يستطيع الحراك أو حتّى الزّحف...

- ما هذا؟ ماذا فعلت لكي أسجن؟ أين أنا؟

جاءه جواب صادم من أحدهم:

- أنت في قاع سفينة.

- كيف... كيف وصلت إلى هنا؟ هل هي هنا... هل أخذوها... هل؟

- من هذه الّتي تهذي بها أيّها المجنون؟

- ماريا... ماريا... أخذوا ماريا... هربوا بها...

- اشكر ربّك الّذي أنقذك من موت محقّق... فقد أدركوك وأنت تغرق...

- ولماذا أنقذوني؟... لماذا لم يتركوني أموت... لماذا؟

- لأنّك بغل سوف يباع بكذا ثمن. ها ها ها... لقد أنقذك واحد من هؤلاء القراصنة الأجلاف، بعدما عثر عليك وأنت بين الحياة والموت فكنت بالنّسبة إليه صيدا سهلا.

- هل غادرنا فينيسيا؟

- غادرناها إلى الأبد، فاعتبر نفسك من اللّيلة عبدا، وقل وداعا للحرّيّة ولفينيسيا ولصاحبتك ماريا، لكن من تكون ماريا هذه؟

سكت أنطونيو وقد اختنق بعبرة وكاد يبكي حاله، فقد هاله أن يصبح في عداد الرّقيق بمثل هذه السّهولة، وحاول أن يتطلّع إلى ما حوله لكنّ الظّلام حدّ من رؤيته، فقد كان الضّوء المنبعث من قنديل فوقيّ شحيحا.

- ما العمل الآن؟

- مع من تتحدّث يا هذا؟ كلّ هؤلاء سكارى لم يفقهوا بعد شيئا. دعهم ينامون أحرارا لآخر مرّة وسيستفيقون بعد قليل أو غدا على واقع مرّ، ثمّ إنّنا مربوطون كالدّواب بحبال خشنة ولا نستطيع الحراك فكيف تفكّر في طريقة للخلاص من قيدك؟ استسلم يا...

- أنطونيو... أنطونيو.

- آه... أنطونيو، إذن استسلم يا رفيقي لواقعك الجديد، وانتظر ساعة حلولك بمرسى مجهول حيث سيتحدّد مصيرك، فمن يدري ربّما يشتريك ملك أو تاجر أو يستعملك القرصان لأغراضه الخاصّة.

- ترى هل هي هنا أو في سفينة أخرى؟ آه لو أعرف فقط أين هي الآن لاحتملت من أجلها أسري وعبوديّتي هذه.

- ما أغباك ياهذا ! ألم تدرك بعد أنّ التّفكير في حالك أجدر لك من التّفكير في مصير هذه المرأة الّتي تهذي باسمها؟

- ومن تكون أنت يا...

- كنت أي نعم... ولم أعد الآن أيّ شيء... ومن جريي وراء الأرداف صرت لا أساوي حتّى ثمن مجداف، نم... نم يا رفيقي، فالنّوم سيصبح النّعمة الوحيدة الّتي ستنسينا بؤسنا.

*****

قضى أنطونيو أيّاما مع رفاقه الجدد في ظلام مطبق، لا يعرفون إلى أين يُقادون، ومتى سترسو بهم هذه السّفينة اللّعينة. وحاول مرّات أن يسترق السّمع أو أن يستدرج السجّان ساعة إحضار الطّعام لقول أي

شيء أو على الأقلّ لإخباره بالحال فوق السّطح، لكنّه لم يظفر بنتيجة فقد كان الرّجل في سكر دائم، لا يعرف من الكلام إلاّ الهمهمة، ولا من الإجابة إلا ضحكة مجلجلة تكشف عن فم أسود خال من الأسنان كأنّه قاع فرن أدركه النّسيان.

وذات يوم بينما كان الصّمت مخيّما على السّفينة الّتي كانت تمخر عباب البحر تحت شمس ساطعة حدثت جلبة على ظهرها وانقلبت تلك الجلبة إلى حركة دائبة، فكثر وقع الأقدام الرّائحة والغادية، ولم يدرك أحد من هؤلاء القابعين في قاع السّفينة ما يحدث فوق سطحها فصاح أحدهم بالحارس السّكّير الّذي ظهر أنّه استفاق أخيرا وبقدرة قادر:

- ماذا يحدث؟

- نحن على مشارف اليابسة.

- في أيّ بلد؟

- بلاد البربر...

- بربر؟ سانتا مادونا... وأين بالتّحديد؟

ضحك الرّجل ضحكة كأنّها حشرجة ثمّ قال مازحا:

- في الحجيم. ها... ها... هق...

احتار سجناء السّفينة عند سماعهم لهذه الكلمة ولم يفهموها وتساءلوا فيما بينهم عن معناها، أهي شاطئ أو جزيرة أو ميناء أو صخرة في عرض البحر؟ وكان من بينهم كهل بقي صامتا طوال الرّحلة الّتي استمرّت أيّاما، لم ينطق بكلمة ولم يحاول حتّى الابتسام رغم محاولات رفقائه الّذين لاحظوا عليه ذلك وفعلوا المستحيل لاستدراجه إلى الكلام لكنّه بقي كالسّارية الخشبيّة المتّكئ عليها طوال الرّحلة.

- أنت أيّها الصّامت دوما، هل تستطيع أن تخبرنا بما يبدّد حيرتنا؟

نظر إليهم نظرة لم يعرفوا مدلولها، هل هي نظرة إشفاق أو نظرة سخرية أو نظرة بلهاء، وأخيرا نطق بكلّ هدوء كأنّه يُسقط كلماته على الأرض أو كأنّه متعب دوما:

- يعني إفريقيّة... ولا أدري هل هي الجزائر أو تونس... بلد الغربة والكربة بالنّسبة إلى أمثالنا...

قال أحدهم بهلع:

- ماذا؟ سيأخذوننا إلى البربر... يعني إلى الكفّار المتوحّشين؟

- لا لا... هناك أناس مثلي ومثلكم... ليسوا متوحّشين بالقدر الّذي تتصوّرون، بل هم أحسن من بعضنا بكثير، لكنّهم يتكلّمون لغة غير لغتنا، ويدينون بديانة غير ديانتنا.

- يبدو يا هذا أنّك على دراية بأمور نجهلها، وأخفيتها عنّا بصمتك طوال الرّحلة، فهل يمكن لنا سماع قصّتك قبل أن نفترق إلى مصير مجهول؟

انبرى آخر معلّقا بالقول:

- أجزم أنّه اختطف من قبل وإلاّ كيف يعلم بهذه الأمور؟

تنهّد الرّجل وقال كأنّه يضع على الأرض ثقلا:

- وحقّ الرّبّ صدقت يا هذا، فقد اختطفت سابقا من ميناء جنوة ووقع بيعي في الجزائر ولم أتمكّن من استرجاع حرّيّتي إلاّ بعدما صرف أهلي فدية ثقيلة للتّاجر الّذي اشتراني، وها أنّي اليوم أقع في نفس الخندق وسوف أباع مرّة أخرى، ولن ألقى من يفتديني هذه المرّة لأسباب لا تهمّكم.

أشاح عنهم بوجهه وبقي صامتا، فصمتوا لصمته أو احتراما لحزنه البادي من نبرات صوته، ولم يعد يسمع بينهم إلاّ صوت تلاطم الأمواج على جنبات السّفينة، فانصرف كلّ واحد منهم إلى همومه وتخيّلاته محاولا تصوّر ذلك البلد الّذي سينزلون به بعد قليل.

أمّا النّسوة القابعات باستسلام في الجناح المجاور فقد انصرفن إلى الحديث والثّرثرة وقد سمعن الجلبة على ظهر السّفينة فلم يعرنها أيّ اهتمام وحسبنها حركة عاديّة للقراصنة الّذين عوّدوهنّ على ذلك.

*****

كانت الشّمس تسطع بقوّة حين توقّفت السّفينة غير بعيد عن مضيق حلق الوادي، ثمّ اتّجهت نحو الغرب وراحت تسري بحذر ثمّ توقّفت تماما، وحينها سارع النّوتيّة إلى إنزال الأشرعة وطيّها ثمّ اتّجهوا إلى باطن السّفينة لإخراج عدد هامّ من الصّناديق واللّفافات وصفّفوها في مقدّمة السّفينة ولمّا أتمّوا ذلك انتظروا أوامر الرّايس للسّماح لهم بالاقتراب من الميناء، فقد كان إرساؤهم على بعد ميلين منه.

صاح الرّايس في رجاله:

- أخرجوا الرّجال أوّلا وأرغموهم على تنظيف سطح السّفينة، دعونا نستفيد أوّلا من سواعدهم قبل التّفريط فيهم بالبيع، ثمّ انظروا موقع النّساء ودعوهنّ يتجمّلن قبل الطّلوع، لا أريد أن أراهنّ على تلك الحال من البؤس... لا يمكن أن نبيع سلعة لا تروق للعين. هيا...

لم يستطع الأسرى المشي فقد نسوه منذ أيّام، ولم يتمكّنوا من فتح أعينهم عندما صعدوا على ظهر السّفينة، فقد كان النّور ساطعا فبقوا لفترة يحجبون أعينهم بظهور بعضهم، ثمّ شيئا فشيئا تعوّدوا على النّظر فأجالوا أبصارهم فيما حولهم ثمّ استنشقوا هواء البحر النّقيّ وكأنّهم يبعثون إلى الحياة من جديد.

نظر أنطونيو حوله باحثا عن خيال امرأة فلم ير إلاّ القراصنة، فداهمه حزنه القديم وكاد يفقد الأمل تماما في رؤية ماريا، وأيقن أنّها خُطفت من طرف قراصنة آخرين أخذوها إلى سفينة أخرى، وأنّ عليه الآن أن يستسلم نهائيّا إلى مصيره الجديد.

انهمك ساعة مع رفقائه في غسل سطح السّفينة بعدما نزعت عنهم القيود، فلم ينتبه إلى خروج النّسوة من قاع السّفينة إلاّ عندما سمع همهمة قويّة تصدر عن القراصنة فالتفت بتثاقل إلى الوراء وكاد يقع على وجهه من شدّة الفرح وصاح:

- ماريا... مـا...

لم يكمل نداءه، فقد ركله قرصان على مؤخّرته طرحته على وجهه. ولمّا حاول القيام جاءته ركلة ثانية أصابته في وجهه فأدمته وغشت بصره وتركته يستغيث.

التفتت ماريا وهي تسمع النّداء باسمها فهالتها رؤية أنطونيو كازيلا وهو على تلك الحال فحاولت بدافع تلقائيّ أن تندفع لنجدته، فهو آخر من عرفها، وهو الوحيد اليوم الّذي يربطها بالأمس القريب، لكنّها لم تتمكّن من ذلك إذ سارعت رفيقة لها وشدّت يدها بقوّة ومنعتها من الاندفاع نحو أنطونيو.

- تريدين البقاء هنا تحت رحمة القرصان ليفعل بك ما فعل بالأخريات، أم تريدين الانتقال بسلام من هذا المكان العفن إلى اليابسة؟ قلت لك من قبل اعتبري نفسك مفقودة ولا تعلّقي آمالا في العودة إلى أهلك أو العثور على أحدهم ولو صدفة...

عاد أنطونيو إلى الصّياح وهو يتفادى ركلات أخرى ويحاول القيام والزّيغ عن القرصان الّذي صار يلاحقه بضربات من السّوط الّذي كان يصفّر في الهواء ويكاد يلسعه على ظهره، ومع ذلك واصل التّحدّي والصّياح رغم الدّماء الّتي كانت تسيل من وجهه:

- يا كلاب... لن أترككم تأخذوا منّي ماريا... ماريا... أنا أنطونيو يا ماريا، لماذا لا تجيبين... أنا أنطونيو كازيلا... أنط ...

لم يتمّ نداءه فقد أدركه الرّايس وعاجله بضربة من سوطه مزّقت قميصه وأدمت جلده، ثمّ أردفها بركلة من حذائه الضّخم على وجهه أسقطته مغشيا عليه.

- أعيدوا الكلب إلى القاع وقيّدوه بسلاسل غليظة. ولا تفتحوا عليه فتحة نور، وامنعوا عنه الأكل والشّرب إلى أن يهدأ. وإذا عاد إلى رعونته ألقوا به في البحر بعد قطع لسانه.

سرت في الأسرى رجالا ونساء رعدة الخوف ممّا شاهدوه، ورجفة ممّا سمعوا، فأشفقوا على الشّابّ المسكين الّذي اندفع نحو عواطفه الخالصة دون أن يعي وضعه البائس، ولم تحتمل ماريا ذلك المنظر المزعج الّذي صار عليه أنطونيو فدسّت وجهها في راحة كفّها وأخذت تنتحب بصمت وقد أيقنت أنّ الشّابّ المسكين جادّ في شعوره نحوها، وأنّ حبّه لها هو السّبب الوحيد الّذي رماه إلى هذا المصير المشؤوم، وندمت على سوء ظنّها به، وأيقنت أنّ آخر خيط يربطها بماضيها قد انقطع تماما وقُبر في قاع هذه السّفينة الملعونة.

- أنزلوا السّلع في الزّوارق وأتوني بأخبار السّوق في باب البحر، ثمّ انتشروا في مدينة تونس لعلّكم تلتقطون أخبارا تفيدنا، ولا تعلموا أحدا عن وجود رقيق على ظهر السّفينة، حذار! لا أريد أن يعلم أحد القناصل بوجودهم هنا، وخصوصا قنصل فينينسيا "إيتيان كونتاريني" فهو سيمنعنا دون شكّ من بيع الرّقيق، لأنّ لي معه حسابا قديما، ولا أريده أن يتدخّل في هذا الموضوع... هيّا، انقلوا النّساء إلى حيث يكملن زينتهنّ، وأعيدوا الرّجال إلى القيد، ثمّ انزلوا أنتم ولْيَبْقَ بعضكم في الحراسة.

دخل الرّايس مقصورته بعدما ألقى أوامره إلى رجاله وبقي في انتظار عودتهم بالأخبار، فهو لا يغامر عادة بالنّزول إلى المدينة الّتي لا يحبّ أزقّتها الضّيّقة والملتوية، ولا أهلها بسبب نظرتهم الدّونيّة للعلوج من أمثاله.

تحلّق أربعة أنفار خارج باب الجزيرة حول موقد صغير جعل في حفرة بها نار خافتة عليها برّاد فخّاريّ تنبعث منه رائحة شاي في طور الغليان وطفقوا يتحدّثون عن أحوال السّوق ثمّ عن أحوال البلاد حتّى ألهاهم الحديث عن قدوم صبيّ يجري لاهثا ثمّ وقف أمامهم ومدّ يده لأحدهم كأنّه يطلب منه البشارة فأسرع الرّجل ووضع في اليد الممدودة قطعة نقديّة فانحنى الصّبيّ على أذنه وهمس له بكلام لم يسمعه بقيّة الرّجال:

- سيّدي، هناك... غير بعيد... توقّفت سفينة علوج[1]... أنزلت سلعا في الزّوارق وأبقت على ظهرها علجيّات في ألبسة غريبة. هل أذهب لمزيد الاستطلاع.. أم؟ ...

- لا... لا إذهب وأتني بحصاني، سوف أعتني بالموضوع، اكتم الأمر وسوف أعطيك هديّة إذا ما التزمت الصّمت.

استأذن الرّجل من رفاقه في الانصراف ثمّ انطلق مسرعا إلى حومة باب المنارة ليخبر سيده "عبد الله الفرطاس" بأمر السّفينة. فقد كان كلّفه باستيقاء أخبار السّفن الّتي ترسو في عرض البحر ولا تتّجه إلى ميناء باب البحر.

خرج سي عبد الله من داره مسرعا بعدما سرّج له خادمه جواده وانطلق رأسا إلى "رادس" وهو يمنّي النّفس بإبرام صفقة مربحة مع القرصان "رودريقو" الّذي اعتاد الإرساء قرب رادس وفي موضع لا يجلب له الشّبهات، عوتلك إشارة خاصّة بهما ومتّفق عليها وهي تدلّ في الظّاهر على أنّ الأمر يتعلّق بسلع مجلوبة من بلاد الرّوم. أمّا في

[1] العلوج نعت يطلق على الرّقيق الأبيض الّذي يقع سبيه من طرف القراصنة على السّواحل الأوروبية، أو على هؤلاء المغامرين القادمين من أوروبا أو الهاربين منها بسبب جنحة أو جريمة، والّذين اعتنقوا الدّيانة الإسلاميّة وارتدّوا عن المسيحيّة.

الباطن فهي إشارة إلى أنّ السّلعة آدميّة لن تعرض في سوق البركة بل يختصّ بها نخّاس من فئة خاصّة يبذل المال بسخاء مقابل التّفرّد بالصّفقة.

لم يسلك الطّريق المعروفة نحو رادس بل فضّل الذّهاب من مسلك جانبيّ مهجور ليقينه بأنّ "رودريقو" لن يقترب من المدينة وأنّه يفضّل البقاء كعادته على ظهر السّفينة تفاديا للظّهور.

حين وصل إلى ضفّة صخريّة شاهد السّفينة راسية فترجّل من حصانه وتخطّى عديد الصّخور إلى أن اقترب من موضع قريب بعض الشّيء من السّفينة فصاح بأعلى صوته بعدما لوّح بمنديل أبيض:

- هيه... رودريقو... رودريقو... أرسل إليّ زورقا... أسرع...

لما شاهد القرصان رودريقو صديقه النّخّاس وتاجر الرّقيق عبد الله الفرطاس سُرّ لقدومه من تلك النّاحية. وأعجب بفطنة الرّجل الّذي سيوفّر عليه عناء الانتظار وطول إجراءات تسريح السّلع. فرغم طمعه في ربح فاحش من وراء عرض الحسان على تجّار غير عبد الله الفرطاس هذا، إلاّ أنّه استحسن استباق الرّجل لنظرائه. لأنّه رغم إلحاحه عادة في المساومة فإنّه يدفع غاليا وحالاً حين تعجبه السّلعة.

أمر رودريقو بإرسال زورق في الحال. كما أمر بإعداد الرّجال والنّساء ووضعهم صفّين متوازيين حتّى يتمكّن التّاجر من اختيار ما يحلو له.

صعد عبد الله الفرطاس على ظهر السّفينة وعانق رودريقو بحرارة تُشتمّ منها المشاعر النّفعيّة ثمّ طفق يرحّب به كأنّه يدخله عقر داره قبل أن يتوجّها نحو مقصورة القيادة لشرب قارورة نبيذ احتفالا باللّقاء وبما سيليه من صفقة.

- جئت في الوقت المناسب يا سيّد عبد الله، ذلك أنّي لن أرسو طويلا هنا لأنّي ذاهب إلى جنوة ومنها إلى مايوركا، وقد أرسلت بعض رجالي بالسّلع إلى ميناء باب البحر ومنه التّعجيل بالاتّصال بعملاء قدامى لشراء الرّقيق، فقد قرّرت الرّحيل في أقرب وقت، وبما أنّك السّابق الأوّل فلك التّفضيل.

- أعيب عليك دوما التّسرّع في مثل هذه الأحوال دون أن تتّصل بي أنا الأوّل، على كلّ حال لا تشغل بالك، سوف أشتري منك الحمولة، كم عندك؟

- عدد قليل، عشر نساء وثمانية رجال. كلّهم في صحّة جيّدة، فالنّساء روعة في الجمال والكمال، والذّكور شبّان أقوياء يصلحون لكلّ الأغراض، وكما تعرف فإنّي أختار سلعتي وأفضّل أن تكون قليلة وجيّدة.

- أعرف هذا. أعرف. هيّا لنرى إذن. وسنتّفق دون شكّ.

تقدّم عبد الله الفرطاس من كلّ شابّ وتفحّصه عن قرب وجسّه ولمسه وأداره، ثمّ لمّا انتهى من الرّجال تحوّل إلى النّساء، وبنظرات فاحصة وثاقبة نظر إلى كلّ واحدة كأنّه يعرّيها ثمّ يزنها ويضع نفسه مكان من سيشتريها، ولما اطمئنّ إلى جودة المعروضين والمعروضات ابتسم ابتسامة واسعة ثمّ أشار إلى رودريقو قائلا:

- هذه المرّة يا صديقي وقعت على صيد رائع فمن أين التقطتهم؟ إذ يبدو لي أنّهم من حفل عرس واحد؟

قهقه الإثنان قهقهة مجلجلة وهما يضربان كفّي بعضهما البعض بطريقة استعراضيّة:

- من البندقيّة يا سيّد عبد الله...

- ماذا؟ من البندقيّة أيّها المأفون؟ كيف فعلت ذلك؟ ألا تدري أنّك قد رميت بنفسك إلى عرين أسد؟ ثمّ إنّ لهذا البلد قنصله في تونس

وله اتفاقيات مع مولانا السلطان، وانه لن يسكت لو عرف أن قرصانا قد اختطف هذه المجموعة من رعايا الجمهوريّة. لا... لا. الأمر خطير عليّ وعليك، هل تعرف من يكون هذا القنصل؟

- أعرفه معرفة جيّدة إنّه السّنيور "إيتيان كونتاريني" من عائلة عريقة وثريّة في البندقيّة، وهو على كلّ حال أصله تاجر مثلك ومثلي. ولكلّ واحد منّا مصالحة، لذلك لم أقترب لا من حلق الوادي ولا من بوغاز تونس وفضّلت الإرساء هنا قرب رادس.

- لن يشتري منك يا صديقي هذه الغنيمة أيّ تاجر في البلد إذا ما علم أنّ سلعتك مخطوفة من البندقيّة، فالوحيد القادر على شرائها منك هو عبد الله الفرطاس.

ضحك الإثنان عاليا وبطلاقة ثمّ ربّت القرصان على كتف عبد الله الفرطاس وقال :

- لهذا السّبب فإنّ سلعتي ستكون غالية هذه المرّة يا سيّد عبد الله ولن تقدر على شرائها كلّها، والآن أخبرني كم ستشتري من واحد أو من واحدة وكم ستنقدني؟

أخرج النّخاس صرّة ثقيلة من حزامه وقذف بها من يده اليمنى إلى اليسرى، ثمّ أرجعها لليمنى ليدفع بها إلى القرصان قائلا:

- سأشتريهم كلّهم، خذ عدّ هذا المال ولن أزيدك عليه ولو قطعة واحدة.

بهت القرصان لحظة، فهذه صفقة لم يسبق له أن عقدها بمثل هذه السّهولة وبمثل هذه السّرعة، وبقي يزن الصرّة وهو ينظر إلى التّاجر ليتأكّد من مدى صدقه، ولما رأى التّصميم على وجهه ابتسم له ودسّ الصرّة في حزامه علامة على الموافقة دون أن يفتحها أو يعرف حتّى عدد القطع الّتي تحويها، فقد اعتاد أن يثق في هذا الرّجل وأن تكون معاملاتهما مع بعضهما على هذا المنوال.

- أخبرني يا رودريقو، ألم تُخفِ عنّي واحدة في قاع السّفينة؟

- لا بل أخفيت واحدا فقط، وهو معاقب لأنّه متعلّق بواحدة من الحسناوات، وهذا ما لا يلائمني. ففي صورة بيعه في تونس فإنّه سيسعى وراء حبيبته وربّما يذهب إلى القنصل كونتاريني والبقيّة تعرفها يا صديقي.

- طيّب، سوف أبعث كالعادة من يتكفّل بنقل النّساء ليلا إلى داري، وأبق الشّبّان عندك إلى الغد ريثما أرتّب نزولهم وإيواءهم أمّا أنت فستكون ضيفي هذه اللّيلة، أعرف أنّك تحبّ الأكلة التّونسيّة فهل أنت موافق؟

- موافق إذا كان العشاء في رادس ورافض إذا كان في مدينة تونس.

ما أن أمسى المساء وأرخى اللّيل سدوله حتّى غادر القراصنة السّفينة إلى باب البحر وبقي منهم أربعة لحراستها، أمّا رودريقو فقد رافق عبد الله الفرطاس إلى رادس وبقي أنطونيو في وحدته الموحشة يتوجّع من آلام الضّرب ومن وقع السّلاسل على معصميه ورجليه، لكنّ وجعه الأكبر والأثقل هو فقدانه لحرّيّته وضياع الفرصة الثّمينة للّحاق بماريا بسبب اندفاعه وغباوته، فقد أطفأ بنفسه وإلى الأبد أملاً كان يضيء كيانه، وها هو يجترّ المرارة في الظّلمة والنّتونة والصّمت المطبق دون أن يتوصّل إلى حيلة لفكّ أسره والفوز بحرّيّته، فقد تعطّل عقله عن الوصول إلى الحيلة.

مضى وقت من اللّيل لم يدر أنطونيو هل هو طويل أو قصير، فقد هبطت على نفسه وحشة مرعبة، وزاد في تعميقها تلك القزقزة الرّتيبة الّتي تحدثها السّفينة وهي تتمايل في سكون اللّيل البحريّ، كأنّها تعداد ركيك لساعة تزحف عقاربها غير المنظورة نحو موعد الفناء.

انتفض فجأة لمّا سمع وقع أقدام ثقيلة ومترنّحة تقترب من مكانه ثمّ صوت مفتاح يولج بصعوبة في قفل باب سجنه.

تحفّز استعدادا للطّوارئ، فقد استغرب صمت السّفينة وغياب قراصنتها، ثمّ فجأة سمع وقع أقدام بدت له مريبة. فتعاظم خوفه إذ لا يدري من سيكون زائره وماذا يريد منه؟ وتساءل بالخصوص عن سبب فتح الباب برفق على غير عادة القراصنة الّذين اعتادوا دائما فتح الأبواب وغلقها بخشونة، ثمّ لماذا هذه الزّيارة اللّيليّة وقد سمع القبطان يأمر رجاله بحرمان السّجين من الطّعام والشّراب ومن نور الشّمس؟

فجأة تبدّد ظلام الزّنزانة باشتعال عود ثقاب أنار وجها بشعا كسته لحية كثيفة ثمّ انطفأ عود الثّقاب فجأة فصدرت عن الرّجل همهمة قبيحة ثمّ راح يبحث عن عود آخر وعندما وجده أشعله وأشعل منه قنديلا جلبه معه.

اقترب الرّجل من أنطونيو وهو يهمهم ففاحت منه رائحة كريهة زادتها رائحة الخمر كرها ثمّ جلس القرفصاء أمام أنطونيو وأخرج من طيّات قميصه الواسع والمتّسخ زجاجة خمر كبيرة وركزها على الخشب في حركة مسرحيّة.

- ساءني حالك يا صبيّ فجئتك لأسلّيك ولتقاسمني زجاجتي... ووحدتي هه... ها... هق...

لم يجبه أنطونيو فقد استراب منه من أوّل وهلة، وشعر أنّ هذه الزّيارة بعيدة كلّ البعد عن البراءة، وليست مجرّد إشفاق، وحينها لمعت في ذهنه فكرة وأيقن أنّ أحسن طريقة للنّجاة من هذا القرصان المخمور هي مسايرته فيما سيطلبه منه أو ما سيفرضه عليه.

- شكرا... لكنّي أخاف عليك يا صاحبي من غضب القبطان بسبب مخالفتك لأوامره، لكن أخبرني، فكيف تجاسرت ونزلت الى هذا السّجن ألم يرك أحد؟

- اششت... اش... لا ترفع صوتك كثيرا... لم يبق على ظهر السّفينة سوى أربعة رجال منهم أنا، فقد فضّلت البقاء لمواساتك ولم أرغب في النّزول إلى الميناء، اشرب... اشرب... ولا تخف، لن يكتشف أحد وجودي هنا... ها... هه... هه... هق.

- ولماذا فعلت هذا وتركت اللّهو والمتعة في الميناء مع رفاقك؟ إنّي أستغرب ذلك من رجل قضى شهرا أو أكثر على ظهر سفينة دون أن...؟

- ها... ها... أنت ذكيّ وتعجبني... وأظنّك فهمت قصدي يا حلو... اشرب... اشرب.

- كيف أشرب وأنا مقيّد اليدين؟

- ها؟...

- ها؟ كيف إذن ستتمّ لنا متعة الجلسة وأنا مقيّد هكذا؟ الحرّيّة مع الاستمتاع هي أبسط قواعد اللّعبة، فكّ قيدي ولن تندم أبدا... ثمّ إنّك قلت لي منذ حين إنّه لا يعلم بوجودك هنا أحد، وإنّ أصحابك مخمورين، وإنّي أرى أنّك رجل قويّ وشديد ومتماسك... وعلى غاية من اللّطف، أليس كذلك؟

- صحيح... صحيح يا ولد، فحتّى الرّايس رودريقو سيقضي ليلته في... في... لا أدري أين، لقد نسيت.

- إذن هات جرعة من زجاجتك وفكّ قيدي.

- سأفكّ قيد يدك فقط.

- كما تريد.

مضت ربع ساعة على زيارة القرصان وفرغت الزّجاجة تماما وساء ذلك كلّ من السّجين والقرصان، لكنّ أنطونيو كان على حال الغبطة بعدما أصبح طليق اليدين، فقال مواصلا التّمويه على رفيقه.

- ما هذا يا صاحبي، هل جئت لتواسيني بزجاجة واحدة؟... لا لا فأنا متعوّد على أكثر من هذا، وعندما أرغب في الانتشاء فإنّي أغرق نفسي في البحر الأحمر... ها ها ها... قم قم يا هذا وأحضر لنا واحدة أخرى أو اثنتين...

- تعجبني وحقّ الشّيطان... تعجبني يا جميل... سوف أفكّ قيدك تماما عندما نشرب الزّجاجة الثّالثة.

خرج القرصان المخمور وهو يترنّح وعاد بزجاجتين أخريين ورمى بجسمه الثّقيل الكريه قرب أنطونيو الّذي قاوم الغثيان الّذي داهمه من رائحة هذا الحيوان، فصبر على هذا البلاء ممنّيا نفسه بقرب الخلاص من هذا الكابوس...

- تعرف... يا... أوه دعنا من الأسماء الآن... تعرف أنّك... شهم ورجل بأتمّ معنى الكلمة... وقويّ ومقدام؟...

- ام... م... م... كيف ذلك؟ لأوّل مرّة في حياتي أسمع هذا الإطراء ها... ها... هق...

- لأنّك كنت تستطيع أن تعتدي عليّ بالقوة وتنال منّي لكنّك فضّلت طريقة نبيلة... وهذا يدلّ على شهامتك أليس كذلك؟

ضحك القرصان فاضطرّ أنطونيو إلى وضع يده على الفم الأبخر حتّى لا تثير ضحكته انتباه الآخرين، ثمّ ناوله الزّجاجة وراح يسقيه جرعات كبيرة ويلاطفه... حتّى لان جانبه ونامت فيه الرّيبة، ولمّا أيقن أنّ أنطونيو مطيع وغلام رائع فعلا... أسرع إلى القيود المتبقّية وفكّها وهو في قمّة الرغبة والوله فراح يهمهم...

- آه يا ولد...

كان أنطونيو منذ بداية السّهرة يسترق النّظر إلى الخنجر المرشوق في نطاق القرصان، وكان يتحيّن الفرص ويرقب حركات الرّجل لكي يفتكّ منه سلاحه، لكنّه لم يستطع... أمّا الآن فقد أصبح بدون قيد وصار القرصان في حالة متقدّمة من السّكر المطبق، فالأجدى له إذن أن يغتنم الفرصة ويخلّص نفسه نهائيّا.

مدّ يده نحو الخنجر لحظة رفع المخمور زجاجته نحو فمه، وفجأة أحس أنطونيو بيد قويّة تعصر يده وتحبسها حيث هي.

تجمّد الدّم في عروق أنطونيو وانخلع قلبه من الرّعب حين رأى المخمور يرشقه بنظرات كأنّها قذائف مدفع، فقد لمعت عيناه بعد انطفاء، كأنّه لم يشرب قطرة واحدة من الخمر، وكأنّه لم يكن يترنّح، وشعر أنطونيو بأنّ نهايته وشيكة على يد هذا الحيوان الّذي استفاق فجأة.

- كلب... سأشرب فعلا من دمك القذر، وقبل ذلك سأسحق رجولتك، هذا لو كانت لك رجولة، سوف أقطعها بأسناني لا بخنجري، سوف أتركك تتلوّى ألما وتنزف دما، أنت غدّار حقير ولن تستحقّ حتّى هذه السّلاسل... الّتي...

عاجله أنطونيو بضربة على رأسه بالسّلسلة الحديديّة الّتي كانت تقيّده، ثمّ أردفها بضربة أخرى على وجهه كانت أقوى من الأولى، وزاد في ضربه على رأسه وقد تملّكه رعب وخوف وجنون، فصار يضرب ويضرب حتّى همد جسم القرصان الّذي لم يجد لحظة واحدة للدّفاع عن نفسه من هجمة الشّابّ، فسالت من رأسه دماء غزيرة كست وجهه حتّى نزلت في فمه فقرقر ثمّ شخر شخرة ذبيح ثمّ همد.

سقط أنطونيو قربه خائر القوى لا يقوى حتّى على رفع يده إلى جبهته لمسح ما نزّ منها من عرق بارد.

مرّت لحظات رهيبة إلى أن استعاد أنطونيو قواه وساعتها هاله ما فعل، لقد قتل رجلا. يا للمصيبة لو جاء قرصان آخر واكتشف الفعلة، فمصيره الموت المحقّق. اندفع يصعد السلم نحو فتحة الزّنزانة حتّى أشرف على سطح السّفينة وأطلّ بحذر فلم ير أحدا، ولمّا همّ بالخروج جمّدته في مكانه سعلة أحدهم جعلت قلبه يقفز إلى حلقه بدقّات متسارعة حتّى خيّل إليه أنّها انفلتت من صدره لتفضح موقعه بضرباتها العنيفة كأنّها دقّات طبل كبير فعاد نازلا إلى الزّنزانة وهو لا يكاد يتمالك من شدّة الارتجاف، ولمّا وصل إلى القاع سمع وقع أقدام تمشي وتجيء على السّطح.

- اللّعنة من أين طلع هذا؟

ارتمى على القشّ العفن ليستعيد هدوءه وعيناه على جثّة القرصان المطروحة فلاح له الخنجر فاستله خطفا من حزام الرّجل ثمّ دار على أعقابه ليصعد مرّة أخرى بعدما عاد السّكون على ظهر السّفينة. لكنّه توقّف لحظة ثمّ عاد إلى الميت ليبحث في طيّات ثيابه عن شيء يسلب، لكنّه لم يعثر على شيء أوّل الأمر بسبب ارتباكه فخاب أمله. لكنّ أحد أصابعه علق بخيط من الجلد كان مشدودا إلى رقبة القرصان فجذبه بخفّة فإذا بطرفه صرّة فانتزعها من خيطها بعنف ودسّها في حزامه هي والخنجر وعاد يصعد السّلّم.

أطلّ على السّطح فرأى شبح قرصان وهو منكبّ على حافّة السّفينة فتسلّل بخفّة من النّاحية المعاكسة مستغلاّ انشغال الرّجل بسكره، ثمّ ركن إلى ناحية مظلمة تماما واستعدّ للقفز في الماء دون أن يفكّر لحظة في مخاطر الغرق أو في الموت، بل فكّر في النّجاة بجلده مهما كان الثّمن.

قفز إلى البحر كأنّه يقفز من ظلام اللّيل إلى العدم، ومضى يسبح بكلّ قواه وقد زاده الخوف اندفاعا وشحذ الأمل عزيمته، وأعانه هدوء البحر على التّماسك والتّمادي في السّباحة رغم انعدام الرّؤية... لكنّ الظّلام حجب عنه وجهته فلم يعرف إلى أين هو سابح، هل إلى أعماق البحر أو نحو شاطئه، وسبح عشوائيّا وكاد يستسلم إلى الغرق من فرط الإعياء لو لم تلامس قدمه صخرة ملساء فتسلّقها بكلّ ما أوتي من جهد ثمّ استلقى علها واستسلم.

عند أولى تباشير الفجر اكتشف أنطونيو أنّه كان يرقد على ضفاف هضبة صخريّة، وأنّه نجا من الغرق ومن ملاحقة القرصان له، فرسم علامة الصّليب وحمد الرّبّ ومريم العذراء، ثمّ أجال بصره فرأى أمامه مجموعة من السّفن الرّاسية وثلاث بنايات عالية، وهناك من ناحية اليسار وغير بعيد عنه مدينة يحيط بها سور كبير ذو أبراج متعدّدة وهضاب بعيدة، فلم يدرك أين انتهى به المطاف وما هو المكان الّذي وقع فيه. المهمّ بالنّسبة إليه أنّه نجا من القراصنة ومن وكرهم العائم، وأنّه أصبح حرّا طليقا لا يتحكّم فيه أحد ولا يقيّده بقيد كما كان حاله في السّفينة، لكنّه عوض أن يفرح عاد إلى همومه ورجع إلى واقعه الجديد، فهو اليوم غريب في بلد غريب، وما اسم هذا البلد؟

أين يا ترى موقع حبيبته ماريا، وفي أيّ مكان من هذه المدينة، وما هو مصيره الآن؟ ومن يدري فلربّما مازال يتعقّبه أحد القراصنة؟ ثمّ كيف سيدخل هذه المدينة وهو في حال رثّة ومعدم وليس له مال؟ المال؟ ... آه! لقد تذكّر أنّه يحمل صرّة القرصان الّذي قتله، ترى كم فيها؟ وهل... وهل؟

لم يجد من يسأل، فقد كان في مكان يشرف على فضاء واسع، ولا يظهر أمامه بشر، فقرّر أن يسير إلى حيث السّور بعد فتح الصّرّة،

وكانت فرحته كبيرة إذ وجد بها قطعا ذهبيّة عديدة من بلدان مختلفة.
المهمّ أنّها ذهبيّة وأنّ الذّهب يصرف في أيّ مكان من الدّنيا.
سار باتّجاه المدينة وقد صمّم على تحدّي المجهول.

*****

لم تكن ماريا ورفيقاتها يتوقّعن الانتقال من حال مزرية إلى حال أفضل، فقد أخذوهنّ إلى دار كبيرة تقع في جنان مترامي الأطراف برادس، فبدت لهنّ أكبر من سفينة القراصنة، فهي جميلة ونظيفة وخصوصا صحنها الواسع الأرجاء ذي الأعمدة العالية وأقواسه المتعدّدة الحاملة لطابق علويّ على غاية من الإتقان فجدرانه مكسوّة بالجليز ذي الألوان الزّاهية، وسقفه منقوش نقشا رقيقا يشبه الدّانتال.

سرت همهمة بين النّساء حالما دخلت عليهنّ امرأة جميلة ممتلئة الجسم ونظرت إليهن فرادى نظرة فاحصة وخبيرة، ثمّ نطقت موجّهة إليهنّ الكلام، فكانت دهشتهنّ عظيمة حين كلّمتهنّ بالإيطاليّة وبطلاقة فزادهنّ ذلك اطمئنانا وسعادة.

- مرحبا بكنّ... كلّكنّ جميلات وكلكنّ على ما يبدو عاقلات، لذلك أطلب منكنّ أن تنسين بلدكنّ وأن تضع كلّ واحدة منكنّ نصب عينيها مستقبلها الشّخصيّ، فكلّ واحدة ستذهب إلى مصير مجهول، لكن عليها أن تخطّط له وأن تعمل بما يساعدها على جعل هذا المصير مشرقا وسعيدا... أنتنّ الآن في بلد غريب عنكنّ في كلّ شيء، أقول في كلّ شيء... في اللّغة، وفي التّقاليد وفي الدّين وفي اللّباس، نحن في بلاد يقال لها إفريقيّة، ومدينتها تسمّى تونس، إنّها بربريّة وعربيّة، أهلها وسلطانها مسلمون، وهم أيضا خليط من الأجناس، منهم البربريّ والعربيّ والأندلسيّ واليهوديّ والمسيحيّ، بلد يطيب فيه العيش، فمن أرادت أن تتأقلم، وأظنّ أنّه من صالحها أن تقبل على ذلك، ومن أرادت عكس

هذا فمصيرها بيدها، لكن لا أظنّ أنّ من بينكنّ من لم تفهم قصدي.
سوف تبقين في هذه الدّار الكبيرة فترة قد تطول وقد تقصر. ولعلمكنّ
فإنّ صاحب الدّار السّيّد عبد الله الفرطاس تاجر رقيق، وبالتّالي فقد
اشتراكنّ وسيبيعكنّ لاحقا، لكنّه سيفعل ذلك بعد أيّام وهنا، في هذه
الدّار لا في سوق النّخاسة، فأنتنّ علجيّات نادرات الوجود في هذا البلد
والرّجال من كبار القوم يتهافتون على كسب علجيّة في حريمه. فربّما
يشتريكنّ رجال أثرياء، وربّما يشتريكنّ شخص واحد.

- شخص واحد؟ ...

ضحكت المرأة البدينة على هذا التّساؤل الّذي صدر بصورة عفويّة عن واحدة من البنات وبذلك أشعّت شيئا من المرح على نفوس هؤلاء الحائرات.

- أظنّ أنّكنّ لا تعرفن الحمّام؟ هنا في هذا البلد، النّظافة هي أساس الحياة، أقصد نظافة الجسم، لذا لا بد من التعوّد على هذا النّظام، سوف تدخلن بعد حين إلى الحمام حيث ستزول أوساخكنّ وترتخي أوصالكنّ ومفاصلكنّ وتهدأ أنفسكنّ وتشعرن بعد ذلك بالطّهر وبالسّعادة وبالهدوء وبالسّكينة.

همست واحدة لرفيقتها قائلة:

- أهذا حمّام أم جنّة؟

صفّقت المرأة فظهرت ثلاث وصيفات بدينات قدن العلجيّات نحو باب كبير يفضي إلى رواق يؤدّي مباشرة إلى قاعة الملابس حيث نزعن ما عليهنّ من الأثواب التّنكّريّة ثمّ دخلن قاعة فسيحة تعلوها قبّة ضخمة ذات كوّات متعدّدة تنزل منها أعمدة الضّوء أضفت على المكان إشراقا زاد في ألق الجدران الرّخاميّة وفي روعة الأعمدة المرمريّة السّوداء الحاملة لقاعدة القبّة. أمّا الوسط فقد احتلّه مغطس من مرمر يطفح بماء ساخن يتصاعد منه بخار خفيف يعبق بروائح منعشة

ردّت الفتاة الثّانية على تساؤل صاحبتها قائلة:

- هذه جنّة وليست حمّاما... أظنّ أنّنا سنعيش دهشة وراء أخرى، إنّه الشّرق يا حبيبتي.

شعرت ماريا وهي تغطس في الماء السّاخن أنّها تدخل لأوّل مرّة إلى عالم طالما حلمت به منذ صغرها حين كانت تستمع إلى الحكايات الّتي كان يحكيها والدها عن حريم الشّرق وعن عوالمه، وقارنت حتّى بين هذا الحمّام وبين فيلاّ عمّها فوجدت أنّ المقارنة لا تستقيم، فحوّلت بصرها إلى رفيقاتها وهنّ يغتسلن ويمرحن ويتراشقن بالماء وكأنّهنّ لم يعشن ذلك الكابوس المرعب، ولم تدر هل تشفق على نفسها وعليهنّ ممّا ينتظرهنّ من عبوديّة جديدة ومن مصير مجهول، أم تفرح لهذا المصير الجديد؟ ثمّ ما لبثت أن عدلت عن التّمادي في التّفكير في ذلك، بل راحت تتمعّن في قدود رفيقاتها وأجسادهنّ وتقارن بين الواحدة والأخرى فلم تر إلاّ الحسن والرّشاقة والنّضارة.

استسلمت إلى يدي الوصيفة الّتي مضت تفرك لها جسدها بقفّاز خشن أخرج من جلدها خيوطا ممّا علق به من الوسخ ثمّ طلت لها جسمها وشعرها بمحلول داكن تفوح منه رائحة منعشة لم تعرفها من قبل، رائحة يخيّل لمن يشتمّها أنّها قادمة من جنان يتضوّع منه عبير مُسْكِر، ثمّ دلقت عليها أسطلا من الماء الفاتر فشعرت بنفسها كفراشة ترفرف خفّة وسعادة.

حين وجدت نفسها بعد الحمام في ثياب نظيفة وفضفاضة شعرت بالرّاحة وبالارتخاء فأطلقت لخيالها العنان فتذكّرت أهلها والأيّام القليلة الّتي قضتها في البندقيّة، وآخر لحظات اللّهو الّتي عاشتها في حفلة الكرنفال ثمّ اختطافها وحبسها في قاع سفينة القراصنة، وأخيرا استقرّت في ذهنها صورة أنطونيو وهو يناديها ويتلقّى ضربات القرصان

ردّت الفتاة الثّانية على تساؤل صاحبتها قائلة:

- هذه جنّة وليست حمّاما... أظنّ أنّنا سنعيش دهشة وراء أخرى. إنّه الشّرق يا حبيبتي.

شعرت ماريا وهي تغطس في الماء السّاخن أنّها تدخل لأوّل مرّة إلى عالم طالما حلمت به منذ صغرها حين كانت تستمع إلى الحكايات الّتي كان يحكيها والدها عن حريم الشّرق وعن عوالمه. وقارنت حتّى بين هذا الحمّام وبين فيلاّ عمّها فوجدت أنّ المقارنة لا تستقيم. فحوّلت بصرها إلى رفيقاتها وهنّ يغتسلن ويمرحن ويتراشقن بالماء وكأنّهنّ لم يعشن ذلك الكابوس المرعب، ولم تدر هل تشفق على نفسها وعليهنّ ممّا ينتظرهنّ من عبوديّة جديدة ومن مصير مجهول، أم تفرح لهذا المصير الجديد؟ ثمّ ما لبثت أن عدلت عن التّمادي في التّفكير في ذلك. بل راحت تتمعّن في قدود رفيقاتها وأجسادهنّ وتقارن بين الواحدة والأخرى فلم تر إلاّ الحسن والرّشاقة والنّضارة.

استسلمت إلى يدي الوصيفة الّتي مضت تفرك لها جسدها بقفاز خشن أخرج من جلدها خيوطا ممّا علق به من الوسخ ثمّ طلت لها جسمها وشعرها بمحلول داكن تفوح منه رائحة منعشة لم تعرفها من قبل، رائحة يخيّل لمن يشتمّها أنّها قادمة من جنان يتضوّع منه عبير مُسْكِر، ثمّ دلقت عليها أسطلا من الماء الفاتر فشعرت بنفسها كفراشة ترفرف خفّة وسعادة.

حين وجدت نفسها بعد الحمام في ثياب نظيفة وفضفاضة شعرت بالرّاحة وبالارتخاء فأطلقت لخيالها العنان فتذكّرت أهلها والأيّام القليلة الّتي قضتها في البندقيّة، وآخر لحظات اللّهو الّتي عاشتها في حفلة الكرنفال ثمّ اختطافها وحبسها في قاع سفينة القراصنة. وأخيرا استقرّت في ذهنها صورة أنطونيو وهو يناديها ويتلقّى ضربات القرصان

- هنا؟ لا... لا خروج ولا تفسّح ولا تفسّخ. في هذه الدّيار وفي تونس عموما لا توجد حدائق عموميّة ولا ساحات مثل ساحات البندقيّة. وممنوع على المرأة الخروج أو الظّهور. وإذا كتب لها الخروج فيجب أن تكون محجّبة ومستورة من رأسها إلى أخمص قدمها ولا...

صاحت واحدة من الفتيات معترضة:

- يا إلاهي كيف سنعيش إذن؟ وأين سنتفسّح وكيف سنتزوّج؟

- الزّواج؟ هذه حكاية يجب أن تنسى. أنا لست هنا لإعدادكنّ للزّواج بل لأعلّمكنّ قواعد الحياة وأصولها هنا حسب تقاليد نساء هذه البلاد. أنتنّ جواري ومحظيّات ونساء متعة لا غير. وجمالكن هو السّبب. ولأنكنّ غريبات عن هذه الدّيار ومن بلاد الرّوم وديانتكنّ المسيحيّة. فالقوم هنا يسمّون أمثالكن علجيّات. حتّى أنّهم اشتقّوا التّسميّة وأطلقوها على المرايا البلّوريّة المجلوبة من إيطاليا. فالمرآة عندهم صِنْوة للمرأة الجميلة القادمة من وراء البحار والّتي تتزيّن دائما أمام مرآة.

- علجيّات؟ لا تعجبني هذه التّسمية. فهي صعبة النّطق أوّلا. وركيكة ثانيا...

- تعجبك أو لا تعجبك فأنت منذ نزلت هنا أصبحت علجيّة حتّى ولو تغيّر اسمك وأصبح مثلا خديجة أو حوريّة أو حتّى مريم. وأنت أيّتها الجميلة ما بك صامتة دائما لا تشاركين صاحباتك حكايتهنّ وضحكهنّ؟ ذكّريني باسمك؟

- ماريا...

- إذا بقيت يا ماريا على هذه الحال من الجمود ومن الانطواء فلن تجدي من يختارك حتّى لو كنت ابنة أمير أو ابنة أحد نبلاء بلدك فذاك لنفسك فقط. أمّا هنا فأنت مجرّد جسد جميل وشهيّ يا ماريا...

- أنا لست مجرّد جسد، أنا بشر لي عقل وقلب ولن أترك أحدا يقترب منّي مادمت رافضة ولو كان ذلك الشّخص هو ملك البلاد نفسه.

- لا يا صبيّة، هذا الكلام لا تقوله واحدة مثلك لسيّدها، عليك بالصّمت وبالطّاعة، واتركي قلبك لنفسك أو أغلقيه على الحبّ الّذي تبحثين عنه، لا أريد أن أسمع مستقبلا مثل هذا الهراء.

انبرت واحدة من البنات وقالت للنّاظرة:

- إنّها عاشقة يا سيّدتي، وحبيبها محبوس الآن بسببها في سفينة القرصان لذلك فهي دائمة الصّمت والوجوم.

التفتت النّاظرة إلى ماريا متوعّدة:

- يا ويلي ويا ويلك أيّتها الماكرة، أرجو ألاّ يهرب هذا الضّائع وأرجو أن تكون هذه الحكاية مجرّد مزاح.

زعقت ماريا في وجه صاحبتها زعقة أفزعتها وجعلتها تختفي وراء النّاظرة البدينة.

- من قال لك إنّي أحبّ أيّتها الواشية؟ هل أخبرتك بشيء؟ أنا لست مثلك من بنات المغامرات والعشق والطّيش والحكايات الّتي لم تفتئي تقصّينها على مسامعنا طوال حبسنا سواء في سفينة القراصنة أو حتّى هنا. وأحذّرك لآخر مرّة لا تخاطبيني أبدا.

- صمتا... ما هذه الخرافات؟ ارجعي إلى مكانك، وأنت يا ماريا هل صحيح حكاية هذا الشّابّ؟ وهل اختطف معكنّ؟

- قلت لك لم أحبّ أحدا بعد، وهذا الشّابّ مغامر جرى ورائي في حفل الكرنفال وكان مصيره مثل مصيري، وهذه الحكاية لا تسرّني ولا أريد أن أحكيها، فمصيرها النّسيان لتفاهتها وخلوّها من الحقيقة.

- جميل يا ماريا، لقد أكّدت لي الآن أنّك فتاة على قدر كبير من الذّكاء ومن رجاحة العقل، وأنّ ما أعجبني فيك هو قوّة شخصيّتك

الهادئة وأستطيع أن أتنبأ لك بمستقبل مهمّ في هذه البلاد لو واصلت على هذا المنوال.

صدر فجأة نداء من شخص قادم من الرّواق الرّئيسيّ:

- كاتارينا...

جمدت النّاظرة في مكانها وانقطعت عن الحديث عندما سمعت عبد الله الفرطاس يناديها فأسرعت الى ملاقاته.

- كاتارينا، أعدّي حسناواتنا، سوف أنقلهنّ إلى المدينة. يبدو أنّي وجدت صفقة العمر وسأربح من وراء هذه الوجوه الجميلة ما لم أربحه من قبل، سأعود قبل العصر لنذهب جميعنا إلى الحاضرة.

انتهى المطاف بأنطونيو إلى ساحة كبيرة تقع على ضفاف بحيرة حيث رست قوارب صغيرة فرأى أناسا يلبسون لباسا مختلفا عن بعضه، لباسا لم يسبق له أن رآه من قبل، وأزياء أخرى ليست غريبة عنه. فقد سبق له أن لاحظها حينما كان يقف متأمّلا على رصيف ميناء البندقيّة، لكنّ هذه المدينة ليست البندقيّة ولا مدينة روميّة... إنّه لم يدخلها بعد ولا يلوح منها له سوى تلك البناية الكبيرة ذات الأقواس الّتي تدخلها القوارب.

بدأت المقارنات تلحّ على ذهن الشّابّ الغريب، ولم يكن مرجعه في ذلك سوى مدينة البندقيّة بعظمتها في كلّ شيء، في قنالاتها وفي كنائسها وفي قصورها وفي ساحاتها المترامية الأطراف وفي رونقها، ترى هل يستقيم له حال في هذا الخلاء؟

تقدّم بحذر من بناية بلا باب وقف أمامها مجموعة من الرّجال بدوا له من الرّوم وسأل أحدهم:

- عفوا... سنيور... هل تتكلّم لغة البندقيّة؟

- قليلا... لكنّي أدلّك على تاجر فينيسيّ نزل هذا الصّباح في فندق الفينيسيّين... سوف يلحق بنا بعد قليل. انتظره إذا أردت.

لم يجد أنطيونيو ما يفعله وهو ينتظر التّاجر سوى النّظر إلى هؤلاء النّاس الّذين بدؤوا يتكاثرون مع مرور الوقت ويشغلون السّاحة بالحركة وبالدّوابّ، من جِمال تحمل السّلع الّتي أفرغت من الزّوارق، إلى أحمرة وبغال يركبها أصحابها وهم يتحدّثون بلغة لم يفهم منها ولو كلمة، ومع ذلك شعر بالأنس في هذا المكان الّذي وجد فيه على الأقلّ رجالا من بلده لكنّه كان خائفا من رجال القرصان رودريقو، وتساءل فجأة:

- يا إلاهي... ربّما يختفي واحد منهم وسط هذا الجمع من التّجّار والبحّارة؟

حاول أن يدخل من أحد الأبواب العالية فاستوقفه الرّجل الّذي كان يتحادث مع رفاقه:

- إلى أين يا سنيور؟ هذه دار الصّناعة هل عندك زورق هنا؟

- زورق؟ لا... لا... إنّي أنتظر فقط التّاجر الفينيسيّ...

- ها هو قادم... ذلك الرّجل الطّويل.. اذهب لملاقاته.

أسرع أنطونيو إلى التّاجر:

- سنيور... سنيور لو سمحت... أريد التّحدّث إليك هل أنت حقّا من فينيسيا؟

نظر إليه الرّجل باستغراب ثمّ قال له:

- نعم... لكن ما بك يا ولدي؟ وما هذا اللّباس؟ كأنّك جئت رأسا من الكرنفال؟

- فعلا يا سنيور... جئت من الكرنفال... لكن هل يوجد مكان آمن نجلس فيه ونأكل نصيبا، إنّي جائع.

- تعال معي إلى الفندق.

اتّجها نحو بناية كبيرة مربّعة الشّكل ظهرت منها صومعة كنيسة صغيرة، ودخلا من بابها الكبير إلى فناء واسع كدّست في أرجائه صناديق وحمولات مختلفة الأشكال، وربطت في حلقات جدرانه دوابّ أكثرها بغال، ثمّ توجّها إلى مدخل قرب بناية تبدو حديثة البناء.

- هذا مقرّ إقامة قنصل البندقيّة، سوف ندخل الآن حيث أقيم، فماذا تريد أن تأكل؟

- كلّ ما يؤكل... إنّي جائع منذ أيّام وأقبل كلّ ما تقدّمه لي... معي المال وأستطيع الدّفع...

التهم أنطوينو ما قدّم له التّاجر الفينيسيّ من طعام، وفضّل هذا الأخير الصّمت وهو ينظر إلى هذا الجائع الغريب الّذي استأنس إليه من أوّل وهلة بدون أن يعرف عنه أيّ شيء.

- لا تؤاخذني يا سيّدي على سوء سلوكي هذا... فالّذي عشته طوال أيّام جعلني أفقد كلّ شيء... حتّى ثقتي في نفسي.

مضت ساعة وأنطونيو يقصّ على التّاجر ما حدث له، ولمّا أفرغ ما لديه من هموم سكت وبقي ينظر إلى الرّجل كأنّه يستعطفه لإنقاذه من ضياعه.

- سوف آخذك إلى القنصل السّنيور إيتيان كونتاريني، فهو صديقي وربّما يساعدك على الرّجوع إلى فينيسيا.

- لا... لا أريد أن أعود إلى هناك قبل أن أعثر على ماريا وآخذها معي...

- كن عاقلا يا ولدي، ودعك من هذه الخرافة فحبيبتك ضاعت منك إلى الأبد ولن تعثر عليها مهما فعلت، حتّى قنصلنا لا يستطيع أن يفعل شيئا، فهو يجهل من باعها ومن اشتراها ونحن في بلد يخفي نساءه كما يخفي كنوزه، فمن أين لك أن تعرف مكان ماريا؟

- سوف أفني العمر هنا في البحث عنها حتّى ألقاها، سواء ساعدني القنصل أم لم يساعدني، لكنّي أرغب في مساعدتك أنت أكثر من أيّ شخص آخر.

- كيف؟

- ما اسم هذا البلد يا سنيور؟

- تونس.

- آه تونس؟ جميل، أستطيع أن أنطق بسهولة هذه التّسمية.

- أريد أن أبقى هنا في تونس.

- ممكن وتقدر أن تعيش لو تأقلمت مع أهلها.

- هل هم متوحّشون يا سنيور؟

ضحك الرجّل ضحكة طليقة وقال:

- الوحوش في الغابة يا ولدي، أمّا هنا فنحن في مدينة من أفضل المدن في بلاد البربر وناسها من ألطف النّاس، سوف تلمس ذلك لو قدّر لك البقاء بين ظهرانيهم، آه! أعلمك بالمناسبة أنّ بهذا الفندق كنيسة، بل مُصَلّى يحمل إسم "سانتا ماريا"، ولكلّ ملّة من التّجّار المسيحيّين فندق في باب البحر به كنيسة خاصّة به.

همس أنطونيو لنفسه قائلا: ماريا... آه يا ماريا... ها أنّ اسمك حاضر في وجداني كما في بيت الرّبّ.

ثمّ التفت إلى السّنيور ألكسندر وقال بلهجة الواثق من قراره:

- إذن سأبقى هنا، فهل تحتاجني في تجارتك؟ سبق أن قلت لك إنّي كنت أعمل في هذا الميدان وأعرف على الأقلّ كيف أتعامل مع الحرفاء، قل لي من الآن كلمة واحدة... نعم... أو لا...

- ألا تنوي العودة حقّا إلى فينيسيا؟

- لا...

- ألا تريد أن تتحدّث إلى القنصل قبل أن تتّخذ قرارك النّهائيّ؟

- لا يا سيّدي ليس الآن... أنت قنصلي وأبي وصديقي وبلدي فساعدني أرجوك، أعرف أنّي مجنون وأنّ الحبّ أعماني، ونكبتي الكبيرة هي أنّي شاعر بهذا ومدرك له... لكنّي سجين.

- لا عليك... سوف أمكّنك من التّدرّب على العمل، فإذا فلحت أجعلك وكيلي هنا في تونس، وسأعرّفك بتاجر تونسي وهو صديقي وشريكي منذ سنوات، ويتكلم لغتنا، وله مكانته في السّوق.

- عفوا سنيور، أخذنا الحديث ولم تخبرني باسمك، وهل أنت حقّا أصيل فينيسيا؟

- "ألكسندر كونتي"... أنا حقّا من فينيسيا، لكنّ إقامتي خارجها جعلت منّي رجل كلّ الأماكن والمدن السّاحلية من شرقها إلى غربها، ورغم معرفتي ببلاد الدّنيا فإنّي أرتاح لهذه المدينة ولأهلها، رغم تواضعها مقارنة بمدننا في الضّفّة الأخرى.

- لماذا يا سنيور ألكسندر؟

- أوه، سؤال ليس له جواب بالكلام، بل بالعيش وبالمعايشة وبالممارسة، سوف يسجنك حبّ هذه البلاد دون أن تدرك السّبب.

*****

نام أنطونيو في غرفة التّاجر إلى وقت متأخّر من الظّهر، ولم يستفق إلاّ على صوت الباب وهو يفتح فاستوى خائفا وقد ظنّ أنّه ما زال محبوسا في قاع سفينة القراصنة.

- عفوا يا ولدي إن أزعجتك، أرى أنّ النّوم قد غلبك، لا بأس ستنام ملء جفنيك، هيا استعدّ سوف أقدّمك لصديقي الّذي حدّثتك عنه.

- بهذه السّرعة يا سيّدي؟ لم أستعدّ حتّى لتغيير ملابسي، بل أسمالي هذه.

- خُذ... هذه كسوة جديدة البسها وسأنتظرك خارج الفندق، فلا بدّ لك من تغيير حالك في الحال وإلاّ تفطّن إلى وجودك القراصنة واختطفوك من جديد.

- شكرا... شكرا لك يا سيدي ألكسندر.

خرج أنطونيو من الفندق بعدما غيّر ثيابه وتعطّر من قنّينة صغيرة وجدها على منضدة قرب سرير التّاجر، وشعر بعدما ترك أسماله أنّه عاد ذلك الشّابّ الّذي كان قبل الاختطاف، لكنّ شعورا غريبا سرى في أعماقه، فهو إحساس بين الاطمئنان وبين التّوجّس والقلق من الآتي...

كانت العشيّة ربيعيّة بشمسها الخفيفة وبنسيمها المعتدل، وكان أنطونيو يودّ التّجوال قليلا لكنّه اضطرّ للتّوجّه رأسا إلى حيث يقف التّاجر ألكسندر برفقة رجل متوسّط القامة قويّ البنية عريض الكتفين أسمر البشرة على رأسه عمامة بيضاء يلبس جبّة طويلة بيضاء من قماش الملف وقد شقّت من الأمام وقفلت بمجموعة من الأزرار على طول الفتحة وانتعل بمداسين.

تقدّم يا أنطونيو من الرّجلين وانْحَنِ تحيّة لهما فقال السّنيور ألكسندر:

- هذا صديقي سي إبراهيم بن مخلوف الّذي حدّثتك عنه.

أسرع التّاجر التّونسيّ إلى أنطونيو وصافحه بحرارة شديدة كأنّه يعرفه من قبل وابتسم له ابتسامة واسعة من تحت شاربه الأسود الغليظ:

- أهلا وسهلا بصديق صديقنا... مرحبا... مرحبا... أرجو أن تكون كالسّنيور ألكسندر.

أعجب أنطونيو بلهجة الرّجل وبإتقانه للّغة الرّوميّة فهمهم في سرّه قائلا:

- ياه... وحقّ الرّبّ كأنّه عاش في ميناء البندقيّة.

سارع الشّابّ إلى ردّ التّحيّة بفيض من صدق المشاعر قائلا:

- ممنون جدّا يا سنيور بكرم مشاعرك، وأتمنّى أن لا أخيّب ظنّك، أنا سعيد جدّا بملاقاتك وسعيد بوجود من يتكلّم لغتي، وهذا أمر يهزّني سعادة ولا يشعرني بالغربة.

- ما غريب إلاّ الشّيطان يا صديقي... المهمّ حالك أنت الآن. فقد أخبرني صديقنا ألكسندر أنّك نزلت اليوم إلى ميناء تونس وأنّك لا تعرف شيئا عن بلدي، وأنّك ستستقرّ هنا وهذا يسعدني جدّا. هيّا نشرب كأس شاي تونسيّ في ذلك المكان القريب من فندق الفلورنسيّين.

جلس الثّلاثة أمام محلّ صغير يشرف على السّاحة الكبيرة فمضى التّاجران يتبادلان الحديث في مواضيع تجاريّة بحتة. وتركا أنطونيو يتذوّق الشّاي السّاخن المعطّر بأوراق النّعناع وينظر إلى المراكب العديدة الّتي كانت تغدو وتروح محمّلة بالسّلع وبالبحّارة وبالصّيّادين.

أراد سي إبراهيم بن مخلوف أن يشعر هذا الشّابّ الغريب بأنّه آنس له واستلطفه، فأراد أن يقحمه شيئا فشيئا في إطار الحياة بباب البحر ويعرّفه بجانب ممّا يدور به، هذا الوجه الصّاخب لمدينة تونس المطلّ رأسا على البحر، والّذي يستقبل ويحتضن أرهاطا من النّاس المحلّيّين ومن الوافدين عليه من مختلف البلدان البرّانيّة. فقال له:

- سنيور أنطونيو نحن الآن خارج مدينة تونس الّتي ترى سورها أمامك، سوف أرافقك عندما تقرّر زيارتها، فذاك أحد أبوابها المسمّى باب البحر، وأمامه مباشرة تلك البناية الضّخمة الّتي تضمّ خمسة أروقة مغطّاة وقد أحيطت بسور وفي نهاية كلّ رواق باب مقوّس كبير، إنّها دار الصّناعة حيث توجد مراكب السّلطان وسفنه، وحيث يتمّ إصلاح القوارب المعطّبة، وهناك على جانب دار الصّناعة توجد قنصليّات وفنادق كلّ من دولة جنوة وفينيسيا، ونسمّي بلدكم عندنا البندقيّة، ثمّ فنادق كلّ من بيزا وفلورنسا وكتلانيا وغيرها من فنادق التّجّار المسيحيّين، وأهمّها جميعا وأحسنها فندقي البندقيّة وجنوة، لأنّ لكلّ واحد منهما مُصَلّى تقام فيه الصّلوات.

- عظيم يا سيدي إبراهيم، وتلك البناية الّتي رأيتها لا تنفكّ تستقبل التجّار القادمين من البحر، هل هي فندق أيضا؟

- تلك هي الدّيوانة أو ديوان البحر كما نسمّيه عندنا.

قاطعهما السّنيور ألكسندر بنبرة مازحة:

- دعنا يا سي إبراهيم من هذه التّفسيرات ولنذهب إلى الحفل الّذي يقام عادة كلّ ظهر يوم في البطحاء قرب باب البحر وستجد الوقت الكافي لتتحدّث عن بلدك مع السّنيور أنطونيو، إذ ألاحظ الآن بكلّ سرور التّجاوب الحاصل بينكما.

قام الثّلاثة متّجهين نحو المكان الّذي تجمّع فيه عدد كبير من النّاس ومنه تعالت أصوات اختلطت بدقّ الطّبول والنّفخ في المزامير. وكان سي إبراهيم يصرّ على التّعريف بالمكان لأنطونيو فقال له:

- البطحاء الّتي نتوجّه نحوها الآن هي من أهمّ السّاحات خارج أسوار المدينة، وهي تستقبل في الصّباح تجّار المدينة وجميع التّجّار القادمين من أوروبا والبحّارة والقراصنة والصّيّادين وكلّ من له غاية في التّجارة والمبادلات. أمّا بعد الظّهر فهي تخلو من هؤلاء ليحلّ محلّهم أهل المدينة وذلك قبل الغروب بساعتين للتّفرّج على العروض المسلّية الّتي تقام كلّ يوم وفي ذات الوقت، فمنهم من يأتي راكبا على البغال أو الأحمرة من ربض باب سويقة أو من ربض باب المنارة، ومنهم من يأتي على الأقدام فيختلط المنتعل بحافي القدمين، والمعمّم بمكشوف الرّأس، واللاّبس للجبّة بلابس للشّملة، وخليط آخر من الفضوليّين والمتفرّجين الّذين يجدون في السّاحة ما ينسيهم همومهم وأتعابهم اليوميّة.

تدخّل السّنيور ألكسندر لإشعاره هو الآخر بأنّه متعوّد على حضور هذه الحركيّة في حيّ يعجّ بالفرنجة وبأهل المدينة فقال:

- سوف ترى يا سنيور أنطونيو مناظر ستتعوّد على رؤيتها كلّ يوم في هذه السّاحة وسيساعدك ذلك على تمضية الوقت وعلى نسيان شواغل البال.

اقترب الثّلاثة من حلقة وقف في وسطها رجل طويل القامة بيده عصا غليظة يلبس جلبابا طويلا وعلى رأسه قلنسوة وهو يتحدّث بصوت جهوريّ ويشير بيديه وبعصاه إلى الحاضرين في حركة مسرحيّة وقد صمت الجميع وكلّهم انتباه وانبهار فقال سي ابراهيم مفسّرا:

- هذا الرّجل يقصّ على الحاضرين قصصا وحكايات عن بطولات العرب وعن غراميّات الشّعراء والمغامرين أيّام زمان، نسمّيه عندنا "الفداوي" وبالرّغم من أنّه يعيد نفس الحكاية كلّ يوم فإنّه يلقى من مستمعيه إقبالا متجدّدا. تعال ننتقل إلى حلقة أخرى لترى كيف يتغنّى المغنّي بأبيات من الشّعر يردّدها معه مرافقوه وهم يصفّقون وقد وضعوا نعالهم أمامهم لكي يرمي فيها الحاضرون قطعا نقديّة.

اضطرّ أنطونيو لمجاراة سي إبراهيم، فهو غير مهتمّ إطلاقا بهذه العروض الغريبة الّتي لم توافق مزاجه، رغم أنّها شغلته لحين عن التّفكير في ماريا، ثمّ إنّه لم يفهم شيئا من تلك الحكايات ومن ذلك الغناء فانشغل سمعه بما يدور في حلقة أخرى حيث تعالى الصّياح ودقّ الطّبول فأشار على مرافقيه بالتّوجّه إليها، ولمّا وصلوا رأوا مجموعة من الطبّالين والزّكّارين يدقّون طبولهم وينفخون في مزاميرهم وقد أحاط بهم جمع من الرّاقصين من السّود يرقصون بطريقة إيقاعيّة جميلة ويتحرّكون بسلاسة على الإيقاعات المتسارعة فلم يتمالك أنطونيو من الإعجاب بتلك الرّقصات فترك قدمه تنقر على الأرض محاكية إيقاع الطّبول الّتي كانت تطغى على كلّ الجلبة وعلى صياح الأطفال وزغردة النّساء، وبعد مضيّ بعض الوقت دخل إلى

حلقة الرّقص مجموعة من الرّجال لابسين قمصانا وسراويل فضفاضة وقد ربطوا حول أحزمتهم نطقا صفراء تتدلّى منها أغماد سيوفهم الّتي شرّعوها وأخذوا يتلاعبون بها في حركات بهلوانيّة ثمّ يضربون بها تروسهم بشكل إيقاعيّ وفي حركة منسجمة، ثمّ أخذوا يدورون حول بعضهم كأنّهم يتأهّبون للمنازلة، وبحركة فجئيّة دقّ كلّ رجل ترس صاحبه بسيفه وبعد ذلك واجهوا بعضهم إثنان إثنان وراحوا يرقصون ويقرعون التّروس على بعضها ببطء ثمّ بسرعة حتّى أشار أحدهم إلى الطّبّالين فأخذوا يتابعون قرع التّروس بالتّوازي مع القرع على طبولهم حتّى امتلك المتفرّجين حماس فأخذوا يصفّقون ويلوّحون للرّاقصين داعين إيّاهم إلى المزيد وعدم التّوقّف.

- جميل... جميل جدّا يا سي إبراهيم... هل لهذه الرّقصة اسم؟

- نعم اسمها "الزّقَارَة" وهي تختلف من جهة إلى أخرى، فهناك من يلعبها وهو على فرسه وهناك من يلعبها كما ترى، سوف آخذك يوما إلى بطحاء الحلفاوين أو إلى بطحاء باب المنارة حيث تكتشف رقصات أخرى لا تقلّ روعة وجمالا عن هذه.

افترق عنهما سي إبراهيم بعد أكثر من ساعة للذّهاب إلى صلاة المغرب على أن يلتقي الثّلاثة صباح الغد، فاتّجه أنطونيو والسّنيور ألكسندر إلى الفندق بعدما ودّعا سي ابراهيم بن مخلوف.

- هل استمتعت يا أنطونيو بما رأيت؟

- أشكرك أوّلا يا سنيور ألكسندر على ما أبديته نحوي من قبول ومن تفهّم وأنا مازلت لم أضع قدميّ في هذا البلد، فآويتني وأطعمتني وعرّفتني بصديقك الطيّب، لكنّي ربّما أرمي نفسي بالجحود تجاهك لو قلت لك إنّي كنت غائبا عنكما طوال هذا الوقت.

التفت إليه السّنيور ألكسندر متعجّبا وسأله:

- كيف ذلك؟

- كيف أستمتع يا سنيور وصورة ماريا لم تفارق خيالي طوال العشيّة، والسّؤال الملحّ يعاود فكري وقلبي، أين أنت يا ماريا؟ أين أنت يا حبيبتي؟ لا تؤاخذني يا سنيور ألكسندر لو سألتك: هل سبق لك أن أحببت؟

أطلق السّنيور ألكسندر قهقهة لطيفة ثمّ قال بعد صمت قصير:

- لا يا ولدي، لا أعتقد أنّي أحببت مثلما تحبّ أنت الآن، أنا كنت ومازلت كالطّائر الطّليق، أنا اليوم في السّتّين، وحتّى إذا حدث وشعرت، أو خيّل إلي أنّي أحببت، فذاك من قبيل الوهم، وقد نسيت كيف يولد هذا الشّعور الطّاغي الّذي طوّح بك بعيدا.

- إذن لا يمكن أن تشعر بما أشعر... ولن تستطيع أن تفهم جنوني يا سنيور ألكسندر. ولا أحد غيرك أيضا.

لم يكن عبد الله الفرطاس يعلم بمن سيكون مرافق ضيفه على العشاء، فقد اكتفى سي عبد العالي أمين سوق الصّاغة بالقول حين اتّصل به لإخباره بأنّ ضيفا من الكبار سيشرّف داره هذا المساء:

- أريد أن يكون عشاؤك فاخرا يا سي عبد الله لأنّي سأقدّم لك ضيفا مهمّا جدّا، ولا أوصيك طبعا بتوفير كلّ أسباب المرح والإمتاع، فأنت مقدم على صفقة نادرة على ما أظنّ.

كان عبد الله يستعيد هذه الكلمات وهو يشرف على وضع اللّمسات الأخيرة على إعدادات حفل السّهرة في داره الكبيرة الواقعة حذو حومة الخرسانيّين بباب المنارة، ويلقي بأوامره إلى خدمه الّذين تسابقوا لإرضائه، ثمّ دلف الى جناح النّساء حيث وجد النّاظرة تلقي هي الأخرى بأوامرها إلى الوصيفات للإسراع بإنهاء زينة العلجيّات.

- أين وصلت يا كاتارينا في إعداد حسناواتنا؟ أريد أن يصرعن ضيفنا بجمالهنّ وزينتهنّ، إيّاك والتّهاون! فهذه المرّة ليست كالسّابقات.

- اطمئنّ يا سيّدي، فأنا أحرص منك على تقديمهنّ في أفضل صورة، فلست أنت الوحيد الّذي ينتظر من وراء هذه الصّفقة ما ينتظر.

*****

مضت على صلاة العشاء بضع السّاعة وعبد الله القرطاس لا يفتأ يمشي ويجيء بقلق ظاهر وسمعه مرهف في انتظار طرق الباب، ومن طول انتظاره داخله الشّكّ وذهب به مذاهب عديدة، وخاف من ضياع مجهوده ومصروفه أدراج الرّياح لو لم يأت سي عبد العالي والضّيف المرتقب.

بينما كان يجترّ تخميناته سمع قرعا على الباب فقفز من موضعه وصاح في الخادم الّذي أسرع إلى فتح الباب.

- قف مكانك سأفتح أنا الباب، اذهب أنت وامر الآخرين بإعداد العشاء.

مع انفتاح الباب انفرجت أسارير عبد الله الفرطاس فرحا وهو يرى صديقه سي عبد العالي ومعه رجل ضخم الجثّة أنيق الهيئة يقفان على عتبة الباب، فأفسح لهما المجال مرحّبا بحرارة.

لم يتكلّم الرّجل البدين بل ارتسمت على شفتيه ابتسامة مبهمة لم تنجح في رسم إشراق على بشرته السّمراء ولا حتّى بريقا في عينيه الضّيّقتين، أمّا أنفه فهو منتفخ كأنّه إجّاصة متّصلة بشفتين منفرجتين على الدّوام، ووجهه خال من الشّارب ومن اللّحية، ورقبته قصيرة تكاد تكون في استدارة وجهه الّذي حجبت جبهته وغطّت رأسه عمامة كبيرة من الحرير المطرز بخيوط رفيعة من الذّهب، أمّا لباسه فهو قفطان طويل منساب إلى أسفل انسيابا لم يعترضه سوى ضخامة كرشه.

- مولانا كافور... قهرمان قصر مولاي السّلطان المعظّم أبو فارس عبد العزيز الحفصي.

ارتجّ عبد الله الفرطاس وكاد يختنق بريقه من فرط الدّهشة ومن المباغتة بهذا الضّيف الكبير، حتّى أنّه ارتبك ارتباكا جعله يعدد الانحاءة تلو الأخرى تعبيرا عن تعظيمه لمقام الرّجل، لكنّه نجح في رصف جمل إطراء لم يسبق له أن نطق بمثلها لغير هذا الكائن المكوّر:

- قلبي يا سيدي... طَرِبٌ... وفرح... ولساني ملجم عن التّعبير عن فرحتي وامتناني بقدومكم إلى داري المتواضعة... بل داركم هذه... وأنا... أوه يا إلاهي...

مضوا إلى قاعة السُّفرة وعبد الله الفرطاس يتعثّر في لسانه وفي قفطانه، وقد عجز عن كتمان فرحته فأضاع طلاقة لسانه وشهيّته في الأكل وحلّ محلّ خدمه في خدمة القهرمان وأظهر له تودّدا مفرطا.

لم يكترث له القهرمان، فهو مدرك أنّ ما يظهره له هذا النّخّاس ما هو إلاّ واجهة نفعيّة لا غير. فأشار له بالتّوقّف عن الكلام موفّرا عليه مزيد إظهار التّملّق قائلا:

- سيّد عبد الله، علمت أنّك تفرد جناحا خاصّا لحسناوات علجيّات وصلن منذ أيّام إلى تونس، فهل لنا حظّ في رؤيتهنّ... لشرائهنّ طبعا. ونحن كما تعلم ندفع الثّمن حاضرا ودنانيرنا من الذّهب الخالص، ومع الدّفع تبقى المعاملة قائمة بيننا، وأبواب قصر السّلطان ستكون مفتوحة لك إذا ما رضينا عنك.

- سيّدي الكريم، رضاكم هو الثّمن، والذّهب يصبح تبرا أمام صداقتكم، سوف أريكم بعد قليل ما استطعت الحصول عليه من روميّات على غاية من الجمال والكمال، لكن سيّدي كافور لمن ستشتري العلجيّات؟

- لمولانا محمّد المنصور الحفصي وليّ العهد.

- وليّ العهد؟ آه! أي سلطان البلاد بعد... وفاة... أوه... عفوا المعذرة لم أقصد...

- لا بأس... لا بأس. هيّا أرِنا يا سيّد عبد الله ما عندك من حسان.

صفّق عبد الله الفرطاس بطريقة مميّزة ففتح باب كان مغطّى بستارة ثقيلة فظهرت من ورائه عشر علجيّات في كامل زينتهنّ وقد وقفن في وجل وخجل، وكلّ واحدة منهنّ خائفة من الانتقال إلى أياد أخرى، وقد زادهنّ الخفر جمالا بفعل ضوء الشّموع المتعدّدة الّتي كانت تضيء المربّع الّذي وقفن به.

استوى القهرمان كافور في جلسته وهو يرى ذلك الحسن الّذي طلع عليه كأنّه طلعة بدور متجمّعة، فراح ينقل بصره من واحدة إلى أخرى، ثمّ يعيد الكرّة محاولا التّركيز على الوجوه وعلى القوام، وكان عبد الله الفرطاس يتابع نظرات كافور ويستقرئ آثار الانبهار على وجه هذا الخصيّ الغليظ والخطير ويمنّي النّفس بربح وفير.

- بنات عسل وشهد يا سيّدي، وأنت العارف بأسرار جمال الرّوميّات، فهؤلاء الحسان لم تقع عليهنّ عين سوى عينك يا سيّدي كافور.

- لماذا لم تُسمِنْهنّ يا سيّد عبد الله؟ ألا تعرف أنّ جمال المرأة في لحمها وشحمها، وهؤلاء رشيقات جدّا يكاد عود الواحدة منهنّ ينكسر.

استاء النخّاس لهذه الملاحظة الّتي تنطوي على استنقاص من سلعته وبالتّالي تضع من قيمتها النّقديّة، فسارع إلى التّبرير قائلا:

- أوه... أعرف يا سيّدي كافور... أعرف أنّ جواري القصر أغلبهنّ من العلجيّات، ولم أسمع أنّ واحدة منهنّ دخلت إلى الحريم وهي ثقيلة بلحمها وشحمها، بل كان التّفضيل يذهب إلى حسن الوجه وتناسق القوام... أليس كذلك يا سيّدي؟

ضحك كافور ضحكة مزلزلة وهو ينهض بخفّة كأنّه لا يحمل كرشا في مثل ذلك الحجم.

- أنت ذكيّ يا سيّد عبد الله، وتاجر تعرف كيف تردّ الكيل، والآن تريد أن أشتري منك هؤلاء كلّهنّ دفعة واحدة أو أختار ما تقرّ عليه عين مولاي محمّد المنصور؟

- عِقد اللّؤلؤ يا سيّدي كافور لا يتجزّأ، فإذا انفرطت حبّاته ضاع حسنه ورونقه، وأنت جئتني لتشتري ما يزيّن قصر مولانا، فحرام أن تعود بحبّة واحدة أو بحبّتين من هذا العقد الفريد وتترك الباقي.

جلجلت ضحكة كافور مرّة أخرى فربّت على كتف عبد الله الفرطاس بتحبّب وقال:

- يا لك من خبيث... كلامك جميل يا سيّد عبد الله ومقنع أيضا، ولا أجد ما أردّ به عليك... كم تطلب إذن في هذا العقد؟

- لا أطلب شيئا يا سيّدي كافور... لا أطلب شيئا الآن... أريد أن يرى مولانا محمّد المنصور بنفسه هؤلاء الحسناوات وهو القادر على تقييم هذا الكنز.

- أنت تطمع في كنز يا سيّد عبد الله؟ لكن لا بأس، سأرسل غدا في طلب الجاريات، وسأخبرك بما سيستقرّ عليه رأي مولانا... لكن لا يمكنك بأيّ حال من الأحوال أن تبيع وتشتري مع مولانا... فإذا حدّد لك سعرا أو مكافأة عليك أن تقف عندها ولا تطمع في المزيد... ها... ألا تقول لي الآن كم تطلب؟

- رضى مولانا محمّد المنصور ورضاك أنت هما مكافأتي، والمال لن يضيع ولن أخسر شيئا حتّى لو أخذ مولانا هؤلاء الحسناوات بدون مقابل...

*****

أرسل كافور في الغد مجموعة من الخصيان يقودون ثلاث عربات مغطّاة وعلى نوافذها ستائر من الحرير الأحمر وأركبوا الجاريات واتّجهوا بهنّ إلى قصر القصبة، وكانت النّاظرة كاتارينا ضمن الرّكب فقد أمرها عبد الله الفرطاس بمرافقة العلجيّات والسّهر على جعلهنّ دوما في صورة أنيقة حتّى تسليمهنّ إلى قهرمانة القصر.

حين دخلت أوّل عربة باب قصر القصبة انخلع قلب ماريا، فقد اعتقدت لأوّل وهلة وهي ترى سور القصبة الّذي يشبه سور قلعة حربيّة، أنّها سوف تعيش إلى الأبد في حبس بائس بؤس جدران هذه البناية العظيمة الواقعة على ربوة عالية، وكادت أن تسأل كاتارينا سؤالا يعبّر عن خيبة أملها، لكنّ المرأة عاجلتها بإجابة تلقائيّة حين قرأت على وجهها خلجات الانقباض فقالت لها:

- ماريا... نحن الآن على عتبة باب سلطان البلاد، لقد دخلنا أحسن دار في البلاد قاطبة. ولا يغرّنّك مظهرها الخارجيّ، فهي روعة من الدّاخل، لذلك أنا خائفة منك وعليك، خائفة لأنّ لسانك طويل وقلبك مغلق، وخائفة عليك من نفسك لأنّك غامضة ومبهمة ولا أستطيع أن أنصحك لأنّك لن تعملي بنصيحتي، لقد خبرتك طوال الأيّام القليلة الماضية، وانتهيت إلى هذه النّتيجة، وأرجو أن تكذّبني الأيّام القادمة.

- اطمئنّي يا سيّدتي، لقد نامت في نفسي كلّ مقاومة واستسلمت مذ دخلت دار النّخّاس، ولا أدري كيف وصلت إلى هذا المصير المقيت، لقد فعل الخطف والحبس والذّلّ في نفسي فعله، غير أنّي كنت أعتقد خطأً أنّ مصيري سيكون في بؤرة فساد، فإذا بي في نعمة، وها أنّي الآن في قصر سلطان البلاد فلن أكون مثلما تخيّلت يا سيّدتي، ولن أجد أحسن من هذا المكان لأعيش فيه غربتي ووحدتي.

- سأكون بجانبك دوما وسأزورك متى احتجت لي، ثقي أنك محظوظة فعلا.

دخلت ماريا دنياها الجديدة كأنّها ولدت من جديد، تاركة وراءها سبعة عشر ربيعا عاشتها في قرية نائية تقع على أحد سواحل بلاد الرّوم.

*****

شغلت فخامة أرجاء قصر القصبة من الدّاخل عقول الجاريات الجديدات فعلقت أبصارهنّ بقبّة القاعة الكبيرة الّتي زخرفت زخرفة دقيقة شملت حتّى أعلى الجدران المكسوّة بالجليز الملوّن بألوان زاهية تغلب عليها الزّرقة.

كان الصّمت مهيبا لا يقطعه سوى خرير ماء متدفّق من نافورة كبيرة زادت المكان روعة، وفرشت حولها فرش حريريّة تناثرت فوقها وسائد متفاوتة الأحجام ومختلفة الألوان كما فاحت من إحدى المباخر الموضوعة في ركن منزو رائحة بخور زكيّة.

- أنا قهرمانة القصر... مرحبا بكنّ في جناح الحريم...

كانت المتكلّمة امرأة متوسّطة العمر، شعرها أسود حالك وجهها لوزيّ وعيناها تتّقدان ذكاء، قوامها رشيق وحركاتها خفيفة تتكلّم الإيطاليّة بطلاقة وتنطقها في جمل متقطّعة كأنّها ترمي إلى ترسيخها في أذهان القادمات الجديدات:

- هذه القاعة الفسيحة مخصّصة لحفلات اللّيل أمّا قاعة النّهار فهي من هنا.

كانت ماريا آخر من تبع القهرمانة وهي تقودهنّ في رواق طويل نحو باب كبير منقوش بأشكال نباتيّة وبخطوط هندسيّة متداخلة ولمّا اقتربن منه أشارت القهرمانة إلى خصيان دفعوا مصراعي الباب فانفتح على قاعة أوسع وأكبر من الأولى.

أصابت القادمات الجديدات دهشة من كثرة الجاريات الموجودات بهذا المكان، فمنهنّ الواقفات أو الجالسات أو المتّكئات على الفرش والوسائد، ومنهنّ المنصرفات إلى الزّينة وإلى التّفنّن فيها، وكلّهنّ منشغلات بالحديث وبالضّحك، وثمّة حتّى من انصرفن إلى القراءة في أركان منزوية، وحالما رأين الجديدات تتقدّمهنّ القهرمانة سكتن فجأة كأنّهنّ أصبن بالجمود، فخيّم على القاعة صمت محرج.

أخبرت القهرمانة الجاريات القديمات بقدوم الجاريات الجديدات وأوصت بهنّ خيرا ثمّ انصرفت بعدما تركت لمساعدتها أمر القيام بشرح، للجديدات، كيفيّة احترام قواعد سلوكيّات خاصّة واتّباعها بصرامة للعيش في حريم القصر.

حالما خرجت القهرمانة تجمّعت الجاريات حول القادمات الجديدات فكثر التّساؤل بلهجات عديدة إلى أن عثرت كلّ واحدة على من ستختارها كصديقة للمستقبل وبقيت ماريا لفترة قصيرة تنظر إلى العدد الكبير من هؤلاء النّسوة وتبحث بعينيها عن واحدة يمكن أن تختارها أو ترتاح لها من النّظرة الأولى فلم تجد أمامها وجها تأنس له وبقيت واقفة لا تدري هل هي حائرة أم سعيدة أم كئيبة، لكنّ تساؤلا غلب شعورها وأخذ يتردّد في ذهنها:

- إلاهي! لماذا كلّ هذا العدد الكبير من الجواري؟ ... لماذا؟

استدارت لتذهب إلى ركن خال قريب من نافذة أعجبها موقعها فإذا بها وجها لوجه مع جارية ذات حسن أخّاذ، شعرها الطّويل الأسود يتناقض تناقضا صارخا مع لون عينيها، ولم تجد ماريا لحظتها أيّ تشبيه لهذا الجمال إلاّ صورة قطّة سوداء بعينين زرقاوين تتماهيان مع اخضرار غامق.

- مرحبا بك في القفص الذّهبيّ.

قالتها الجارية وعلى شفتيها ابتسامة ساخرة أعجبت ماريا فردّت عليها:

- أعجبني شكلك، وأعجبتني ابتسامتك، فهل أنت إيطاليّة؟

- أنا من فالنسيا... أي إسبانيّة، فهل أنت من هناك؟

- قيل لي إنّ أصولي من فالنسيا، لكنّي عشت في إيطاليا. ما اسمك؟

- كان اسمي لورا... وأصبح ريحانة...

- لماذا؟ من يغيّر الأسماء هنا؟ ... أم أنت الّتي اخترت هذا الإسم الغريب؟

- لا... كلّ جارية تدخل الحريم يصبح لها تعريف خاصّ، وسيعطيك مولانا الأمير اسما جديدا يطابق أوصافك أو ربّما لا يطابقها. إنّها مسألة نزوة، وأرجو أن لا يطول بك الانتظار لتشريف مخدع مولانا.

- مخدع؟

ضحكت ريحانة بطلاقة واقتربت من ماريا وهمست لها:

- ولماذا خلق الرّبّ حوّاء أصلا، أليس لإسعاد آدم؟

هزّت ماريا كتفيها ثمّ عادت تنظر إلى الجاريات وتتفرّس في وجوههنّ فوجدتهنّ كلّهنّ جميلات، بعضهنّ رشيقات لكنّ معظمهنّ ممتلئات يرفلن في أثواب حريريّة على غاية من الأناقة.

قالت متسائلة كأنّها تحدّث نفسها:

- الشّيء الّذي حيّر فكري مذ دخلت هذا الجناح هو عدد النّساء... هل كلّ هؤلاء لرجل واحد؟

- فعلا. كلّنا على ذمّة مولانا الأمير. وهو يختار ما يروق له، وأحيانا القهرمانة هي الّتي تقترح عليه واحدة أو تختارها له حسب ميولها...

- كلّ هؤلاء لرجل واحد؟ وكلّ واحدة تنتظر دورها؟ لا... لا يمكن العيش في هذا القفص الذّهبيّ كما قلت.

- أنا هنا يا عزيزتي منذ عام ونصف. ولم يختل بي الأمير إلاّ ليلة واحدة؟

- ماذا؟ ولماذا؟

- لأنّه لم يحن دوري بعد...

ابتسمت ماريا ابتسامة ساخرة وسرحت ببصرها ناحية النّافذة ثمّ تمتمت باستهزاء:

- وأنا؟! متى يا ترى سيحين دوري؟

- حين يصبح للحوت أجنحة.

راحت ريحانة في ضحكة رنّانة بينما ظهر الاستياء على وجه ماريا.

- لا تأخذي في خاطرك منّي، هو مجرّد مزاح حتّى أرسم على وجهك الابتسامة، هيّا قصّي عليّ بالتّفصيل كيف وقع اختطافك من فينيسيا؟

- بل قصّي عليّ أنت كيف وقع اختطافك من فالنسيا.

- الأمر على غاية من البساطة، فأنا ابنة ريف فالنسيا، ريف واقع على ساحل البحر في قرية منسيّة لكنّها رائعة، خرجت ذات ليلة بمفردي هاربة من كابوس ألمّ بي جرّاء اكتشافي صدفة لخيانة حبيبي لي، ومع من؟

- طبعا كالعادة مع أعزّ صديقة لك؟

- - بل مع أختي حبيبتي.

- أوه سانتا ماريا...

- كانت الصّدمة في حجم الدّنيا الّتي دارت بي وجعلتني أهرب وأتوغّل في الخلاء في مسلك خطير يؤدّي رأسا إلى البحر، كانت الطّريق موحشة لولا بهرة ربع قمر طالع، لقد كنت أنوي الانتحار برمي نفسي من علوّ صخرة مطلّة على عمق الماء. لكن حين كدت أرمي بنفسي في البحر استفقت فجأة، أو قولي خفت وأصابني الرّعب، وقلت لنفسي: الحياة عزيزة ولا يجوز هدرها من أجل لوثة حبّ أو عشق أو لا أدري ما اسم ذلك الدّاء الّذي يتمكّن من القلب ويجعل المرء يتشظّى إلى حدّ ارتكاب الحماقات. المهمّ هربت من الحبّ، لا بل من الخيانة، نحو الموت لأرمي بنفسي في أحضان الشّياطين.

- كيف؟

- حين غادرت الصّخرة جريا خرج لي فجأة من وراء أكمة مارد أسود كان يقضي حاجته، وأظنّه قد بوغت بمروري، فقام وجرى ورائي يريد اللّحاق بي، على أساس أنّي صيد في المتناول. لكنّ سرواله الّذي كان على مستوى ركبتيه أعاقه فلم يتمكّن من تسويته في الحين فطفق يصيح مناديا بلهجة غريبة خرج على أثرها من العدم ثلاثة قراصنة كانوا متخفّين في مغارة بحريّة فاعترضوني وتقبّضوا عليّ ثمّ قادوني قسرا إلى مغارتهم ثمّ رموا بي إلى حلقة سبايا مثلي كانوا أغاروا عليهنّ في مساء اليوم نفسه من أحد السّواحل القريبة. وقد اضطرّوا للاختباء في المغارة في انتظار قدوم رفقاء لهم ذهبوا لتصيّد ضحايا آخرين. وباختصار لم يلبث أن قدم هؤلاء ومعهم أربع بنات مكمّمات الأفواه فاكتمل بذلك النّصاب ليقع أخذنا إلى سفينتهم الّتي كانت راسية وراء صخور عالية.

- يعني أوقعت نفسك بنفسك في أيدي قراصنة ليقع بعد ذلك بيعك في سوق تونس؟

- لا... لقد أخذونا إلى الجزائر.

- الجزائر؟ أين يقع هذا البلد؟

- بعيد جدّا عن تونس، لكنّه ضمن مملكة مولانا السّلطان.

- كيف وصلت إذن إلى هنا؟

*****

وقف أنطونيو على ضفاف بحيرة تونس وقد سرح بصره على صفحة مائها الّتي انعكس عليها شفق الغروب فمالت إلى الاحمرار وزادها احمرارا تواجد آلاف الطّيور الّتي يسمّيها أهل البلاد "البشروش" فكان المنظر بديعا في هذه العشيّة الصيفيّة الجميلة رغم انبعاث رائحة كريهة

وغريبة من البحيرة، فقد وجد أنطونيو أنّ هذا المنظر يذكّره شيئا ما بالبندقيّة حين يقف بطرف قنال يفضي رأسا إلى البحر.

آه ما أبهى الوقوف قبالة البحر! فالبحر يذكّره بحبيبته الّتي لن يلتقي بها أبدا، لقد كان يتمنّى وهو في فينيسيا أن يلتقي بها، ولو للحظات، على جسر الآهات المقابل لقصر حاكم البندقيّة، جسر العشّاق الخشبيّ حيث تربط علاقات الحبّ والعشق، وحيث تتكاثر الأقفال المعلّقة بخشبة الجسر لتكون شواهد على ربط المصائر الغراميّة على مدى الحياة، كأنّها عقود زواج ملموسة لا مكتوبة، بما أنّ مفاتيح تلك الأقفال تلقى في الماء مباشرة لترقد في القاع وإلى الأبد. لكن ضاع الحلم، فلا تمّ لقاء، ولا قُفل قِفل. لقد ضاع الحلم وكفى.

انشغل بالنّظر إلى طير من تلك الطّيور كان اقترب منه بحذر وهو متردّد، فمرّة يقف على ساق واحدة طويلة حمراء، ومرّة على ساقين ثمّ يغرس منقاره في الماء باحثا عن سمكة أو عن أيّ شيء يأكله.

- طيور جميلة أليس كذلك؟

التفت أنطونيو فرأى سي ابراهيم بن مخلوف وقد اتّخذ مجلسه على صخرة انحسر من حولها الماء فاقترب منه وقال.

- أهلا بسي إبراهيم... لم أشعر بوصولك، منذ متى وأنت هنا؟ كدت أيأس فقد انتظرتك هنا منذ ساعة، هل عندك أخبار؟

- تعال نجلس أو نتمشى قليلا وسأحكي لك...

- لنجلس هنا على هذه الصخرة بعيدا عن الفضوليّين.

أفرد له سي إبراهيم مكانا إلى جانبه ولما جلس بادره أنطونيو بالسّؤال:

- إنّ ما أفسد عليّ هذا المنظر الرّائع لبحيرتكم اليتيمة هي الرّائحة الكريهة الّتي تسدّ النّفس، فما السبب؟

- أنتم في البندقيّة تعيشون فوق الماء وحول الماء ومع الماء. في حين نصرف نحن المياه المستعملة في الخنادق المكشوفة الّتي تشقّ دروب المدينة لتنتهي هنا في البحيرة، وهكذا نشتمّ في فصل الحرارة رائحة مؤخّرة المدينة النّتن.

ضحك سي إبراهيم ولم يضحك أنطونيو، فقد غيّمت وجهه سحابة فجئيّة من الكآبة فسرح ببصره نحو طيور البشروش، ثمّ قال دون أن يلتفت إلى رفيقه:

- لم تجد شيئا أليس كذلك؟ منذ شهر تقريبا ونحن نبحث عن مكان ماريا ولم نصل إلى نتيجة.

- لا يا أنطونيو، وجدت اليوم ما كنّا نبحث عنه منذ أيّام، لقد علمت أنّ المدعو عبد الله الفرطاس وهو تاجر رقيق، قد اشترى رأسا من سفينة قرصان حمولة الرّقيق فباع الرّجال في سوق الرّقيق أمّا النّساء فقد باعهنّ كلّهنّ إلى السّلطان.

- السّلطان؟ يعني أنّ السّلطان أو أحد الأمراء قد اشترى ماريا؟

- بالفعل، وعليك الآن أن تسلّم أمرك لله وأن تبحث لك عن امرأة أخرى تتزوّجها لكي تنسى حبيبتك.

- مستحيل... لم أقبل البقاء هنا والمخاطرة بحياتي من البندقيّة إلى تونس لكي أستسلم وأتّخذ امرأة أخرى لأنسى ماريا... مستحيل...

- دعني أنصحك يا صديقي، أنا ابن هذا البلد، وأعرف دواخله ورجاله، وأنت غريب عن هذه الدّيار لا تعرف من أهلها سوى العبد لله، ولم تدخل إلى اليوم مدينة تونس ولم تسلك حتّى دربا من دروبها، فكيف ستفعل؟ اعقل أرجوك، ربّما يكون ذلك أفضل لك وأجدى.

- ماذا أفعل إذن يا سي إبراهيم... ماذا أفعل؟ هل من حلّ حسب رأيك؟

- الحلّ في ترك الحيلة، إذ لا حيلة لك بعد اليوم ولا جواب لك عن هذا السّؤال، فهل تقدر على الدّخول إلى قصر السّلطان؟ هل تريد أن تموت على باب القصر؟ ماريا أصبحت جارية، أي حليلة السّلطان، ولن تخرج من هناك إلاّ على نعش، فهل تريد أن تموت دون أن تراها؟

- ذكرت لي مرّة أنّ الحرس الخاصّ للسّلطان هم من النّصارى أليس كذلك؟

- نعم... وماذا تريد أن تفعل؟ هل ترغب في أن تصبح من حرس السّلطان لتطمع في رؤية ماريا؟ إنس هذا الأمر، فهي محروسة داخل الحريم وحرّاسها أشدّاء من الخصيان البيض والسّود.

- وحرس السّلطان وأهاليهم أين يقيمون؟

- في ربط النّصارى قرب باب المنارة.

- إذن خذني إلى ربط النّصارى.

- وماذا ستفعل هناك وأنت لا تعرف أحدا؟

- سأبدأ مغامرتي في مدينتكم، فإمّا الظّفر بماريا أو الموت دونها، سوف أخبرك بكلّ تفاصيل ما سأتوصّل إليه كلّما اقتضى الحال، لا أريد أن أحرجك ولا أريد أن أتسبّب لك في أذى، لذلك سأذهب الآن إلى باب منارة.

- لكنّك تعلم أنّ أبواب المدينة ستغلق بعد الغروب ولن يقع فتحها إلاّ غدا صباحا، فكيف ستعود إلى الفندق؟

- سأقضي اللّيلة في...

- في السّجن؟

- لا...

- أين إذن يا أنطونيو... أين؟ ليس لك من حلّ سوى ما كنت اقترحته عليك مرارا... أن تنزل ضيفا عندي، وهكذا تلقى المسكن والأمان... وغدا يحلّها حلاّل... ها... ماذا قرّرت؟

لم يردّ أنطونيو على دعوة صديقه بل فضّل الصّمت والتّفكير في ما سمعه، وحزّ في نفسه أن تضيع منه ماريا بهذه الصّورة الّتي لم يكن يتصوّرها أبدا، وكبر عليه أن تصل إلى قصر السلطان ولا يقدر على فعل أيّ شيء، إلى درجة أنّ الدّم صعد إلى أذنيه وإلى وجنتيه من فرط الغيظ، وفجأة حضره سؤال مخيف:

- ماذا لو أحبّت ماريا العيش في قصر السّلطان وفضّلت البقاء مع صاحبها الجديد؟ كيف سيكون مصيره بعد ذلك؟ هل يواصل العيش هنا بدونها؟

أمسك بذراع سي إبراهيم وقال وبصره ينزلق بسرعة على صفحة الماء الّذي أدركه المغيب:

- سأدخل قصر السّلطان يا سي إبراهيم... وسأختطف ماريا وليكن ما يكون.

كانت العشيّة صيفيّة رائقة في صحن جناح الحريم بقصر القصبة، وكان النّسيم يتلاعب بأردية الجواري الشّفّافة وهنّ يمرحن أو يتراقص على إيقاعات الدّفوف الّتي كان يضربها جمع من الجواري المتخصّصات وهنّ يغنّين بأصوات عذبة متناغمة، بينما جمع من الخصيان السّود يوزّعون على الحسناوات أكوابا من عصير اللّيمون وأطباقا من أنواع الغلال الطازجة.

جلست ماريا إلى جانب صديقتها الجديدة ريحانة تنظر إلى الجواري وعقلها منشغل بعدّة أسئلة، منها ما أفضت بها إلى رفيقتها:

- هل حكم علينا يا ريحانة بالبقاء كلّ عشيّة في هذا المكان نتفرّج على بعضنا ونستمع إلى الغناء ونقتل الوقت ونحكي نفس الحكايات؟ لقد سمعت بعضهنّ يحكين عن روعة جنان غير بعيد عن قصر القصبة هل زرته؟

- نعم زرته عديد المرّات وهو آية في الرّوعة والجمال، وهو جنان رأس الطّابية، وكذلك جنان أبي فهر[1]، وهذا الأخير أبعد من الأوّل، سمعت من القهرمانة أنّنا سنخرج لزيارة جنان رأس الطّابية في الأسبوع القادم، وأرجو أن تكوني ضمن الطّابور.

- لماذا؟ هل هناك اختيار وتفضيل؟

- نعم... فالجاريات اللاّئي يختارهنّ الأمير للنّزهة معه هنّ المحظوظات لقضاء أسبوع أو أكثر في رأس الطّابية.

- دعينا من هذا، ألم تعِديني بإكمال قصّة اختطافك ولم تفعلي إلى حدّ الآن؟

- كانت نفسي صادّة عن الكلام بسبب تلك القهرمانة الشّمطاء الّتي قطعت عنّا الكلام ساعتها لإخباري بأنّ مولانا الأمير قد يستدعيني ليلتها لأكون ضيفة في فراشه، لكن وكما تعلمين سقط كلّ شيء في الماء بسبب أجهله إلى اليوم، وقد رفضت القهرمانة إخباري به.

- لا عليك، ربّما يقع استدراك الخطأ بدعوتك هذه اللّيلة، من يدري؟

- لا أظنّ يا ماريا، فحظّي عاثر على الدّوام، والدّليل حكايتي الغريبة، فحين رست بنا سفينة القراصنة في عرض البحر بالجزائر، أنزلوا جميع السّبايا على القوارب باستثنائي أنا.

- لماذا؟ هل عشقك القبطان؟

- تصوّري أنّي لا أدري إلى اليوم سبب ذلك، كلّ ما أعرفه أنّه ما لبث أن وصل إلى السّفينة رجل سرعان ما هرع إليه القبطان مرحّبا ترحابا يدلّ على مقام الشّخص، وبعد ساعة عرفت أنّي كنت موضوع صفقة هامّة وأنّي انتقلت من يد إلى أخرى كسلعة ذات قيمة، دون أن تكون لي كلمة في أمري وفي مصيري، ثمّ بعد ذلك أخذني الرّجل الّذي اشتراني إلى دار فخمة

---

[1] جنان أبو فهر: اندثر اليوم وحلّ محلّه مركّب مدينة العلوم ولم يبق من أثره ظاهرا سوى الجابية الكبيرة الّتي كانت بمثابة بحيرة في ذلك المكان.

تقع في أحد دروب مدينة الجزائر، وهناك بقيت بها أشهرا مع عديد الجواري دون أن أرى لا ذاك الرّجل الّذي اشتراني ولا صاحب الدّار الّذي قيل لي إنّه هو مولاي الفعليّ وأنّ عليّ انتظار فرصة لقائه. لو قدّر لي أن أراه، فهو دائم التّرحال ولا يستقرّ على حال، وذات يوم حدث في تلك الدّار الكبيرة جلبة عظيمة انقلب فيها كلّ شيء رأسا على عقب، فقد داهما عسكر الأمير وفتّشوا كلّ أرجائها ثمّ رفعوا كلّ أثاثها، كما رفعوا كلّ الجواري، وبالطّبع كنت من ضمنهم وأركبونا في الحال في مركب كبير ليرسو بنا بعد يومين في ميناء تونس ومنه قادونا إلى هنا لنصبح من حريم السّلطان.

- عجبا، ألم تعلمي بأسباب هذا الانقلاب؟

- علمت أنّ الرّجل الّذي كنت من ضمن حريمه والّذي لم أره إطلاقا قد وقع إعدامه بسبب خيانته لمولانا وتآمره على الدّولة الحفصيّة لفائدة الدّولة المرينيّة بالمغرب، وأنّ كلّ أملاكه قد صودرت... بما فيها أنا.

ضحكت ريحانة ضحكة لم تدر ماريا سرّها، فلا شيء في الحكاية يدعو إلى الضّحك بل...

لم تواصل ماريا تساؤلها فقد رأت القهرمانة تتوجّه نحوهما وعلى شفتيها الرّفيعتين ابتسامة واسعة:

- آه! أراكما دوما تتسارّان وتتحادثان، أرجو أن يكون حديثكما باللّهجة التّونسيّة، وأرجو أن تكوني يا ريحانة قد توفّقت في تعليم ماريا مبادئ اللّغة العربيّة؟

- لقد قطعت شوطا كبيرا. فهي على درجة عالية من الذّكاء ولها قدرة على استيعاب كلّ ما تتعلّمه بسرعة وبسهولة، وأخاف أن تتغلّب عليّ يوما فتقول الشّعر العربيّ.

- حسن... حسن... لي خبر سارّ جدًا لماريا فقد اختارها مولانا الأمير لتكون ضمن خاصّته هذه اللّيلة.

بوغتت ماريا ونظرت إلى ريحانة فقرأت على وجهها علامات الدّهشة وأحسّت بأنّ صاحبتها بدأت تغار منها فعلا، فقالت موجّهة السّؤال لرفيقتها لا للقهرمانة:

- كيف؟ أعني هل اختارني الأمير دون أن يراني؟

أجابتها القهرمانة رأسا:

- لا... بل رآك بالأمس وأنت جالسة كالعادة على حافة النّافورة تتلهّين بمنظر الماء، وأجزم أنّك تتعمّدين الانزواء حتّى تجلبي اهتمام مولانا الأمير.

- أنا؟ ... أبدا وحقّ الرّب... لست...

قاطعتها القهرمانة بحركة من يدها وقالت لها قبل أن تنصرف:

- إذن استعدّي للاستحمام وللزّينة فأنت محظوظة، سوف تتناولين العشاء صحبة مولانا، وهذا نادرا ما يقع، لذلك أرجو أن تكوني لبقة في حديثك وفي تصرّفاتك مع مولانا، سوف تنتقلين بعد حين إلى الجناح الخاصّ بالأمير، أعوّل عليك يا ريحانة في مساعدة صاحبتك.

قالت ريحانة بصوت خافت أكثر معناه موجّه لنفسها:

- على ماذا... يا وجه النّحس؟

انصرفت القهرمانة وتركتهما صامتتين تنظران إلى بعضهما بشيء من الحيرة.

- لست مستعدّة للسّهر مع الأمير يا ريحانة، وهذا الادّعاء الّذي رمتني به القهرمانة خال من الصّحّة، لست في حاجة لا إلى التّمويه ولا إلى الكذب.

- أنت مجنونة ومحظوظة في آن واحد؟ ألم أقل لك إنّي قضيت أكثر من سنة ونصف ولم أحظ بما حظيت به أنت الآن، فماذا تريدين من وراء تنطّعك هذا؟ سوف تقضين حياتك هنا سواء عرفت الأمير أو لم

تعرفيه فماذا تختارين؟ أنا أحسدك يا ماريا وأقولها لك صراحة. أحسدك على هذا الباب الّذي انفتح في وجهك. باب المستقبل. ومن يدري ربّما تصبحين أميرتنا مباشرة غدا أو بعد الغد... من يدري؟

- دعيني يا ريحانة من هذا الهراء. لن أكون بالنّسبة إلى هذا الأمير سوى جارية كبقيّة الجواري. وجسد يستمتع به ليلة ثمّ ينساني وأعود إلى الحريم لأعيش على أمل العودة مرّة أخرى بعد شهر أو عام أو عامين أو... لا أعود أبدا؟

- حالك أفضل من حالي يا ماريا. ألم أقل لك منذ حين إنّ حظّي عاثر على الدّوام. وها أنّك تلمسين الدّليل عن طريق هذه القهرمانة الّتي تأتيني، وليست للمرّة الأولى. بخبر يقوّض كلّ أحلامي.

كانت ستارة النّافذة المطلّة على حديقة القصر من جهة باب غدر[1] تتموّج بفعل النّسيم اللّيلي وتداعب وجه ماريا الّتي استسلمت إلى أفكارها وهي تنظر إلى السّماء المرصّعة بالنّجوم وتحاول أن تتمالك حتّى لا يبدو عليها الانفعال من كثرة الانتظار بمفردها في تلك الغرفة الأنيقة المؤثّثة تأثيثا فاخرا. وحاولت أن تنشغل بشيء تؤثّث به وحدتها فلم تجد سوى معاودة التّطلّع من النّافذة الّتي تصلها على الأقلّ بالعالم الخارجيّ.

انقطعت عن التّأمّل عندما سمعت ضوضاء بالخارج ثمّ رأت أحد الخصيان يفتح الباب ويرفع عنه السّتارة ثمّ يعلن بصوت جهوريّ وينحني انحناءة طويلة.

- مولانا الأمير.

---

[1] باب غدر: بسكون الغين. أحد أبواب القصبة الموارب، وقد سمّي بهذه التسمية لكونه يفضي إلى ممرّ سريّ جعل لخروج السّلطان خلسة في صورة حدوث حادث خطير بالقصر، وأحيانا يستعمل لتضخيم عدد العسكر بطريقة خاصّة تجعل خروجهم بعدد معلوم ثمّ عودتهم بالموارية فيبدون للعدوّ كأنّهم ألف وما هم في الحقيقة سوى مائة.

استوت في جلستها ووجهها إلى الباب وقلبها واجف تنتظر وقع هذا اللّقاء على نفسها وتدعو ربّها وكافّة القدّيسيّين أن يكونوا في عونها، ثمّ صلت بسرعة ورسمت علامة الصّليب.

تقدّم نحوها الأمير بقامته المديدة وقد ابتسم ابتسامة رقيقة لخّصت كلّ ما يحمله في قلبه من طيبة فلم تتمالك ماريا من أن تبادله الابتسامة بابتسامة محتشمة لكنّها عميقة ثمّ همست بلطف:

- مولاي...

استمتع الأمير بالسّمر مع ماريا الّتي استطاعت أن تأسر قلبه وتشدّ سمعه بحكايات عن ذكريات طفولتها وصباها، وكانت تدفعها للكلام سعادتها الّتي نزلت على قلبها دفعة واحدة، فقد وجدت في الأمير ذلك الرّجل الّذي كانت تتخيّله ويرنو فؤادها لملاقاته، ووجدت نفسها أنّها امتلأت حبّا لهذا الغريب الّذي امتلكها حسّا وجسدا، فانساقت إلى متعة اللّحظة خوفا من ضياعها، وأعطت من كيانها بقدر حرمانها وتعطّشها واندفاعها إلى هذا الرّجل الّذي كانت نافرة منه منذ ساعة، رافضة لفكرة امتلاكه لجسدها لليلة واحدة، فإذا بها اللّحظة تبحث عن كيفيّة لامتلاكه هو وإبقائه إلى جانبها طول العمر.

قال لها همسا وهي ما زالت مبحرة في أحلامها:

- أنت يا ماريا جميلة ورشيقة، وذكيّة ومتنطّعة كالغزال، أتدرين ماذا نسمّي هذا النّوع من الغزال عندنا؟

- لا يا مولاي...

- ريم.

ردّدت ماريا الكلمة كأنّها تسافر بها إلى دنيا ورديّة.

- ريم؟ إسم جميل وخفيف وشاعريّ.

- إذن سأسمّيك ريم، ولنترك ماريا للماضي، أنت الآن غزالتي الّتي تمتلك كلّ رحاب قلبي، فامرحي فيها ولا تغيبي عن ناظري.

كانت ليلتها بمثابة ليلة دُخلة بين وليّ العهد وبين محظيّته الجديدة رغم الفوارق المتعدّدة، فقد كان الحبّ الوليد هو النّاطق الحسّيّ بين القلبين، وهو الرّابط والواصل لقادم أيّامهما، حتّى أنه لمّا أصبح الصّباح علم كلّ من في القصر أنّ وليّ العهد محمّد المنصور قد كافأ القهرمان كافور مكافأة سخيّة، كما أرسل عديد الهدايا إلى بقيّة الجواري والخدم والخصيان إكراما لمحظيّته الجديدة واحتفاء بها.

كثر اللّغط والتّعليق بين الجواري القديمات والجديدات وتساءلن عن سرّ هذا التّحوّل الفجئيّ للأمير المعروف باعتداله وبالمحافظة على حياته الخاصّة وإحاطتها بالكتمان، فكان التّساؤل الحائر:

- بماذا تمتاز علينا هذه العلجيّة المتنطّعة والمتعالية؟ هل هي ساحرة أم ماكرة؟. هل سقط الأمير فعلا في شراكها؟ وهل ستحرمنا مستقبلا من حظوته؟

علمت ريم بهذا الحديث الّذي كان يدور بين رفيقاتها والّذي نقلته لها صديقتها ريحانة فلم تعره اهتماما، فقد رأت أنّها أصبحت تُعامل كالأميرات، فكثر خدمها ووصيفاتها الّذين أحاطوا بها ينتظرون منها الإشارة لتلبية أبسط رغبة من رغباتها.

دخلت عليها ريحانة ذات عشيّة بغية تهنئتها بانتقالها إلى جناحها:

- مولاتي ريم أريد أن...

- مولاتي؟! ما هذا يا ريحانة؟ أنا لست مولاتك، وأرجوك لا تكوني كالأخريات، أنا ماريا أو ريم الّتي تعرفينها ولن أتغيّر أبدا، أرجوك ابقي صديقتي، فأنا الآن أشعر بالغربة الفعليّة وسط ذلك الجمع من الجواري فأنا لا أتحمّل غيرتهنّ.

- لأنك يا ريم لم تعرفي مذاق الغيرة المرّ، أنا مندهشة منك وشعرت ربّما بنفس الشّعور الّذي شعرت به الأخريات لأنّك أظهرت لي عكس ما كنت تبطنيه، فكيف فعلت لتصبحي في ليلة واحدة أميرتنا؟ ونجحت أنت القادمة حديثا، في حين لم تنجح أيّة واحدة من قبلك رغم تفنّنهنّ في إغراء الأمير وكسب مودّته، إن لم أقل حبّه...؟

- كنت أتصوّرك يا ريحانة أذكى وأفطن، لكنّي أراك انسقت أنت الأخرى وراء شعور حجب عنك الإدراك، لقد كنت متخوّفة فقط من المجهول، ومن رجل غريب تفصلني عنه أشياء وعادات وتقاليد ودين ولغة. كنت متألّمة من وضعي كجارية مملوكة ومختطفة من بلدي ومن أهلي، وكان هذا المجهول هو الّذي شدّ فكري وأظلم قلبي الخالي من الحبّ. كنت أنتظر في قرارة نفسي حبّا لا أدري هل يأتي أو لا يأتي، كان قلقي وقنوطي من طول الانتظار، وكان خوفي من بقائي أعدّ الأيام وأقطف زهرات شبابي وأنثرها في الهواء حتّى يدركني خريف العمر. أنا لست ساحرة ولا ماكرة يا ريحانة حتّى أغوي الأمير بسهولة، أنا امرأة حافظت على صفاء روحي وعلى بساطتي، لذلك أحببت فعلا ووجدت عينا تتدفّق حنانا وحبّا فشربت منها لأحيا وأنتعش، فهل أذنبت في هذا؟

لم تجد ريحانة قولا تردّ به، فقد رأت صديقتها تحدّثها بكلّ جوارحها، ورأت في عينيها بريقا يشعّ صدقا وسعادة فبادرت بمعانقتها كأنّها تشاطرها شعورها ثمّ همست متسائلة:

- وأنطونيو يا ريم في كلّ هذا؟

*****

استطاع سي إبراهيم بن مخلوف ثني أنطونيو عن عزمه في الذّهاب إلى ربط النّصارى في تلك العشيّة ووعده بمرافقته في الغد إلى حيث يريد، ونصحه بالتّفكير مليّا عندما يخلو إلى نفسه حتّى لا يقع في مأزق

ويقبض عليه رجال السّلطان ويلفّقون له تهمة تودي بحياته. فوافق الشّابّ بعدما هدأ. وعاد إلى الفندق وقضى ليلته كلّها في سهد وحيرة يتقلّب في فراشه ويراجع نفسه ويرتّب أفكاره الّتي تداعت وفقدت تماسكها وتسلسلها.

أصبح اليوم قائظا ممّا جعل أنطونيو يغادر الفراش باكرا ويتّجه إلى ضفاف البحيرة في انتظار حلول موعده مع سي إبراهيم أمام الفندق. فقط طمع في تلك الساعة في شيء من الهدوء النّفسيّ وفي نسمة بحريّة تلطّف حرارة الجوّ من لفح الشّمس الصّباحيّة الحارقة.

جاء سي إبراهيم في الموعد يحمل مِنَشّة يدويّة يستعين بها على التّهوئة وعلى نشّ الذّباب، فبادره أنطونيو بالتّحيّة ثمّ قال له:

- ثلاثة حطّمت أعصابي يا سي إبراهيم، السّهد والحرّ والذّباب. ألا يوجد مكان في المدينة يقينا منها؟

- المكان الوحيد بالنّسبة لي والّذي ألقى فيه الرّاحة والسّلام هو المكان الممنوع عليك دخوله أنت بالذّات.

- ما هو؟

- جامع الزيّتونة.

- ماذا؟ ... جامع؟ ولماذا لا تقول كنيسة؟ ألم تذكر لي البارحة كنيسة تقع في... لا أدري أين؟

- في باب المنارة.

- نذهب إذن إلى باب المنارة هذا بما أنّك وعدتني بذلك البارحة.

- هداك الله يا صديقي، كنت أطمع في أن أراك قد عدلت عمّا عزمت القيام به عشيّة الأمس، وكنت أظنّ أنّ اللّيل كفيل بإعادة الوعي إليك، لكنّي أرى الآن عكس ما تمنّيت وليست لي حيلة معك سوى دعوتك إلى التّروّي قبل أن تقدم على تنفيذ الأمر الّذي شغل بالك، فهو

خطير، ولا تنسى أنّك غريب في هذا البلد، ولا سند لك يأخذ بيدك يوم تقع، هيّا بنا إلى المدينة نسلك هذا الدّرب فهو يمرّ بنا بالأسواق المغطّاة، فهواؤها ألطف وحرارتها أخفّ وهي تقينا كذلك من وقع الشّمس.

دخل أنطونيو مدينة تونس لأوّل مرّة فاندهش لكثرة الحركة في درب جامع الزّيتونة الّذي يعجّ بالرّاجلين وبالرّاكبين على البغال أو على الأحمرة، وانبهر بالألوان السّاطعة الّتي تشعّ من السّلع المعروضة أمام حوانيت متلاصقة وضيّقة المجال وقد وقف أمامها أصحابها يدعون المارّة بأصوات مترنّمة عارضين عليهم عيّنات من سلعهم، ورأى تجّارا آخرين يجلسون على مقاعد طويلة يرتشفون عصير اللّيمون وفي أيديهم مراوح أو منشّات يطردون بها ذبابا كثر طنينه ودورانه، واستفاق من تأمّلاته على صياح رجل يطلب منه التّنحّي قليلا وقد أمسك بيد سطلا خشبيّا يطفح ماء وباليد الأخرى إناء يغرف به الماء ويرشّه على تراب الطّريق.

- لماذا يدلق الماء هكذا؟

- ذلك هو عمله من الصّباح إلى المساء، فهو يرشّ الماء على التّراب حتّى لا يتصاعد الغبار، وكذلك لتلطيف جوّ المكان، وسوف يعترضنا آخرون يقومون بنفس العمل، أمّا هذا الرّجل الّذي يحمل على ظهره قربة فهو يقدّم الماء البارد للعطاشى، هل تريد شربة ماء عذب؟

- أشكّ في نظافة ذلك الماء المخزون في هذا الشّيء الأسود.

- إنّها قِربة مصنوعة من جلد الماعز وهي وعاء سليم ونظيف يحفظ الماء باردا نستعمله في سفراتنا الطّويلة ونستعمله كذلك لحفظ الموادّ الدّهنيّة في ديارنا.

لاحظ أنطونيو عديد النّسوة ملتحفات بأردية صوفيّة خفيفة تنزل حتّى أخمص أقدام بعضهنّ المحلاّة بخلاخل من فضّة أو من ذهب وقد انتعلن قباقب من خشب تحدث طرطقة في كلّ خطوة كما لاحظ أنّهنّ يحجبن وجوههنّ فلا يرى منها سوى عيونهنّ السّوداء.

- أهؤلاء نساؤكم؟ لماذا يغطّين وجوههنّ ولماذا هنّ سمينات بهذا الشّكل كأنّهنّ حوامل؟

- الرّجال عندنا يخيّرون النّسوة الممتلئات بهذا الشّكل والسّرّ يكمن في كثرة لحمهنّ وشحمهنّ، أمّا لماذا يتحجّبن فتلك عادة أهل الحضر لحفظ النّساء والرّجال من الغواية وسترا لهنّ... آه! انظر ها هو جامع الزّيتونة المعمور... فهو أوّل جامع في حاضرة تونس ومنارة علم.

قاطعه أنطونيو سائلا:

- أهذا هو الجامع الّذي حدّثتني عنه منذ قليل وقلت إنّه ممنوع عليّ دخوله؟

- هو ذاته.

- ولماذا هو ممنوع عليّ دخوله، أليس هو بيت الرّبّ يدخله كلّ الخلق؟

- وهو كذلك، لكنّك على ديانة تشرك بالله سبحانه وتعالى، وبالتّالي فأنت كافر في نظر النّاس هنا.

- كافر هنا، مؤمن هناك، من يصدّق من؟ ومن يوزّع صكوك الإيمان؟ آه يا سي إبراهيم! دعنا أرجوك من أمور تستبطن النّفور.

- طيّب، ها نحن في سوق الفكّة حيث تباع الفواكه الجافّة والتّوابل بمختلف أنواعها، وذاك مدخل سوق العطّارين حيث تباع أصناف من العطور الرّفيعة، سنمرّ منه يوما أمّا الآن فطريقنا إلى باب منارة سنسلكه من هذا الاتّجاه.

- سي إبراهيم أرجوك، أسرع بنا إلى باب المنارة فليس هذا وقت الحديث عن الأسواق وغيرها، فأنا لا أستطيع أن أفهمك، ولا يمكن لي أن أركّز على كلامك وعقلي يسبقني إلى حيث أريد الذّهاب.

- كنت أريد أن أشغل بالك قليلا وأجعلك أكثر هدوءا لكنّي أرى أنّني أخفقت. لنترك يا سيّدي الحديث ونسرع إلى ربط النّصارى.

*****

وصلا إلى ربط باب المنارة حين دقّ ناقوس كنيسة "سان فرانسوا" معلنة بدء صلاة القدّاس فتوقّف سي إبراهيم وأشار إلى ناحية الكنيسة.

- كنت إذن على عجل رغبة منك في أداء صلاة النّصارى، أليس كذلك؟

- لست راغبا في ذلك أبدا، أريد ملاقاة قسّ أو أحد الرّهبان.

- كما تريد، اذهب إذن واسأل عن كيفية الوصول إلى قايد النّصارى أو قايد حرس السّلطان، كن حذرا ولبقا في الكلام، سأنتظرك هنا.

توجّه أنطونيو مسرعا نحو الكنيسة الصّغيرة وقد تذكّر أمّه فجأة فكاد التّأثّر يغلبه لأنّه نسيها وفقد حنانها، فقد جرى وراء حنان من سراب فأوصله إلى الغربة والكربة، وها هو يتذكّرها ساعة التجائه إلى بيت الدّين، فلماذا لم يتذكّرها دامعا حين كان في حالة بؤس؟

تسرّبت من عينيه دمعة أغشت بصره فاصطدم برجل أوقعه أرضا فتعثّر فيه ووقع عليه.

نهض أنطونيو الأوّل وأمسك بيد الرّجل ليساعده على القيام وقد ارتبك كثيرا وراح يعتذر له حتّى أنّه لم يجد كلمات يعبّر بها عن أسفه ممّا حدث، وحزّ في نفسه أن يرى ثياب هذا الشّيخ الوقور قد عفّرت بالتّراب وسقطت عمامته، فالتفت حوله يريد الاستنجاد بسي إبراهيم لكنّه لم يره.

- عفوا سيّدي، كنت أجري وفكري مشغول وقد أردت الدّخول إلى الكنيسة و... و...

أجابه الرّجل باللاّتينيّة:

- العفو... العفو يا ولدي... لا بأس... لا بأس. لكن لماذا لا تصلّي في كنيس الفندق؟

صعق أنطونيو من كلام هذا الرّجل الّذي حدّثه باللّغة الّتي يفهمها، وكذلك من إجابته هذه، فقد حسب أنّه نكرة في هذه الدّيار فإذا به معروف على الأقلّ عند هذا الرّجل الّذي تبدو على ملامحه الفطنة والذّكاء وشيء آخر لم يعرف كنهه.

- هل تعرفني يا سيّدي؟

- رأيتك مرارا في فندق البندقيّين وفي الدّيوانة، ألم ترني أنت من قبل؟

- عفوا سيدي، لا أتذكر.

- لا بأس اذهب الآن إلى صلاتك وانس ما حدث.

انصرف أنطونيو إلى الكنيسة وهو يلتفت من حين لآخر إلى الرّجل الّذي انشغل عنه بنفض كسوته من تراب الطّريق وتسوية عمامته على رأسه.

دخل الكنيسة فسرت في أوصاله برودة المكان وشعر بشيء من الهدوء لكنّه اندهش حين رأى المصلّين يلبسون لباس أهل البلد فظنّ أنّه أخطأ الباب ودخل إلى مكان آخر لو لا صوت القسّ الّذي كان يرتّل ترانيم باللاّتينية فرسم علامة الصّليب وانتحى مكانا في مؤخّرة القاعة.

انتهت الصّلاة بعد فترة بدت لأنطونيو طويلة ورأى المصلّين يغادرون وأكثرهم يتحدّثون بالعربيّة ولم يسمع سوى شذرات من اللّهجة الكتلانية واللاّتينية أو بلهجات أخرى لم يفهمها، ورآهم يضعون على

رؤوسهم قلنسوات مختلفة الأشكال والألوان، وتفرّس في الوجوه فوجدها صارمة نوعا ما ولم يجد في أيّ واحد منها ما يؤنسه ويدفعه لسؤاله، وعندما غادر آخر المصلّين باب الكنيسة رأى القسّ يقترب منه وعلى شفتيه ابتسامة هادئة وطيبة.

- أراك هنا لأوّل مرة يا ولدي، مرحبا بك في بيت الرّب، هل أنت جديد في حيّنا؟

- لا أيّها الأب جئت فعلا لأوّل مرّة ولست من هنا وما قدومي إلاّ لحاجة أريد أن أقضيها على يديك.

- تعال معي إلى فناء الكنيسة، سوف نتحدّث قليلا وأرجو أن يقدرني الرّب على خدمتك.

جلسا في ركن ظلّلته عريشة كبيرة تشابكت أغصانها وأوراقها مع شجرة ياسمين امتدّت وتفرّعت حتّى قاربت السّطح وانبعثت منها رائحة الياسمين الصباحيّة الّتي ملأت المكان، فانشرحت نفس أنطونيو وزال ارتباكه، لذلك مضى يقصّ على القسّ حكايته باقتضاب ثمّ أخبره بعزمه على الانخراط في سلك حرس السّلطان.

استمع رجل الدّين بانتباه إلى هذا الشّابّ دون أن يعترض على كلامه لا بسؤال ولا بملاحظة، بل كان يشجعه على مواصلة الكلام بإشارة إيجابيّة متكرّرة من رأسه ثمّ قال له أخيرا:

- حكايتك يا ولدي ليست غريبة، فلا هي الأولى ولن تكون الأخيرة، وأنصحك ما دام لك شغل محترم بأن تواصل عملك والقيام بما كلفك به صديقك التاجر الفينيسي، أو أن ترحل ما دام قد أعانك وأنجاك من الوقوع في العبودية، أما المرأة التي تجري وراءها فلن تظفر بها أبدا، كما أنصحك بأن لا تعيد هذه الحكاية على مسمع أحد من الحرس السّلطاني وإلاّ فإنّ موتك سيكون أقرب إليك من يدك.

- ألا تستطيع أن تعرّفني بقائد الحرس السّلطاني؟ اطمئنّ أيّها الأب الكريم فلن أخبره بالحقيقة، وسأطلب منه فقط مساعدتي على الانضمام إلى حرسه.

- أعرف القائد معرفة جيّدة وأعرف أنّه رجل حازم وذكيّ، لكنّه اعتنق دين محمّد، وهو من الموالي العلوج الّذين يحظون بمكانة عالية لدى السّلطان، ولا أرى يا ولدي كيف سترمي بنفسك في مأزق لن تخرج منه سالما، أرجوك يابنيّ، فكر مليّا وعد إليّ بعد يومين ربّما أجد لك منفذا.

خرج أنطونيو من الكنيسة وقد قرّر ألاّ يعود إلى هذا القسّ وأن يبحث عن طريقة أخرى توصله إلى غايته، ومن كثرة انشغال فكره نسي أن سي إبراهيم بن مخلوف مازال واقفا في انتظاره في ظلّ شجرة قرب مدخل باب المنارة، وكاد يتوجّه عائدا إلى باب البحر لولا تداركه بسرعة حين حانت منه التفاتة عفويّة ناحية المكان الّذي وقف به صديقة فتوجّه إليه.

- أرى على وجهك علامات الخيبة، ألم تساعدك صلاتك على الوصول إلى هدفك؟

- لا تسخر منّي يا سي إبراهيم، فكلّما ازددت يوما هنا ازداد معه يأسي وضياعي، فقد رفض ذلك القسّ الخرِف مساعدتي وصرفني بشيء من المواساة كأنّي طفل أضاع لعبته.

ضحك سي إبراهيم ضحكة عالية ثمّ طبطب على كتف أنطونيو وقال له:

- لقد أضعت قبل دخولك إلى الكنيسة فرصة ثمينة للوصول إلى ماريا...

- كيف... كيف يا سي إبراهيم؟

- ذلك الرّجل الأنيق الملبس الّذي أوقعته أرضا باندفاعك ثمّ اعتذرت له وساعدته على القيام.

أراليبراري

- نعم... ما به؟ ومن هو، قل أرجوك.

- إنّه السّيد عبد الله التّرجمان[1].

- عبد الله التّرجمان؟ من يكون هذا؟

- القائد عبد الله التّرجمان وما أدراك، إنّه صاحب الدّيوانة ومترجم السّلطان وقد أسلم على يدي أبي العباس أحمد والد سلطاننا الحالي أبو فارس.

- إذن هو غريب عن دياركم مثلي أنا تماما.

- نعم، فهو أصيل جزيرة مايوركة الإسبانيّة، يجب أن تتعرّف عليه وستجد فيه الصّديق والمؤنس وربّما يدلّك على طريق إلى حلّ مشكلتك، ويمكن أيضا أن تعرف قصّته منه شخصيا... المهم دعك من هؤلاء النّصارى، فهم لن يساعدونك لأنّك لست من مذهبهم، فكّر مليّا يا صديقي، واعتمد على نفسك لرسم مستقبلك بدون ماريا.

- أريد أن أرى القصر الّذي تقيم فيه ماريا.

- من الخارج فقط... إنّه على مرمى حجر من هنا... تعال معي...

- نسيت أن أسألك ما حكاية نصارى هذا الحيّ، ولماذا يلبسون كما تلبسون أنتم؟ فقد استغربت من ذلك ولم أجرؤ على سؤال أحدهم.

- ربض باب منارة، ونقول عنه بلهجتنا ربط، فهو أرقى حيّ في المدينة، إذ يضمّ ديار الأعيان وكبار رجال الدّولة منذ نشأتها الأولى زمن الخرسانيّين الّذين شيّدوا قصرا مازال قائما إلى اليوم وهو ذاك البناء العالي قبالة الجامع وباب المنارة، وكان مركز حكمهم قبل أن يتولّى البلاد بنو حفص وينشؤون قصر القصبة وينتقلون إليه.

---

[1] أنسَالم تورميدا أو عبد الله التّرجمان: قبره موجود إلى اليوم ويقع في نهاية سوق السّرّاجين من جهة باب المنارة وقد تمّت إعادة بناء الضّريح وترميمه من طرف الدّولة الإسبانيّة في الأعوام الأخيرة من القرن الماضي.

- وهل ذاك القصر تابع للسّلطان؟

- طبعا، لكنّه تحوّل إلى دار للضّيافة. أمّا ربط النّصارى فهو ذاك الواقع خارج السّور، وهو حيّ يعجّ بالسّكّان وتخترقه عدّة دروب ضيّقة، وفي طرف كلّ درب باب يفتح بالنّهار ويغلق باللّيل ويفضي إلى دور تسكنها طبعا عائلات من النّصارى أغلب رجالها من حرس السّلطان، والبقيّة يخدمون خدمات يستنكف من القيام بها أهل البلاد، ويعود أوّل انتصابهم هنا إلى ملوك الدّولة الموحّدية الّذين كانوا يستخدمونهم بكثرة ويؤثرونهم على غيرهم بسبب براعتهم في فنون القتال، ويصطحبونهم في غزواتهم وتنقّلاتهم لتأمين سلامتهم وبقوا على هذه الحظوة حتّى لدى سلاطين بني حفص الّذين حافظوا على أصول هؤلاء النّصارى وعلى أعقابهم حتّى أصبحوا يتكلّمون لغة البلاد، ولا غرابة في ذلك، لأنّهم ولدوا وترعرعوا هنا، لذلك تراهم يلبسون لباس أهلنا ويعملون بعاداتهم ولا يفرّق بينهم سوى الدّين والقلنسوة الّتي يضعونها على رؤوسهم عوض العمامة، وكما رأيت فكنيستهم أحسن كنيسة في الحاضرة، يقام فيها القدّاس يوميّا وباللّغة اللاّتينية رغم أنّ هؤلاء لا يفقهون سوى العربيّة، لذلك يكتفون بترديد ما حفظوه من ترانيم دينيّة باللاّتينية دون أن يفهموها، وكنيستهم تتفوّق على الكنائس الأخرى الموجودة خارج سور المدينة بجمالها وأناقة نقوشها وتماثيلها وكثرة نواقيسها ممّا يدلّك مرّة أخرى على المكانة الّتي يحظون بها عند السّلطان، إلى جانب عدّة امتيازات أخرى ظاهرة وخفيّة.

- آه، لا بدّ إذن يا سي إبراهيم أن أختلط بهم وأن أنضمّ لسلك حرس السّلطان.

- لا يمكن، ولن تقدر على ذلك، فأنت غريب وحديث العهد بالبلاد، وشكلك يوحي بأنّك جاسوس و...

- أنا يا سي إبراهيم جاسوس؟ سامحك الرّب.

- لا تنفعل هكذا، أنا أعرفك وأثق بك، لكن هؤلاء لا يقبلون بالغريب أبدا، فهم الحرس الخاصّ بالسّلطان، ورثوا المهمّة أبا عن جدّ، وهم وحدهم الّذين يحيطون به دون سواهم، وهم يقومون بتأمين سلامته وأمنه عند خروجه إلى الحرب، أو حتّى حين يخرج إلى النّزهة، لذلك لا يستطيع أحد من أهل البلد أن يمسّهم بسوء أو حتّى يوجّه لهم كلمة نابية، أمّا هم فيستطيعون أكثر من ذلك دون أن ينالهم عقاب أو حتّى لوم، أمّا نساؤهم فكما رأيت بعضهنّ اليوم، فهنّ يلبسن كما تلبس المرأة عندنا، وهنّ على حظوة عند السّلطان، فهو يستدعيهنّ لحضور حفلاته وولائمه الّتي يقيمها بمناسبة أعراس أبنائه ورجال دولته، أو بمناسبة ولادة مولود جديد أو ختان أحد صغاره.

انشغل سي إبراهيم برهة عن مواصلة الكلام حين خرجا من باب المنارة في اتّجاه القصبة، فقد كان يستوقفه من حين لآخر أحد معارفه لتبادل تحيّة مطوّلة أو للسّؤال عن الحال، ولمّا اقتربا من هضبة تعلوها قلعة شامخة قال أنطونيو:

- كلّ هذا يا سي إبراهيم وتقول لي إنّي لن أستطيع الدّخول إلى قصر السّلطان والعمل ضمن حرّاسه؟

- أوه يا أنطونيو، هل كنت تسمعني أو أنّك كنت شارد الذّهن كالعادة؟ ألا تدرك أنّ الفرق بينك وبينهم هو أنّك تريد دخول قصر السّلطان بنيّة البحث عن إحدى جواريه، وربّما اختطافها، لا لحراسة السّلطان وتأمين راحته، أليس كذلك؟ ... آه!... ها نحن قبالة باب القصبة من ناحية المدينة ويسمى "باب ينتجي".

- ينتجي؟

- إنّها كلمة أصلها بربريّ وتعني باب الدّار، انظر، هل رأيت حرّاس الباب؟ إنّهم أشدّاء ولا يستطيع أحد أن يمرّ إلى الدّاخل دون أن يكون من أهل القصر، أو يحمل تصريحا خاصّا، وهذا الباب يفضي إلى ساحة القصر، كما يؤدّي إلى سجن القصبة بواسطة رواق طويل ومظلم، أرجو أن لا يقودك إليه تنطعك ذات يوم وتبقى هناك طول العمر.

- أهذا قصر يا سي إبراهيم؟ هذه قلعة ولن ترتقي أبدا إلى عظمة قصر "الدّوج" بفينيسيا.

- أوه يا أنطونيون قلت لك مرارا دع عنك المقارنة فلا مجال لذلك أبدا، فنحن من ضفّة وأنتم من أخرى، هيّا بنا الآن.

لم يردّ الشّابّ على ملاحظة صديقه، فقد توقّف عن السّير وبقي ينظر إلى حصن القلعة الشّامخ ويقيس مدى مناعته، ولمّا تفطّن سي إبراهيم إلى ما يجول بخاطره جذبه من ذراعه خوفا من أن ينهرهما أحد حرّاس القصر، لكنّ أنطونيو تنطّع ولم يتحرّك من مكانه وقال:

- سي إبراهيم... اذهب أنت، أظنّ أنّ وراءك شغل، سوف أقوم بدورة حول السّور فإذا وجدت كيف أدخل القصر...

صاح سي إبراهيم بحنق في وجه أنطونيو وأراد أن يثنيه عن عزمه:

- مجنون والله مجنون... تعال هنا...

- إنّي أمزح يا سي إبراهيم... دعني فقط أتشمّم رائحة الحبيبة المخطوفة.

لم يترك أنطونيو فرصة لصديقه لكي يمسك به ويردّه على أعقابه، فقد انفلت منه وأسرع نحو قصر القصبة وهو يقول له:

- لا عليك، سوف نلتقي عشيّة اليوم، وكالعادة على ضفاف البحيرة.

*****

مرّت الأيّام على ريم وعلى وليّ العهد محمّد المنصور وهما ينهلان من معين الحبّ الّذي شغلهما وأشعل قلوب الجواري غيرة من ريم الّتي امتنعت عن الخروج إلي حدائق قصر القصبة واكتفت بالبقاء في جناحها الّذي خصّص لها، مستأنسة بأربع جَوارٍ ممّن تثق بهنّ ومن بينهنّ ريحانة الّتي كانت بمثابة مخبرة تمدّها يوميّا بما يقع في القصر من أحداث عامّة وخاصّة، وكانت ريحانة في الحقيقة تطمع في حظوة من الأمير ليشرفها بخلوة حتّى لليلة واحدة، لكنّها كانت تراه غاضّا عنها البصر لا يرى إلاّ ريم ولا يبتسم إلاّ لها وكأنّ الدّنيا انغلقت كلّها دونه وانحصرت في عيني ريم.

تاقت نفس ريم لفسحة خارج قصر القصبة، فرغم شعورها بالسّعادة فإنّ القصر بدا لها ضيّقا، ليست فيه حركيّة المدينة وأسواقها الّتي يصلها أحيانا ضجيجها، فقد حكوا لها أنّ الحياة خارج القصر تعجّ بالألوان وبالحركة وبالنّاس، وهي تختلف كثيرا عن هدوء أهل القصر وصرامتهم، فسألت ذات ليلة الأمير قائلة:

- مولاي، لماذا لا نخرج إلى حدائق رأس الطابية؟ أشعر أنّي محبوسة في هذا القصر الكبير.

- سنخرج يا حبيبتي بعد الغد، لقد أمرت بإعداد العدّة للانتقال إلى قصر رأس الطّابية لقضاء بضعة أيّام، إنّه مكان جميل ورائع جدّا، وسوف تسيرين على الأقدام من القصبة إلى رأس الطّابية وبذلك يذهب عنك قلقك.

- مستعدّة أن أسير يوما كاملا على القدمين، فقد كدت أنسى المشي وأشعر بأنّي سأثقل قريبا بشحمي ولحمي.

كان نسيم الصّباح الصّيفيّ يتمسّح برقّة على وجوه الجواري وهنّ يغادرن قصر القصبة، وكانت ريم فرحة بهذه الفسحة الّتي ستمكّنها

على الأقل من مشاهدة أهل البلد وكيف هم، فقد حدّثوها عن نساء تونس من الحضر وعن ديارهن المغلقة، وعن الدّروب الّتي تعيش كلّ يوم حكايات الحياة، وعن التّقاليد الموغلة في القدم، وعن طقوس الأفراح والأتراح، وحتّى عن طقوس الأحزان، فأحبّت ناس هذه البلاد وتاقت نفسها للاختلاط بهم ولو مرّة واحدة، لذلك همست لريحانة وهما تستعدّان للخروج إلى جنان رأس الطّابية:

- ... لن أسألك عما سأرى، سأتركك تحكين لي عن كلّ ما سنراه، أو عمّا سيعترضنا في الطّريق.

ضحكت ريحانة لجهل صديقتها بالواقع وقالت:

- طريق؟ ... إنّها خالية تماما من كلّ إنسيّ. اعذريني يا ريم، فقد نسيت أن أخبرك بأنّنا لن نسلك طريقا تؤدّي إلى المدينة أو إلى حيث تريدين مشاهدة النّاس، لا... لا... سنسلك طريقا خاصّة بالنّساء، من القصبة إلى رأس الطّابية، وها نحن قد دخلنا في بدايتها، سوف نتبع ذلك الجمع من الجواري والخدم، هيّا ولا تقفي هكذا متردّدة.

- ماذا؟ طريق خاصّة بالنّساء؟ يعني لا ناس فيها ولا حركة ولا أسواق؟ ما هذا؟

- هذه يا عزيزتي طريق تؤدّي رأسا إلى رأس الطّابية، وقد أحدثها ثاني سلاطين بني حفص، وهي محصورة بين جدارين عاليين بداية من القصبة إلى رأس الطّابية حتّى يتمكّن حريمه من المرور إلى المنتزه دون أن يراهن أحد من العامّة، وهكذا تستطيع المرأة أن تسير على مهلها سافرة وبكامل زينتها دون أن تقع عليها عين غريب.

- هذه قمّة في العبودية، نحن خرجنا للتفسّح ولنرى النّاس، لا لنسير بين جدارين، ما أغرب فعل رجال هذا البلد، حتّى الطّريق منغلقة على النّسوة بجدارين؟

- لا عليك سوف تستمتعين بمنظر الجنان والحدائق الموجودة برأس الطّابية، وسوف تنسين حتّى وجود البشر، ثمّ إنّ الأيّام أمامنا يا ريم وسوف أرتّب لك زيارة إلى مدينة تونس وأسواقها رغم صعوبة ذلك، إن لم أقل استحالته.

- لماذا؟

- لأنّ حريم السّلطان لا يخرجن أبدا من القصر، ولا يختلطن بنساء العامّة، لأنّ الفساد يحصل لنساء الخاصّة إذا ما اختلطن بنساء العامّة، هكذا قالت لي إحدى عجائز القصر.

- لا... هذا كثير...

- ها قد وصلنا إلى باب أبي سعدون استنشقي هذه الرّوائح الزّكيّة، إنّها آتية من الحدائق ومن المروج الّتي تمتدّ حتّى أطراف أجنّة منّوبة.

- ما هذه البناية المستطيلة الّتي أراها؟

- إنّها الحنايا... حنايا زغوان الرّومانيّة، فهي الّتي يجلب عليها الماء العذب من زغوان إلى المدينة وإلى جنان رأس الطّابية وجنان أبي فهر القريبة من قرية صغيرة تسمّى أريانة.

شعرت ريم وهي تسير في ذلك الممشى الأنيق بأنّ المكان يعبق فعلا بروائح شذيّة تُحيي النّفوس وتجعل في القلوب ذلك الشّعور الخفيّ الّذي يغمر الكيان بالسّعادة ويدفع الإنسان إلى الإقبال على الحياة ونسيان الهموم، وكان هذا الشّعور يتماهى مع شعورها بعظمة حاضرها بعد طيّ صفحة ماضيها.

بعد مسيرة متأنّية لاحت لريم بناية عالية بثلاثة طوابق تبدو ضخمة وجميلة.

- ما هذه البناية يا ريحانة؟

- هذا قصر رأس الطّابية، سوف ترين عظمته من الدّاخل، وهذا مدخل حدائقه الّتي يضيع فيها المرء بمفرده، إنّها جنّة على وجه الأرض.

وقفت ريم مشدوهة وقارنت بنظرة خاطفة بين ما شاهدته من فخامة دور البندقيّة وقصورها، وبين هذه البناية المتواضعة رغم ضخامتها، فرأت أنّ المقارنة لا تستقيم أبدا، فشتّان بين روح الشّرق وروح الغرب، ففي هذا المكان روح حيّة ترفرف بجناحيها وتدعو إلى الفرح وإلى الدّخول لاكتشاف العظمة الحقيقيّة.

ما إن دخلت ورأت ما كان خافيا عنها حتّى أطلقت آهة إعجاب:

- ريحانة... ما أضخم هذا القصر وما أجمل زخارفه! لماذا لا يقيم فيه السّلطان باستمرار، إنّه أحسن من قصر القصبة؟

- هذا القصر مجعول للنّزهة وللاستراحة، والقصبة مجعولة للسّكنى وللحكم وهي تجمع دواوين الدّولة وسكنى الأمراء والوزراء، تعالي معي إلى الحديقة الكبيرة الّتي تقع من الجهة الشّرقيّة للقصر، سوف ترين ما يسرّ العين.

اتّجهتا إلى حيث أشارت ريحانة وقد سلكتا ممشى ظلّلته أشجار باسقة، وزينت جنباته بأنواع عديدة من الورود المختلفة الألوان والأشكال فعبق المكان بروائحها الشّذيّة، وبعد مسيرة قصيرة أفضى بهما المطاف إلى مكان واسع الأرجاء وقد أحيط هو الآخر بأشجار مشذّبة قصيرة تلاصقت أوراقها وتداخلت أغصانها فشكّلت سياجا أخضر واسع الأرجاء يحضن بركة كبيرة ممتدّة الجوانب كأنّها بحيرة.

- ما هذا يا ريحانة؟

- هذه تسمى "المُحَنّشَة" وهي بركة كبيرة جدّا كما ترين، كأنّها بحيرة، تعالي نقترب منها، انظري إلى الماء كيف ينساب على شكل ثعبان، أو الحَنَشْ كما يسمّونه في تونس، لذلك يسمّون هذه البركة المنحنّشة، تأنيثا لحنش، هذه البركة مصنوعة من الرّخام ولها فتحات أرضية يخرج منها الماء ثمّ ينساب متّبعا شكل ثعبان طويل وينزل في تجاويف محدثا

بذلك خريرا متواصلا ثمّ يواصل سيره إلى أن ينتهي إلى تلك البركة الدّائريّة المنقوشة ثمّ يعود إلى التّداخل في وسطها كأنّه حية تنساب هاربة، ثمّ يعود ويتداخل وينعكس على بعضه حتّى يخرج من مسارب أخرى ويعود من حيث نبع.

- عجيب ورائع... لا أستطيع أن أنقل بصري عن تتبّع سريان هذا الماء النّقيّ بين النّقوش الدّقيقة والعجيبة الأشكال، أستطيع أن أبقى هنا العمر كلّه أنظر إلى هذا العجب العجاب وأستمع إلى خرير المياه وأشتمّ هذه الرّوائح الّتي تشعرني بأنّي أحلّق في أجواء ملائكيّة، ترى من صنع هذا؟

- صنّاع أندلسيّون كان جلبهم إلى تونس ثاني سلاطين بني حفص ولحق بهم آخرون من عظماء الحرفيّين وآثارهم بيّنة في قصر القصبة وفي جنان رأس الطّابية وفي جنان أبي فهر، وحتّى في ديار وجهاء المدينة.

التفتت ريم على وقع حركة خفيفة فرأت الأمير يقف وراءهما وقد فوجئت بوجوده في قصر رأس الطّابية، وكان قد أخبرها من قبل أنّه سوف يلحق بها بعد يومين بسبب انشغاله مع السّلطان في أمر يستوجب بقاءه بالقصبة.

- خير يا مولاي... ما الّذي عجّل قدومك إلى هنا؟

- خير... خير... انصرفي أنت يا ريحانة.

انحنت الجارية تحيّة للأمير ثمّ انصرفت في اتّجاه القصر وقد امتلكها أسف عميق وشعرت بانقباض يلف كيانها وبارتباك لم تعهده من قبل، وطردت من خاطرها هاجسا راودها بإلحاح وتساءلت:

- هل أكنّ لمولاي حبّا؟ لا... لا يمكن، لكن لماذا لم أحبّه من قبل؟ ولماذا أحبّه اليوم؟ ربّما تكوني يا ريحانة وقعت في حبّه لأنّك أصبحت ترينه كلّ يوم وتسمعينه وهو يتكلّم وتقرئين على وجهه علامات السّعادة

والحبّ. لكن ها أنّ ريم تأسره ولا تترك له مجالا للاختيار أو حتّى للتّغيير... لكن لا بأس سوف أتحيّن الفرص ولا بدّ لي من منفذ إلى قلب الأمير.

دخلت إلى جناح الحريم واتّخذت لنفسها مكانا أمام نافذة تطلّ على الحديقة الكبيرة وراحت ترقب الأمير وجاريته.

أحسّت ريم بأنّ الأمير منشغل بأمر، فهو متردّد بين البوح وبين الصّمت، بين المشي وبين التّوقّف، ثمّ انتقل فجأة إلى حكاية فمضى يحكي عن ذكرياته وعن مشاركته في الحروب إلى جانب والده، وعن تاريخ آبائه وأجداده، وعن مشاريعه في المستقبل ثمّ صمت قليلا وبقي يتمشّى، حينها أدركت ريم أنّه يريد قول شيء فدفعها فضولها إلى معرفة ما يجول حقيقة بخاطر الأمير فسألته:

- مولاي، كنت أستمع إليك بكلّ انتباه، لكنّي شعرت بأنّك كنت تتوقّف عن الكلام برهة ثمّ تنطلق نحو موضوع آخر لا صلة له بالأوّل، فما الّذي يشغل بال مولاي؟

- لا شيء... لا شيء.

- أرى أنّي لم أبلغ بعد المكانة الّتي تؤهّلني لأن أكون مستودع أسرار مولاي.

- ليس هذا يا ريم، بل شغل بالي فعلا شاغل أقلقني.

- وهل شغلك عنّي؟

- أبدا... لم يشغلني عنك لأنّه وبكلّ بساطة يتعلّق بك.

توقّفت ريم عن السّير وقد انقبض قلبها قليلا حين قرأت على وجه الأمير علامات الجدّ، فسألته بلهفة:

- مولاي أموت ولا أراك هكذا... أخبرني ما الأمر؟

- قبض الحرّاس اللّيلة البارحة على نصرانيّ كان يحاول تسلّق سور قصر القصبة من النّاحية المطلّة على السيجومي، ولما سألوه عن مراده وعن سبب مخاطرته تلك... أجابهم أنّه يريد رؤية... ماريا.

كاد يغمى على ريم وهي تستمع إلى الأمير الّذي قصّ عليها خبر إلقاء القبض على أنطونيو وهمست بغيظ:

- المجنون... المجنون... كيف وصل إلى هناك؟ وكيف عرف أنّي في القصبة؟

جلست على حافة الخصّة كأنّها تتخلّص من ثقل ثمّ راحت تنظر إلى الماء المترقرق وقد مرّ في خيالها شريط ذكرياتها في البندقيّة، ثمّ رفعت رأسها إلى الأمير الّذي بقي واقفا:

- مولاي... أنت لم تسألني عن ماضيّ البعيد أو القريب، وكنت سألتني فقط كيف وصلت إلى بلدك وأجبتك بكلّ صدق وبدون خلفيّات، ولم أر ضرورة لسرد حكاية هذا الشّابّ الّذي احتال عليّ وعلى عمّي ذات يوم وادّعى أنّه تاجر كبير جاب أطراف الدّنيا وما زال يجوبها، ولم يستقرّ له قرار في أيّة مدينة، وقد تمكّن بحيلة من دخول قصر عمّي وإيهامه أنّه بإمكانه مشاركته في تجارته، وكان قصده الوحيد هو أنا... ولم أطاوعه ولم أتحدّث معه رأسا أبدا، بل شعرت بالنّفور منه من أوّل وهلة، حتّى أنّي لم أكمل طعام الغداء في حضوره وادّعيت وقتها أنّي على غير ما يرام وأنّي أشعر بصداع، وقد استأذن من عمّي المغادرة بعدما شعر أنّي غير مطمئنّة له، وقد صارحت عمّي بأمره ورغبت منه عدم إرغامي على مصاحبته في الغد إلى حفل الكرنفال... وفعلا لم يأت، أو أظنّ أنّه أتى وتبعنا ولم أره إطلاقا إلاّ عندما وصلنا إلى بلدكم في سفينة القراصنة، فكيف يا مولاي يمكن أن أحبّ هذا الشّخص أو أن تكون لي معه علاقة ونحن لم نجلس إلى بعض حتّى

ساعة واحدة، ولم نختلِ ولو لدقيقة واحدة، وإنّي أتساءل الآن كيف وصل إلى القصبة وقد تركته مرميًا في قاع سفينة القراصنة عقابا له على تجاسره والنّطق باسمي، وأنا أتساءل بحيرة، من أين استمد كلّ هذه الشّجاعة، أو بالأحرى كلّ هذه الغباوة للإلقاء بنفسه إلى التّهلكة؟

- ربّما يكون جاسوسا؟

- لا، لا أظنّ يا مولاي، لا... لا يمكن... أقول ربّما أحبّني.. لكن إلى هذا الحدّ؟ هذا ممكن، أما أن يكون جاسوسا... فلا.

- إذن لم تعرفي هذا الشّخص معرفة جيّدة ولم تتعلّقي به من قبل؟

- أبدا وحقّ الرّبّ، لم أتعلّق في حياتي بأيّ رجل، ولم يفتح قلبي لحبّ إلاّ لواحد فقط... هو أنت يا مولاي... أقول مولاي... لأنّها كلمة ترنّ في أذني وتلامس أوتار قلبي ويبقى صداها يتردّد في كياني... أحبّك يا مولاي... وما بعدك حبّ.

ابتسم لها الأمير ثمّ اقترب منها وجلس بجانبها وضمّها برفق ثمّ همس:

- أصدّقك بقلبي وبحواسّي وهذا يكفيني، وكنت صدّقتك مذ رأيتك أوّل مرّة، لذلك انشغلت كثيرا عندما علمت بوجود هذا النّصرانيّ الّذي تجاسر وتبعك حتّى قصر السّلطان دون خوف أو وجل، وما ذاك إلاّ بدافع حبّ جارف، وأظنّ أنّي لن أستطيع الوصول إلى قمّة حبّه لك... لذلك أشعر نحوه بالإشفاق وأقدّر عذابه وتيهه... ويا ويل من يقع في حبّك ولا يجد الصّدى عندك، لهذا، ولعدّة اعتبارات أخرى، أشعر بسعادة عميقة وأنا أحتضنك وأمتلكك وأتحسّس حبّك لي في كلّ خلجة من خلجات صدرك.

- أموت يا مولاي يوم يتحوّل قلبي عنك، وتعمى عينيّ يوم أراك متألّما منّي وبسببي.

بقيا برهة يتناجيان ثمّ قاما واتّجها نحو ممشى ظليل بعيدا عن عيون الخدم والجواري وجلسا على مقعد تحت شجرة كبيرة نزلت خمائلها إلى الأرض فلاحت كأنّها ستائر خضراء مسدولة، ودخلا تحتها كما يدخلان مخدعا.

قضيا هناك ساعة إمتاع وخرجا سابحين في سعادة لا حدود لها واتّجها نحو القصر لتناول فطور الغداء.

- مولاي... ماذا ستفعل بذلك المسكين؟

- ماذا ترين أنت؟ ... سأترك لك الاختيار لتحكمي عليه أو له.

- دعه يا مولاي... دعه أرجوك، فقد تعذّب كثيرا على ما أظنّ وما وصوله إلى قصر السّلطان إلاّ بدافع أعتى من إرادته... فلا تزد في عذاباته، ردّ له حرّيته فليست لديّ حيلة أخرى لأخفّف عنه آلامه سوى التماس العفو عنه. وأنت الأقدر سيّدي ومولاي على العفو عنه باعتبار حاله، فهل ترفض لي هذا الطّلب الأوّل يا مولاي؟

- وهل يرفض القلب خفقة لحياته يا... مولاتي؟

*****

مضت ثلاثة أيّام على أنطونيو وهو يعيش في ظلام دامس وفي رطوبة قاتلة في ركن منسيّ من سجن قصر القصبة، لا رفيق يؤنسه ولا صوت بشر يذكّره بأنّه ما زال يعيش في عالم الأحياء سوى وقع أقدام حارسه الّذي كان يدفع له بطعامه الشّحيح مرّة واحدة في اليوم، فقد مضى يجترّ وقائع القبض عليه وسجنه وضربه من طرف الحرّاس، فكانت هذه الحادثة سببا في عودة الوعي إليه، وفرصة لمراجعة الأسباب الّتي دفعته لهذا التّهوّر الّذي يتحمّل اليوم وبمفرده عذابه المرّ، وأيقن أنّ نهايته ستكون في هذا المكان العفن، وأنّ أمله في رؤية حبيبة القلب قد قبر إلى الأبد، ومن شدّة انشغاله بفكرة العقاب الّذي ينتظره، أسقط

من ذهنه التّخمين في إمكانيّة حدوث معجزة تنقذه من الورطة الّتي أوقع نفسه فيها، وتذكّر مرارا صديقه سي إبراهيم بن مخلوف وتساءل وهو يسخر من نفسه:

- هذه هي الوحدة المقيتة، فلا رب ولا مسيح ولا مريم ولا شياطين يقفون إلى جانبك حين تغدر بك الدّنيا؟ ترى هل يستطيع سي إبراهيم أن يفعل شيئا لبائس غريب مثلي؟ لكن ماذا سيفعل وقد سخرت منه ومن نصائحه وتركته يناديني ويترجّاني الكفّ عن الجري وراء المستحيل؟ أعدك يا سي إبراهيم أن أتوب إذا ما خرجت من هذا القبر، أعدك يا سي إبراهيم أن أنسى من كانت السّبب في شقائي... لكن ماذا فعلت المسكينة؟ فهي لم تطلب منّي الجري وراءها، ولم تطلب منّي الكفّ عن حبّها، ولم تطلب منّي رمي نفسي إلى المجهول، لكن كيف أنساها؟ كيف؟ ... كيف؟

لم يتوقّف طوال أيّام حبسه عن اجترار تساؤلاته وذكرياته إلاّ بعدما يأخذه النّعاس وينهكه الجوع واليأس فينام ساعات واضعا رأسه بين ركبتيه أو ينقلب على جنبيه بعدما يتقلّب طويلا، إلى أن انتزعه من نومه في صباح اليوم الرّابع صوت مفتاح ثقيل يولج في قفل الباب محدثا قرقعة مخيفة فهبّ واقفا فارتطم رأسه بسقف السّجن الضّيق فسقط في موضعه، ثمّ رأى نورا خافتا يتسلّل من الباب الّذي فتح بقوّة وسمع صوتا مزلزلا:

- اقترب أيّها الكافر النّتن.

أراد أن يقف فخانته قواه فاضطرّ إلى المشي على أربع حتّى وصل إلى عتبة السّجن فسمع قولا:

- من يتجاسر على تسلّق المخاطر ليتّبع هواه عليه أن يتسلّح بالقوّة وبالشّجاعة، وأرى يا هذا أنّك جبان... وهزيل، لكنّك محظوظ... هيّا...

قم، فقد عفا عنك مولانا... آه! لو كانت السّلطة بيدي لضربتك حتّى الموت هيّا اخرج.

لم يصدّق أنطونيو ما سمعه وظنّ أنّ الحارس يتشفّى فيه ويداعبه مداعبة ثقيلة، وأنّه جاء ليأخذه إلى مصيره المحتوم فصاح بأعلى صوته:

- لا أريد أن أموت... لا أريد أن أموت... الرّحمة، إنّي بريء... بريء... اسألوا سي إبراهيم... إسـ...

- اسكت يا غبيّ واخرج قبل أن ينفذ صبري.

خرج من السّجن وهو يتعثّر ويلتفت إلى الحارس الّذي كان وراءه يهشّه بعصا ويشير له بها إشارات قبيحة، فجرى في سرداب مظلم طويل جعل خوفه يتضاعف لاعتقاده أنّه سيساق غدرا إلى موت محقّق، لكن لاحت له في الآخر بهرة أعادت إليه الأمل في الخلاص فضاعف من جريه حتّى وصل إلى فضاء واسع فأعشى الضّوء بصره ولفحت وجهه حرارة شمس الظّهيرة، وعندها أيقن أنّه حرّ طليق فقفز نحو باب الخروج فاعترضه بعض الحرّاس وأمسكوا به ثمّ دفعوه حتّى أوقعوه أرضا وتداولوا على البصق عليه ثمّ مضوا في ركله على مؤخّرته وهم يسخرون منه ويتلمّسونه بحركات قبيحة ويصيحون في وجهه: علج... علج... وبصعوبة شديدة تحامل على نفسه وانفلت منهم وهو يترنّح حتّى وصل إلى سقيفة باب ينتجمي وخرج.

جرى جريا كأنّه هارب من الموت حتّى وصل إلى مدخل باب المنارة واتّجه إلى سبيل به حوض ينزل فيه ماء من "مَصّاصَة" جعلت خصّيصا لشرب للعامّة ولأبناء السّبيل ووضع فمه تحتها ونهل منها حتّى ارتوى ثمّ غمس رأسه في حوض الماء وبقي برهة يتلذّذ البرودة ومتعتها وعندما رفع رأسه نظر إلى السّماء وابتسم بسخرية قائلا:

- وأخيرا أنجدتموني يا...

اتّجه نحو الأسواق بكلّ تثاقل، سالكا طريق العودة إلى الفندق، وقد أحسّ بسكينة لا طعم لها، كأنّها قشرة عقيمة لا تحمل ثمرة.

نام بقيّة اليوم وكامل اللّيل نوما عميقا لم ينمه منذ أشهر، وفي صباح الغد نهض باكرا وفي نيّته البحث عن صديقه سي إبراهيم، ولمّا خرج إلى ساحة الفندق رأى حركة غير عادية وجمعا كبيرا من الفرنجة متجمّعين في السّاحة يتحدّثون فاقترب من أحدهم سائلا:

- ماذا حدث... لماذا هذا التّجمّع؟

- ألا تعلم؟ سيغادر السّنيور القنصل "إيتيان كونتاريني " تونس نهائيّا وقد جاء هؤلاء لتوديعه.

- لماذا؟ وأنا... كيف سـ...

أشح عنه الرّجل بوجهه ثمّ انصرف بعدما نفضه بنظرة ازدراء.

شعر أنطونيو بشيء من الحزن يلفّه لأنّه أحبّ القنصل رغم أنّه لم يجالسه سوى مرتين، وكان يعتقد في قرارة نفسه أنّ للقنصل سلطة يمكن أن يحتمي بها ذات يوم، لكن ها أنّ الأقدار تعرّيه اليوم من كلّ حماية وتزيد في تعميق غربته في هذا البلد.

انتظر ساعة أخرى حتّى قدم القنصل فاندمج وسط الحاضرين للمشاركة في توديع الرّجل ومصافحته، ولمّا وصل أمامه انحنى احتراما له وصافحه مصافحة حارّة فقال له القنصل مداعبا:

- ألم تحن إلى الوطن يا سنيور أنطونيو؟

- حنيني يا سيّدي القنصل إلى وطن القلب غلب حنيني إلى وطن الأرض.

- ماذا تقصد؟ هل عشقت تونسيّة؟

لم يجب أنطونيو واكتفى بانحناءة ثانية للقنصل الّذي انشغل عنه بتقبّل تحيّة مودّع آخر.

كان اللّقاء حارًا بين أنطونيو وصديقه سي إبراهيم بن مخلوف. وكان سي إبراهيم على موعد قبل الظّهر في بطحاء باب البحر مع تاجر. فلاحظ صدفة صديقه الشّابّ وهو يتسكّع وقد ظهرت على وجهه علامات الضّياع المطلق.

- لا تتصوّر يا أنطونيو كم كانت سعادتي عظيمة حين رأيتك ولم أكن أنتظر أن أراك بعد افتراقنا على ذلك الشّكل... لكن... أخبرني كيف خرجت بهذه السّهولة من سجن القصبة؟ وماذا وقع لك طوال الأيّام الماضية؟

- آه!... آه يا سي إبراهيم!... لا يمكن أن تصدّقني لو قلت لك إنّي استطعت تحمّل الخطف والسّجن والأغلال في قاع سفينة القراصنة، لكن لم أقدر على تحمّل سجن القصبة ساعة واحدة... فما بالك بثلاثة أيّام بحالها... آه... ثلاثة أيّام عشت فيها الرّعب يا سي إبراهيم، وذقت مرارة السّجن الضّيّق ووحدة مقيتة زادتني غربة وأعادت إليّ الوعي فراجعت نفسي مرارا، وذهبت مذاهب عدّة، وطوّحت بي أفكاري السّوداء والبيضاء أشواطا في التّصوّر والخيال والتّمنّي والوعد. لقد وعدت نفسي يا سي إبراهيم أنّه إذا ما قدّر لي الخروج يوما من سجني المرعب فسوف أتوب عن الحبّ... لكنّي فشلت... فشلت في طرد خيال ماريا من ذهني ومن قلبي واكتشفت أنّي عوض أن أبرأ من حبّها أصبت بسقم أشدّ وأمرّ، لقد كان ذلك السّجن سببا في تمتين حبّي لها... فماذا أفعل يا سي إبراهيم؟ ماذا أفعل وإلى أين المصير؟ هل من دواء لكي أنسى هذا الحبّ؟

- أخبرني قبل أن أدلّك على الدّواء، كيف وقعت في المصيدة كالفأر؟ كنت أحسب أنّك أذكى وأفطن من أن تقع ضحيّة خيال سقيم، لقد كنت أعمى يا أنطونيو، ومازلت كذلك وإلى الآن، وسوف تسقط في هاوية لا قرار لها إذا لم تعد إلى الصّواب وتنظر إلى دنياك بنور آخر فيه الحبّ وفيه القناعة.

- ما هو هذا النّور الجديد يا سي إبراهيم؟ أنا لا أرى إلاّ بحبّ ماريا، وبدونه فأنا فعلا أعمى كما قلت، فلا تسخر منّي أرجوك.

- أقول لك كلمة أتركك تجترّها في وحدتك ولا أطالبك الآن بإجابة أو بتعليق، أقول لك: تب إلى الله... وعمّر قلبك بالإيمان، فدواؤك بين يديك وأنت غافل عنه.

- ماذا تقصد يا سي إبراهيم؟

- أرجو أن يهديك الله إلى ديننا الحنيف، وأن تعتنق الإسلام، وحينها سوف تعرف راحة النّفس وتدخل رحاب الإيمان، وسوف ترى أنّ حبّك لماريا سيكون مجرّد قطرة ماء بالمقارنة مع بحر من محبّة المولى عزّوجلّ.

ضحك أنطونيو ضحكة لم يدر هو نفسه عماّ عبّرت، هل هي للسّخرية من صديقه، أو للسّخرية من حاله ومن ضياعه ومن تيهه، إنّه تائه في بلاد الغربة وقلبه تائه في مسالك الحبّ، وعقله تائه مثل سفينة بلا ربّان، فقال بعدما انطفأ إشراق ضحكته:

- دعني يا سي إبراهيم من الدّين، ما اعتقدت أبدا في الدّيانة رغم أنّي تردّدت مرارا على الكنيسة صحبة أمّي، وكان ذلك دون اقتناع ودون رغبة، فلا تُدخل عليّ دينا جديدا أجهل أبسط قواعده، ولا أعرف حتّى مراميه، ولا أدري إلى اليوم سبب تعدّد الدّيانات ومذاهبها، في حين أنّ ربّ السّماوات واحد، أنا هنا في بلدك لأبحث عن حبّي الضّائع، لا لأعتنق دينا جديدا وأنسى حبّا طوّح بي بعيدا عن بلدي وعن أهلي رغم قلّتهم، وكاد يقودني إلى الهلاك.

- لن أدعوك لما تكره، ولن أدفعك إلى طريق لا ترغب في سلكها، وإنّما أريد منك أن تعمل عقلك فيما قلته لك، فلا تتسرّع في حكمك أو في اختياراتك، ولا تحاول أن تخدع نفسك بسراب ليس من ورائه سوى الخيبة والضّياع.

- ثق يا سي إبراهيم أنّ كلّ كلمة تقولها لي، لها موضعها في عقلي وفي وجداني، أحتفظ بها لأجترّها حين أخلو لنفسي، كلامك نصح فلا تؤاخذني لو بدر منّي ما أقلقك أو مسّ من شعورك، أعرف أنّك تحبّني كأخ، أو كابْنٍ، وهذا يشرّفني كثيرا، وأعتزّ به، وثق أنّي أبادلك نفس الشّعور... وربّما أكثر.

اتّجها بعد حوارهما نحو البحيرة بعدما غيّرا مجرى الحديث وتطرّقا إلى مواضيع عامّة بعيدة عن همومهما الشّخصيّة، ثمّ عرّجا على الميناء الّذي بدأت حركته تخفّ بسبب وقع القيلولة وقيظها، وأراد سي إبراهيم أن يستأذن من صديقه في الانصراف لكنّه عدل عن ذلك في آخر لحظة حين تذكّر أمرا:

- أنطونيو، لم أستوعب بعد حكاية خروجك من السّجن بالبساطة الّتي ذكرت، لقد خامرني السّؤال منذ لحظات، لكنّ وقعَ لقائِنا المفاجئ شغلني عن التّفكير في الأمر برويّة، فما رأيك؟

- فعلا يا سي إبراهيم، فمن الغريب أن يُقبض عليك متسلّلا إلى قصر السّلطان ثمّ تُسجن وتُضرب، وبعد يومين يُطلق سراحك دون مساءلة ولا استنطاق ولا تحقيق؟ هكذا، وبكلّ بساطة، فمن يا ترى تدخّل لفائدتك؟ ومن كان وراء إطلاق سراحك وقد كنتَ على حافة العقاب الّشديد، إن لم يكن القتل؟ ... فعلا يا سي إبراهيم، لم أطرح هذه الأسئلة على نفسي، فقد شغلتني الفرحة بالنّجاة فغفلت عن الحقيقة، ترى من يكون؟ أكيد لست أنت؟ يجب أن أعرف وأرجو أن لا يكون السّبب...

سكت أنطونيو فجأة ومرّر يده على جبهته الّتي أنداها العرق ثمّ نطق بتعجّب ممزوج بفرحة:

- يا إلاهي... يا سي إبراهيم!... إنّها هي... ماريا... لن تكون سوى ماريا...

*****

سافر وليّ العهد محمّد المنصور إلى ولاية بجاية بالجزائر للقيام بمهمّة كلّفه بها السّلطان، فطالت غيبته ممّا أثّر على ريم فأثقلت عليها الوحدة ولم تعد تعيش إلاّ على أخبار تطمئنها على حبيبها البعيد، فهي لا تدري متى سيعود، ولا تدري كيف تنتظر بعدما فضّلت الوحدة على الاختلاط بالجواري والاكتفاء بالجلوس أو السّمر مع ريحانة.

لم تظهر الجارية أيّ شعور بالغيرة أو بالحسد، بل كانت تظهر ما لا تضمر باحثة عن نقط ضعف الأمير من خلال ما تستطيع فهمه من حديث ريم، وكلّما أطلعتها صاحبتها على خصوصياتها مع الأمير إلاّ وازدادت نار حبّها تأجّجا، وتمادى بحثها عن أقرب السّبل للاستفراد بالأمير بغية الاستحواذ على حواسّه وعلى عقله، وقد وجدت حيلة لبلوغ مآربها كانت أسرّت لها بها جارية معروفة بباعها الطّويل في فنون الغرام، لذا بقيت تتحيّن الفرص لتطبيقها في اللّيلة الموعودة.

جلست ذات عشية مع ريم في حديقة قصر رأس الطّابية وتطرّقتا إلى الحديث عن حكايات الغرام في بلاد الشّرق واختلاف فنونه بين الشّرقيين والرّوم، وعناية النّساء في بلاد البربر هذه بشؤونهنّ الحميمة وعن عاداتهنّ في الاستعداد لهذه المتعة الحسّيّة الّتي تسبقها طقوس خاصّة جدّا لا يقف عليها الرّجال أبدا.

كانت الهمسات والضّحك والتّندّر هي الّتي أفاضت على حديثهما ذلك الجوّ من المرح الّذي يُذهب عن المرء قلقه وقنوطه، ولمّا فرغن من الكلام عن الحبّ، ساد بينهما صمت طال حتّى ثقل إلى أن ألقت ريم بسؤالها الّذي كان يخامر ذهنها منذ شهرين أو أكثر:

- ريحانة... أنت تحبّين أيضا مولانا الأمير... أليس كذلك؟

اندهشت ريحانة، ووقع عليها السّؤال وقعا لم تكن تنتظره. فظهر احمرار خفيف على وجهها فطأطأت رأسها لتخفي دمعة وليدة ثمّ قامت وابتعدت إلى مكان من الحديقة.

ابتسمت ريم حين تأكّدت من شعورها الّذي طالما أقلقها. لكنّها لم تحقد على ريحانة واعتبرت أنّ أحاسيس صاحبتها نحو أميرها طبيعيّة. إن لم تكن واجبة. لأنّها أوّلا وأخيرا جارية من جواريه. ولها الحقّ في ما تأمله من حظوة لديه...

قامت متّجهة نحو صديقتها لتواسيها وتعتذر لها عمّا صدر منها.

- ريحانة حبيبتي، لا تؤاخذيني إن جرحت شعورك ولا تعتبريني غريمة لك. فنحن الاثنتين في وضع واحد مع فارق بسيط يمكن أن تزيله الأيّام فأعود مثلما كنت، وربّما أتعس. فلا تظنّي أنّي أعمل لأبعدك عن الأمير، بل بالعكس، أحاول أن أهيّئ لك الفرصة لتكوني مع مولانا كما تشتهين، وسوف أعرف كيف أحتمل غيرتي وأحبسها ولو لليلة واحدة، سترين... سوف يأتي يوم تذكريني فيه بكلّ خير، سأفعل ما تعجزين عن فعله أنت أو غيرك من الجواري... لست أنانيّة بالقدر الّذي تتصوّره نساء القصر، ولا أدّعي أنّي سأستحوذ على قلب الأمير إلى نهاية العمر، أنا أعرف حدودي وأعرف ماذا أريد، لكن ما العمل إذا كانت الأقدار هي الّتي تمدّني بالسّعادة وبالحبّ وبالإيثار على حساب الأخريات؟ افهمي هذا يا ريحانة وأطلب منك فقط أن تكوني صديقتي المخلصة دوما وأن لا تموت صداقتنا من أجل نزوة عشق...

عاد الصّفاء إلى الصّديقتين وأصبحتا إثر هذا البوح على وئام لا تشوبه لا غيرة ولا شكّ. فقد زال ذلك النّوع من التّوجّس الّذي كان يقلقهما وصارتا على اتّفاق لإسعاد الأمير دون تنغيص أو تكدير.

*****

عاد وليّ العهد من سفرته بعد غيبة دامت شهرين، فحلّت معه الفرحة في أرجاء قصر القصبة وقصر رأس الطّابية. وغمر الأمل قلوب الجواري، وعمّت الفرحة بينهنّ حين علمن بأنّ حفلا ضخما سيقام في قصر رأس الطّابية احتفاء بقدوم الأمير سالما، وستحضرها إلى جانب كلّ الجواري، نساء ربط النّصارى وبناتهنّ، فاستعدّت ريم كما استعدّت الأخريات وقلبها يرقص فرحا بلقيا الحبيب، وكانت تشعر بتخوّف مقلق لأنّ طول الغيبة أفرغ ما في نفسها من صبر فصارت تتحرّق شوقا للوصول إلى لحظة اللّقاء لتعرف هل خفتت شعلة حبّ الأمير لها أو بقيت متأجّجة.

لكن حدثت المفاجأة الكبرى، فقد قرّر الأمير إقامة الحفل في جنان أبي فهر الواقع بأطراف ضاحية أريانة، وأمر بإعداد المكان لاستقبال الحريم والضّيفات، وفي الأثناء عمّت الفرحة كلّ الجواري ورحن في خضمّ استعدادات لا نهاية لها، فالانتقال إلى هذا الجنان يعتبر بالنّسبة إليهنّ انعتاقا من قصر القصبة ومتنفّسا لهنّ، وربّما فرصة لبعضهنّ لنيل إعجاب الأمير، وربّما لارتقاء واحدة منهنّ إلى مصاف المحظيّة.

شعرت ريم وهي تتلقّى هذا الخبر بشيء من الانقباض، فهي تحبّ جنان رأس الطّابية ومستأنسة بأجوائه، أمّا هذا الجنان البعيد عن القصبة فهو لا يستهويها، وتشعر بأنّه غريب عنها، هكذا، شعور مبهم، رغم أنّها لم تزره أبدا واكتفت أحيانا بما يبلغها عن روعته وعن اتّساع أرجائه، لذلك مالت بالسّؤال إلى رفيقتها ريحانة لمزيد وضعها في الإطار:

- أنت زرت يا ريحانة هذا الجنان سابقا، فماذا ترك في نفسك من أثر؟

- أوه... هذا الجنان عظيم يا ريم، عظيم عظمة الّذي أنشأه، وهو ثاني سلاطين بني حفص، فقد كان يرى في نفسه العظمة ويريد أن

يحيط نفسه بآيات العظمة، فكان منها فخامة قصر القصبة وجنان رأس الطّابية وجنان أبو فهر، سوف تقفين بنفسك على جنّة لا يمكن لك تصوّرها بالخيال، فلا بدّ لك من تسريح النّظر في خيراتها.

- إلى هذا الحدّ هو رائع؟

- سوف ننتقل بعد غد إلى الجنان، وحينها يأتيك الجواب، لا على طرف اللّسان، بل بالنّظر إلى حدّ الافتتان.

لم يخطر ببال ريم وهي على مشارف جنان أبي فهر ضمن طابور الجواري والخدم أن تقف على روعة هذا المكان، فقد خالت نفسها أنّها انتقلت إلى طرف الدّنيا، لطول المسافة بين القصبة وأريانة، وممّا لاحظته أوّلا ذلك القطار المسترسل من الأعمدة العتيدة ذات الأقواس والّتي تشقّ الحقول والمروج متّخذة أشكالا تعلو شامخة تارة وتارة أخرى تنخفض حسب المرتفعات والمنخفضات، فسألت ريحان قائلة:

- كأنّها حنايا رأس الطّابية، فهل تحمل هي الأخرى مياه زغوان إلى هذا الجنان؟

- نعم، هي مثلها سوف ترين أين تصبّ وسوف تقفين على استنباطات هندسيّة تجعل من الماء أعجوبة المكان والزّمان، ها قد وصلنا إلى الجنان فاستعدّي لشمّ أريج الجنّة وافتحي عينيك لرؤية روائع النّبات والشّجر.

ما أصغر الإنسان أمام فعل الإنسان، ذلك ما همست به ريم لنفسها وهي تشاهد أصنافا من الأشجار المجمّعة في دوحات مخصّصة لكلّ صنف من الفواكه والغلال وكلّ دوحة منفصلة عن الأخرى بمسالك على غاية من التّناسق الهندسي، فمنها المخصّصة لأشجار الرّمان، والأخرى للزّيتون والتّالية للتّين، ومن بعدها للعرائش والأعناب، وغيرها للطّلح واللّيم والبرتقال والنّارنج والسّرو والرّيحان والياسمين وغيرها من مغروسات يد الإنسان ممّا يخطر على بال كأنّ ثمار الدّنيا تجمّعت في هذا المكان.

لم تقف دهشة ريم على هذه الجنّة النّاطقة بالاخضرار وبالألوان وبغناء العصافير وشدو الطّير والمنيار، بل كانت البهتة العظمى حين وصلت إلى تلك البحيرة العظيمة القائمة وسط روض فسيح السّاحة فصاحت إعجابا للمنظر الأخّاذ والنّاطق بالعظمة:

- ريحانة إنّي أحلم دون شكّ، ما هذا؟

- هذه يا عزيزتي آية من آيات الفنون الأندلسيّة.

- وما دخل الأندلسيّين في هذا؟

- كلّ ما رأيته وترينه الآن، وسوف تقفين عليه بعد حين، هو من عمل البنّائين والنّقّاشين والمهندسين وغيرهم من أصحاب الصّنائع من أندلسيّين كانوا هاجروا إلى هنا مع قيام الدّولة الحفصيّة منذ قرن ونصف تقريبا، فبرعوا في البناء والإعْمار وغيرها من أشكال القصور والدّيار.

- وتلك القبّتان المتقابلتان في طرفي هذا الـ...

- المسبح الكبير[1]، وهو بمثابة بحيرة لعظمته ولكبر أرجائه ماؤه يدفق من فتحات سرّيّة فيحدث تموّجات كأنّها أمواج بحر هادئ، وكان يحلو للمستنصر، وهو السّلطان الّذي أنشأه، الجلوس تحت القبّة الكبيرة للتّمتّع بمنظر الجواري الحسان وهنّ يسبحن أو يتسابقن على القوارب من طرف البحيرة إلى الطّرف الآخر.

- كيف عرفت أنت كلّ هذا؟

-

---

[1] مسبح جنان أبو فهر: كنت وقفت على آثاره حين زرت المكان وأنا بصدد كتابة رواية باب العلوج لأستأنس بما تبقّى من واقع المكان، فكانت الخيبة والتأسّف لوقوفي على أطلال الخراب والإهمال فلا شي يدلّ على ما عثرت عليه في الكتب الّتي تناولت بالوصف جنان أبي فهر بل اكتفيت بمشاهدة بقايا المسبح العظيم المخرّب والمعطّل، وكان ذلك سنة 1986 قبل إنشاء مدينة العلوم في ذلك الموقع.

- في السّنة الموالية لقدومي من الجزائر وكنت من بين المرشّحات لنيل حظوة مولانا، لكنّ البخت أدار لي ظهره ليلتها فكان عزائي الوحيد الجلوس على ضفاف البحيرة، هنا تحديدا غير بعيد عن القبّة الصّغيرة. رفقة جارية بربريّة آية في الحسن، لم ينلها شرف مضاجعة الأمير. فراحت تعدّد الحكايات عن السّلطان صاحب هذا الجنان، أيّتها الجارية المغيارة.

- أنا يا ريحانة، أبدا والله...

- في سؤالك غمز لمعرفة ما إذا كذبت عليك في السّابق بخصوص الاختلاء بمولانا. أكرّر لك وللمرّة الأخيرة أنّ ذلك لم يحصل أبدا. هيّا دعنا الآن من هذا ولننطلق إلى حيث القصر وملحقاته وسوف تكون جولة الاندهاش بحقّ.

جاءت القهرمانة لحثّهما على الالتحاق بالجناح الّذي ستخصّصه لهما، فتبعاها إلى رواق مقام على أعمدة مرمريّة يشقّه في وسطه العريض حوض تتدفّق منه المياه الرّقراقة فتحدث خريرا أليفا كأنّه وشوشة تلغي صمت المكان وروعته:

- ريحانة؟ ما هذا؟

- انتظري حتّى نصل إلى المدارج المؤدّية إلى الطّابق العلويّ، ألا تودّين سماع خرير المياه وهي تجري من تحتك تهدهدك حتّى يدركك الكرى؟

- هل سنقيم فوق هذا الرّواق؟

عرجت بهما القهرمانة إلى ناحية بها مدارج أضيق من تلك الّتي تظهر في طرف الرّواق المائيّ، فصعدن مدارج مرمريّة مصقولة يخالها الرائي أنّها مرايا مفروشة:

- يبدو يا ريحانة أنّ هذا المكان أروع بكثير من جنان رأس الطّابية ومن قصر القصبة.

- رغم روعة المكان فإنّي أشعر فيه بالضّياع، فأنا أحبّ الأمكنة الّتي تعطيني الانطباع بأنّها تأويني وتحتويني.

- أنا أفضل جنان رأس الطّابية على هذا البذخ المفروش حوالينا وتحت أقدامنا.

- أنت لم تكتشفي بعد أيّ شيء من أرجاء هذا الجنان الّذي مازال يفي بين أشجاره قصورا وديارا سلطانيّة.

- يكفيني ما رأيت. أشعر الآن بضآلة نفسي، ولولا الحبّ لـ..

لحق بهنّ خدم يحملون أغراضا فأشارت إليهم القهرمانة بالتّوجّه إلى باب كبير ففتحون وأفسحوا المال لدخول ريم وريحانة، ولمّا دخلن كانت المفاجأة بقدر حجم هذه الغرفة الأنيقة ذات السّقف العالي المنقوش بأشكال نباتيّة على غاية من الرّوعة كأنّه جنان معلّق في السّماء، أمّا الجدران فقد شغلتها مرايا في حجم الإنسان ومن تحتها مناضد من الرّخام عليها أدوات لا يمكن تصنيفها دون الاقتراب منها لمعرفة ما محتواها، قالت القهرمانة دون أن تعير اهتماما لدهشة الجاريتين:

- هذه غرفتكما.

- غرفة؟

قالتها ريم بسخرية ظاهرة وهي تقارن هذه السّعة الفخمة بسعة غرف قصر القصبة.

التفتت إليهما القهرمانة قائلة:

- عليكنّ من الآن الاستعداد لموعد السّهرة، سوف أرسل إليكنّ المعينات لمساعدتكنّ على الاستحمام وعلى الزّينة، فهناك في قاع الغرفة حمام سوف يقع تسخينه بعد حين، وفي ذلك الرّكن خزانة الملابس، فإذا صادف واحتجتما إلى أيّ غرض ما عليكنّ سوى دعوة الخدم بواسطة هذا الجرس.

تمّت الاستعدادات لإقامة السّهرة حول حوض السّباحة الكبير وأضيئت أرجاء المكان بمئات الشّموع الّتي كان ضوؤها يتراقص بفعل النّسيم اللّيليّ اللّطيف، وعبق المكان بكلّ أنواع الأبخرة والعطور، وبدأت الجاريات والنّساء يأخذن أماكنهنّ على البسط والفرش، بعدما فرغن من زينتهنّ الّتي زادتهنّ حسنا على حسن فبدين على أضواء الشّموع رائعات شديدات الإغراء.

جلست ريم وريحانة على فرش ناعمة تحت سقف القبّة العظيمة، وقد دعتهما القهرمانة لتكونا به نزولا عند رغبة الأمير الّذي اختارهما للجلوس معه على انفراد دون الاختلاط بجموع الحفل.

راح تفكير ريم إلى بعيد وهي تتأمّل في نقوش سقف القبّة الخشبيّ المموّه بماء الذّهب والمرسوم بأشكال هندسيّة كأنّها أحرف باللّغة العربيّة تشابكت مع أنواع من النّباتات المزهرة فبَدا السّقف كأنّه رحلة في شعاب عقل فنّان مبدع، فقالت ريم لريحانة:

- كم يا ترى من أبصار تعلّقت بروائع هذه القبّة، وكم من جارية مثلي ومثلك حلّقت بخيالها إلى فوق ما فوق؟ ترى هل تتحقّق أحلامنا؟

- نحن الآن تحت سقف حلم، وما علينا سوى السّعي إلى تمطيط هذا الحلم، أمّا البقيّة فهي من تدبير الخالق.

خطرت لحظتها ببال ريم خاطرة حلوة تردّدت طويلا في البوح بها لرفيقتها، لكنّها عدلت عن القول تاركة للآتي من الوقت اختيار لحظة الإفاضة به لصاحب الأمر.

أخذت أنغام موسيقيّة عذبة ممزوجة بأصوات رخيمة تتصاعد في أجواء الحفل فتمايلت ريم مع تلك النّغمات المنسابة وتساءلت وهي مغمضة العينين:

- ما أجمل هذه النّغمة يا ريحانة...

- هذه موسيقى أندلسيّة رقيقة تعرف هنا "بناعورة الطّبوع". لماذا أغمضت عينيك هكذا؟

- لأستمتع بالأنغام وأتخيّل معها ما أريد أن أتخيّل.

- جميل، ذكّرتني بحكاية قصّتها عليّ جارية أندلسيّة عن أحد ملوك بني حفص كان مولعا بالموسيقى ويشعر بانتشاء عظيم كلّما سمع عزفا بديعا أو صوتا رخيما، وكان كلّما يشتهي السّهر والاستمتاع بالغناء يطلب أن تعصّب عيناه بعصابة حتّى لا يرى أحدا ثمّ يدخل على المغنّيات ويأخذ مكانه بينهنّ ويطلق لخياله العنان وهو يسمتع إلى أصواتهنّ منفردة أو جماعيّة.

- عظيم هذا السّلطان... إنّه يبحث بهذه الكيفيّة عن الاستمتاع الحسّيّ دون أن يرى صاحبة الصّوت حتّى لا يحدّ الواقع من خياله، وبذلك يعيش لحظات السّعادة ويسبح في أجواء لا حدود لها.

حين قدم الأمير وجلس قرب ريم لم يتمالك نفسه من معانقتها بكلّ حرارة وترك هذه الحركة تفضح مشاعره وتجعل ريم تنتشي سعادة فلم تسمع صخب الحفل الّذي كان في أوجه بل كانت تسمع دقّات قلبها ولا ترى الدّنيا إلاّ في عيني حبيبها، وبقيا لحظات في عناقهما إلى أن سمعا ريحانة تتنحنح ثمّ تطلب منهما الإذن بمغادرتهما لحين بتعلّة واهية جعلت الأمير يضحك ويسمح لها بالانصراف على شرط العودة سريعا.

تغيّر إيقاع العزف فصار راقصا فالتفت الأمير ناحية التّخت فرأى الجاريات يرقصن ويتمايلن على إيقاع الموسيقى وقد تحرّكت فيهن مشاعر دفينة كانت تترجمها حركاتهنّ الإيحائيّة أحيانا والمعبّرة والمثيرة أحيانا أخرى.

- لم أرك يا ريم ترقصين أبدا، فمتى تمتّعين ناظري برؤيتك وأنت تلتوّين وتعبّرين بجسدك عمّا يعتلج بدواخلك؟

- يوم أتعلّم فنون الرّقص يا مولاي، لكنّي لا أستطيع الآن تلبية رغبة مولاي.

- لماذا يا ترى؟

سكتت ريم بعض اللّحظات كأنّها تستعدّ للقفز إلى ضفّة أخرى من الزّمن ثمّ قالت:

- لأنّي... حامل... يا مولاي.

كانت القفزة صائبة لمّا همست بالخبر السّعيد في أذن وليّ العهد فاهتزّ فرحا وخُيّل إليه أنّ أجنحة طارت به إلى ملكوت النّور فراح يلثم ريم في وجهها وفي عينيها وهو يغمغم بفرح فيّاض:

- حبيبتي... ملكتي... سوف أسعدك كما أسعدتني الآن... سأجعل منك ملكة هذا القصر... لا، لا، هذا قليل عليك، أنت ملكة العصر. أعطيك... ماذا أعطيك يا مولاتي، وعطاؤك يفوق كلّ عطاء؟

- مولاي لا أطلب منك سوى أن تسعدني وأن ترعاني، ولن أطلب منك شيئا آخر... يكفيني أن أشعر بحبّك لي وبسعادتك بجانبي، فأعظم ما وهبتني الآن هو فيض غبطتك وفرحك.

في الغد انتشر الخبر في أرجاء الجنان، وكانت الفرحة الظّاهريّة مرسومة على كلّ الوجوه، أمّا قلوب الجاريات فقد اصطبغت بسحابة الغيرة الّتي دارينها بكثير من الجهد والابتسام المصطنع.

أصبحت ريم محطّ عناية فائقة من طرف الأمير ومن قِبل الخدم القائمين على شؤونها، وجاء لزيارتها عدد كبير من الجاريات وخصوصا رفيقاتها أيّام الاختطاف والأسر، فاستعدن الذّكريات المؤلمة وهنّأنها بالسّعادة الّتي عوضتها عن غربتها وطلبن منها نسيان ما حدث بينهنّ من مناوشات أصبحت من ذكرى الماضي.

بعد مضيّ ثلاثة أيّام من الإقامة في جنان أبي فهر قرّر الأمير العودة بكنزه إلى قصر القصبة حيث تكتمل العناية بالحامل.

*****

مرّ شهران وريم تستمتع بثمرات هذا الدّلال الّذي يواكبها ليلا ونهارا حتّى جاءها ذات صباح وليّ العهد مشرق الوجه قائلا:

- ريم... حبيبتي هل تعرفين من طلب رؤيتك اليوم؟

- أظنّ أنّي رأيت كلّ من أعرفها ولا أعرفها في هذا القصر... فمن تبقّى إذن؟

- بقي الأهمّ، وهذا حدث نادر... سوف نعود اليوم إلى قصر القصبة لملاقاة عزّوز.

- عزّوز؟

ضحك الأمير لجهل ريم بهذه التّسمية فقال لها:

- هو مولانا السّلطان أبو فارس عبد العزيز، ويسمّيه العامّة عزّوز تحبّبا، وأحيانا ندعوه نحن أهله بهذه التّربيجة حين يكون بيننا بصفة الأب لا السّلطان...

- السّلطان نفسه يريد رؤيتي؟ لماذا؟

- نعم السّلطان نفسه... فقد بلغه خبر حملك ويريد أن يراك ليعبّر لك عن فرحته، فماذا تقولين؟

- أقول؟ إنّي أكاد أختنق من وقع المفاجأة ومن شدّة الفرح... لا أكاد أصدّق.

تمّت الاستعدادات حثيثة للعودة إلي القصبة وجُلبت خصّيصا لريم عربة فاخرة من عربات حريم السّلطان لنقلها حتّى لا تتعب في الطّريق، فتحرّك الرّكب وسط الممشى الطّويل المؤدّي من رأس الطّابية إلى القصبة وكأنّه ركب ملكة، ورافقت ريم في العربة صديقتها ريحانة الّتي لم تفارقها منذ علمت بالخبر السّعيد وأظهرت لها عناية لم تعهدها منها من قبل حتّى أنّها شكّت في صدق هذا الشّعور وسألتها صراحة هل هو حبّ خالص وصداقة بريئة لوجه الله أو أنّها مداراة؟ فكان جواب ريحانة معانقة صاحبتها وتقبيل يديها بكلّ حرارة...

- كنت أطمع في شيء يا ريم أمّا الآن فإنّي أقسم لك...
- لا داعي لهذا، كفاني شعورا بأنّك صادقة، لكنّي لن أتراجع عمّا كنت قرّرت بيني وبين نفسي.
- ماذا قرّرت؟

*****

لم تستطع ريم أن ترفع بصرها في حضرة السّلطان أبو فارس عبد العزيز، فقد كان الوقار الّذي يكسو الرّجل أكبر من أن يذهب بابتسامة حنونة منه.

- إنّك فعلا جميلة جدّا يا صبيّة، وصدق من أخبرني بأنّ شيئا خفيّا يدفع من يراك إلى محبّتك وإلى احترامك، اعتبري نفسك من اليوم كابنتي وفي مقامها تماما، حافظي جيّدا على هذا الجنين الّذي أدعو له بأن يكون من الصّالحين لتعزيز سلالة بني حفص، خذي هذه هديّتي إليك، ويوم تلدين ذكرا أزيدك هديّة أعظم.

حين خرجت ريم من جناح السّلطان وهي لابسة عقد اللّؤلؤ الثّمين الّذي أهداه إيّاها السّلطان لم تتمالك من حبس دموع الفرح ثمّ توقّفت برهة ورفعت بصرها إلي السّماء داعية بكلّ جوارحها:

- أوه سانتا ماريا...

*****

حين شعر أنطونيو أنّ السّبب الوحيد الّذي جعله يتمتّع بحرّيّته مرّة ثانية ونجاته من سجن القصبة ومن عقاب وليّ العهد هو شفاعة ريم فيه، اعتقد أنّ ما دفعها للقيام بذلك أنّها تحمل له حبّا أو عاطفة، وعلى أساس هذا التّخمين عاش بالأمل وترك نار حبّه تخمد تحت رماد التّعقّل في انتظار يوم المنى، يوم يلتقي بحبيبته الّتي لا يمكن أن ينساها ولن يقدر على ذلك أبدا.

صار يتّبع نمطا من الحياة الهادئة تقتصر على العمل في الصّباح والجلوس كلّ عشيّة على شاطئ البحيرة صحبة صبيّ يتّقد حيويّة وذكاء كان جلبه له سي ابراهيم للقيام على شؤونه، وبالخصوص لتعليمه التّحدّث باللّهجة التّونسيّة، فكان يختبر من حين لآخر مدى تقدّمه في ممارسة الحديث بهذه اللّغة الّتي لوت لسانه وأتعبت ذهنه كلّما التقى بصديقه سي إبراهيم بن مخلوف للقيام بجولة في دروب المدينة وفي أسواقها، فكانا يتحادثان في شتّى المواضيع باللّهجة التّونسيّة، وكان سي إبراهيم يستحسن اجتهاد رفيقه ويختبر إرادته في التّحصيل وفي التّأقلم مع الحياة الجديدة الّتي صار عليها، لكنّه كان يستغرب في قرارة نفسه من سكوت أنطونيو عن التّطرّق إلى الحديث عن حبّه، فكان كلّما أُثير الموضوع زاغ الشّابّ بالكلام إلى أمور لا صلة لها إطلاقا بالحبيبة المفقودة.

لقد فضّل أنطونيو إخفاء سرّه عن صديقه ولم يرغب في الكشف عنه حتّى لا يتعرّض لسخرية الرّجل أو انتقاده، لكنّ سي إبراهيم اكتشف ذلك صدفة حين مروره ذات صباح من القصبة إلى باب سويقة، فقد رأى أنطونيو وقد لبس جلبابا وتعمّم بعمامة العامّة، وجلس على عتبة محلّ قبالة بطحاء القصبة وغير بعيد عن قصر السّلطان، فاتّجه إليه سائلا باستغراب شديد:

- أنطونيو كازيلا؟ ماذا تفعل هنا وفي هذه السّاعة؟ هل تنتظر أحدا؟

ضحك أنطونيو لمدارة ارتباكه وقال:

- كان مرادي أن لا تلقاني هنا يا سي إبراهيم، لكن يبدو أنّ تنكّري الجزئيّ قد فشل. إنّي هنا يا سيّدي أجلس قبالة ذلك القصر، أنتظر... نعم أنتظر إطلالتها، إنّي أطمع يا صاحبي في رؤية ماريا ولو صدفة.

- غريب أمرك أيّها الرّجل، غريب حقّا! هل تريد أن تعود إلى السّجن لكي لا تخرج منه هذه المرّة؟ ... تُب إلى الله، ودعك من الجري وراء

المستحيل، واترك جانبا شعورك الصّبيانيّ هذا. إنّي لا أصدّق والله ما أرى وما أسمع.

تنهّد أنطونيو تنهيدة عميقة وقال:

- لم أستطع، لم أستطع يا سي إبراهيم، هل تفهم، هل تفهم معنى حرمانك ممّن تحبّ؟ هل خُطفت منك زوجتك أو حبيبتك أو ابنتك؟ أو عزيز عليك؟ لا... لن تستطيع أبدا أن تفهمني أو أن تشعر حتّى بعُشر ما يعذّبني ويؤرّقني... دعني يا سي إبراهيم هنا أتسوّل حبّا ضائعا... دعني واذهب لقضاء شؤونك أرجوك...

- لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم، لا يجوز أن أتركك هنا، ربّما يراك أحد الحرّاس ويشتبه في أمرك. هيّا قم. سنذهب معا إلى سوق سيدي محرز بباب سويقة ونشرب قهوة صباحيّة هناك...

قام أنطونيو من مكانه في تخاذل كامل، ثمّ رافق سي إبراهيم خطوات حتّى وصلا إلى مستوى بناية مميّزة فسأل أنطونيو صاحبه قائلا:

- ما هذه البناية، يبدو أنّها تابعة للسّلطان حسب شكلها؟

- أصبت، إنّه قصر البنات سابقا، تعال نسلّم على عمّ الجيلاني.

لمّا اقتربا من باب القصر أسرع رجل مسنّ إلى سي إبراهيم يصافحه مرحّبا:

- أهلا، مرحبا بابن الكرام، كيف حالك يا سيدي إبراهيم؟ تفضّل عندي لتشرب قهوة يمنيّة، ألم تشتق لقهوة من يد عمّك الجيلاني؟ هيا يا ولدي، وأنت يا ابني، هيّا تذوّق قهوة لم تشرب مثلها في حياتك... عفوا، من يكون هذا السّيّد يا سي إبراهيم؟

- هذا صديقي... أنـ.. أحمد، نعم أحمد. إنّه تاجر بباب البحر وهو غريب عن هذه الدّيار، وقد هداه الله ودخل إلى دين الإسلام منذ مدّة قصيرة واتّخذ لنفسه هذا الإسم المبارك.

أخفى أنطونيو دهشته من ادّعاء صديقه فأراد أن يعترض على كلامه، وأن يقول للرّجل إنّ اسمه مازال أنطونيو، وأنّه بقي على دينه، وأنّه جاء إلى هنا وراء ماريا.

عانق عمّ الجيلاني أنطونيو بكلّ تلقائية ومحبّة قائلا:

- مرحبا بولدنا... مرحبا بك في دين الإسلام، أعزّ الله الإسلام بك وبأمثالك يا سيّد أحمد، وبارك الله فيك يا سي إبراهيم... أظنّ أنّك كنت السّبب في هدايته إلى دين الحقّ؟ أجرك عند الله عظيم يا ابن الأصول.

- الهداية من الله يا عمّ الجيلاني... ومن أخينا أحمد... إنّك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء.

دخل الثّلاثة من باب كبير فتحه عمّ الجيلاني بضربة من كتفه ومرّوا من سقيفة واسعة الأرجاء، ثمّ دلفوا من باب آخر إلى صحن كبير تتوسّطه خصّة مرمريّة بها نافورة حسنة الشّكل كانت توقّفت عن شرشرة الماء لعطب أصابها.

- ما زلت كعادتك يا عمّ الجيلاني، فكلّما رأيتني أدخلتني هذا القصر لأشرب قهوة ولتقصّ عليّ نُتَفًا من تاريخ البنات اللاّئي كنّ يعمّرنه منذ عشرات السّنين.

لم يتكلّم أنطونيو وبقي يتفرّج على زخارف الجدران وعلى الأبواب العديدة الدّالة على تعدّد الغرف، ثمّ دخل الجميع إلى قاعة صغيرة وجلسوا على دكّانة حذو فتحة حائطيّة بها موقد وأدوات إعداد القهوة.

قال عمّ الجيلاني موجّها الكلام لسي إبراهيم كأنّه يهمس له:

- تعرف يا سي إبراهيم أنّي شككت في صديقك هذا، فقد رأيته منذ مدّة يجلس في نفس المكان وبصره لا يفارق باب السّلطان حتّى ذهب بي الظّنّ أنّه علج جاسوس، فما حكايته هل يتكلّم لغتنا؟

- نعم يتكلّم، لكن بتعثّر، أمّا عن سبب جلوسه حيث رأيته فهو بسيط... وسأقصّه عليك في مناسبة قادمة. هات قهوتك يا عمّ الجيلاني لأنّي سأذهب لقضاء حاجة أكيدة في ربط باب سويقة.

قال أنطونيو وهو يربّت على يد الرّجل:

- اطمئنّ يا سيّدي، سوف أعود لألقاك، وسوف أقصّ عليك قصّتي ليزول شكّك في أمري، أعود غدا لألقاك هنا، وفي نفس هذا التّوقيت.

رغم إلحاح سي إبراهيم وتحذيره لأنطونيو حتّى لا يعود إلى عمّ الجيلاني حارس قصر البنات ويكشف له عن حقيقته، فقد قرّر أنطونيو الذّهاب إلى الرّجل في الموعد المقرّر.

*****

لم تفارق صورة عمّ الجيلاني ذهن أنطونيو طوال اللّيل، فقد أحبّ الرّجل كأنّه على سابق معرفة به، أو كأنّه من أهله، فقرّر أن ينفّذ في الغد قراره وأن يزور عمّ الجيلاني، فحمل معه رطلين من السّكّر الأسمر المجلوب من البندقيّة، والّذي يعتبر من السّلع الممتازة والغالية.

حين جلس إليه بعد التّحيّة، دخل رأسا في الموضوع قائلا:

- عمّ الجيلاني، لقد عدت إليك رغم معارضة صديقنا سي إبراهيم، لأنّي قرأت على وجهك علامات الطّيبة، وما أظنّ أنّك عكس ذلك، ثمّ إنّ سنّك المتقدّمة تجعلك متفهّما لكلّ ما يعترضك أو يعترض غيرك من مشاكل الحياة، فقد جئتك لأنّي غريب ومقهور، وقد علمت أنّ طبيعتكم في هذا البلد تأبى عليكم غلق الأبواب في وجوه ضيوفكم حتّى لو كانوا من الكفّار... بالنّسبة إليكم طبعا.

- أستغفر الله... ما هذا الكلام يا ولدي؟ كأنّي بك تشكّ في أمر... عليك الأمان يا أحمد، وهذا عهد منّي بكتمان السرّ لو كنت تخفي سرّا وترغب في البوح به لي، ولن أرفض لك طلبا لو كان في استطاعتي

تلبيته، بل بالعكس، فهذا يسعدني ويشغل وحدتي في هذا الفضاء الكبير... فما حكايتك؟

سرد أنطونيو قصّته على عمّ الجيلاني كأنّه يفرغ شحنات من همّه ويأسه، وكلّما تقدّم في السّرد شعر بالاطمئنان لهذا الرّجل الّذي آنس له ولم يشعر به غريبا ولو للحظة واحدة، لقد استمع الشّيخ بكلّ هدوء إلى الشّابّ المهموم، وكان يحاول في بعض الأحيان أن يفهم كلمة غاب عنه معناها بسبب لكنة أنطونيو الإيطاليّة وعدم قدرته على النّطق بالعربيّة بطلاقة، وكان يسأله إعادة ما قال وإفهامه المعنى ولو بالإشارة ليحصل بينهما الفهم، فلم تنته الجلسة إلاّ وقد ربط بين الرّجلين رباط الألفة والصّداقة.

- والله يا... لا أقول لك يا ولدي، لأنّك ما زلت على كفرك، وأنا لا أحبّ النّصارى لأنّي أعرف البعض منهم في ربط باب المنارة، وأعرف كيف يعاملون أهل البلد بسبب تنطّعهم وغطرستهم وقربهم من مولانا السّلطان هداه الله، لكن... لكنّي أحببتك والله لأنّك ضُعت في طريق وعرة، وأشعر بأنّ نفسك مؤمنة رغم ديانة الشّرك بالله الّتي شببت عليها، ودليلي على ذلك هو التجاؤك إليّ رغم عدم معرفة سابقة بيننا، وقياسا على قولنا " المؤمن قلبو خبيرو" فإنّي أعذرك وأصدّق مشاعرك، لكن ماذا أستطيع أنا الرّجل البسيط أن أفعل لك؟ لقد أصبحت هذه المرأة في عصمة سلطان وصارت من حريمه، وهي تعيش عيشة القصور ولا يمكن لها بأيّ حال أن تخرج من هناك حتّى لو كانت تحبّك كما تدّعي، وبالتّالي ليس لك حول ولا قوّة للاقتراب منها، فضلا عن إخراجها من هناك، وحتّى لو صادف أن فعلت، وهذا يعتبر والحالة تلك، من كرامات الله ونعمه عليك، فكيف تضمن أنّ هذه المرأة ما زالت تحبّك؟ أو قل أحبّتك فعلا وأنت لم تجتمع بها إلاّ مرّة واحدة حسبما أعلمتني؟.

- لا... لا يا عمّ الجيلاني، ليس هذا قصدي، فأنا لم أعد أطلب إخراج ماريا من القصر أو الهروب بها كما يحدث في قصص الأبطال. صدّقني، فأنا أجبن من أن أكون بطلا أسطوريّا... لا ليس هذا. أريد فقط أن أراها.

- يا لمصيبتك يا... أنط... كلاّ، لن أدعوك باسمك الأصليّ، بل أدعوك "طوطو"... فهو أفضل وأحسن وقعا من اسمك المُعْوَجّ هذا. يا لمصيبتك فيما تطلب يا صاحبي! من أين لي أن أدلّك على من يدلّك على مكان صاحبتك وسط تلك القلعة الضّخمة والمتعددة الدّور والأجنحة والمحروسة بالعسكر؟ لا حول ولا قوّة إلا بالله. ما أنا إلاّ حارس بسيط يا ولدي.

- أريد أن أقيم هنا يا عم الجيلاني...

- تسكن هنا؟ لا يمكن... هذا قصر من قصور السّلطان، وكان وُضع من زمان على ذمّة ثلاث بنات منذ قيام الدّولة الحفصيّة، وأصبح الآن كما ترى خاليا يستعمله أحيانا المنفّذ.

- المنفّذ؟

- يعني الوزير الأوّل أو صاحب الأشغال المكلّف بخزينة الدّولة، أو غيره من الأمراء لإقامة حفل خاصّ أو للتّوسّع عندما تضطرّهم الحاجة إلى ذلك... وأنا هنا حارس من جملة حرّاس آخرين وليست لي لا سلطة ولا قرار. ثمّ لماذا تريد أن تسكن هنا؟ كنت تقول لي إنّ السّلطان هو غريمك ومع ذلك تريد أن تسكن في أحد قصوره، لماذا؟

- سوف أجيبك عن هذا السّؤال فيما بعد... لكن ما حكاية البنات الثّلاث؟ وما حكاية هذا القصر الّذي أصبح شبه مهجور، فقد قال لي سي إبراهيم بالأمس إنّ هذا القصر هو سبب تسمية ذلك الباب المؤدّي من القصبة إلى ربط باب سويقة "بباب البنات".

- هذه حكاية طويلة. تعال نشرب قهوة في مكان سيعجبك حتما. وسأحكي لك عن تاريخ هذا القصر وعن بناته. يبدو أنّك تحبّ البنات لكنّك تعجز عن الوصول إليهنّ.

ارتشف أنطونيو قهوة عمّ الجيلاني بعدما صعدا إلى علوّ وجلسا قرب شرفة تطلّ على قصر القصبة وعلى الدّرب المؤدّي إلى باب البنات.

- هذا هو المكان الّذي أبحث عنه يا عمّ الجيلاني.

- تريد أن تطلّ من هذه الشّرفة على قصر القصبة عسى ترى محبوبتك؟

- هو ذاك. لكنّي لا أرى الآن سوى بنايات وأشجار كثيرة وتلك السّاحة الواسعة وبعض الحرس المنتصبين أمام الأبواب وعلى المدارج والأبراج.

- لن ترى شيئا آخر. اللّهمّ إلاّ إذا نظرت إلى ذلك الممشى الطويل الّذي يؤدّي إلى جنان رأس الطّابية. ربّما أسعفك الحظّ يوم يخرج سرب الجواري من القصر إلى الجنان ومن ضمنه صاحبتك.

- هذا موقع جميل وأرجو ألاّ تحرمني من المجيء إلى هنا لأتصيّد الفرصة السّعيدة. لكن قل لي ما حكاية البنات؟ يبدو أنّ لكلّ باب من أبواب مدينتكم قصّة أو حادثة؟

- لا تظنّ يا ولدي أنّ حكاية البنات هي حكاية غراميّات وطيش، لا بل هي حكاية واقعيّة يرجع عهدها إلى قرابة مائتي سنة، أي إلى أيّام مؤسّس الدّولة الحفصيّة المولى أبو زكرياء الحفصيّ الأوّل، وكان هذا الأمير نادرة زمانه لما اتّصف به من الهمّة العالية والشّهامة ومكارم الأخلاق والتّناهي في الحِلم والعفو عند المقدرة. وقد مسك بزمام الدّولة والبلاد في حالة اضطراب كامل تنخرها الفتن والخلافات في كلّ جهة وقبيلة، فجمع حوله رجاله ومواليه ورتّب الجند وخرج ليقاتل من زاغ عن الطّاعة واتّخذ الفتن راية له. وكان أكبر منازع لسلطانه وأوّل محارب له أحد

الزّعماء من الملثّمين يسمّى يحيى بن غانية المعروف وقتها بالمايورقي نسبة إلى كونه اشتهر بذلك لاستيلائه على الجزر الشّرقيّة من الأندلس والمعروفة بمايورقة، وكان يحيى هذا من أواخر الأمراء المرابطين.

- لا أفقه كثيرا في هذه الأمور يا عمّ الجيلاني.

- احفظ واترك، وهذا كلام مفيد أفضل من كلام الثّرثرة، قلت إذن، فلما تغلّب الموحّدون على الأندلس استبدّ هذا السيّد بتلك الجزر وأخذ يحشد الجيوش والأساطيل لمقاومة خلفاء عبد المؤمن بن علي، فكبرت مطامعه وأطلق نظره نحو أفريقيّة، أي بلادنا هذه، فهاجم بعض مراسيها كقابس وصفاقس والمهديّة فوجد المساعدة والموالاة من الغوغاء والرّعاع من الأعراب، فطمع في الحاضرة وحاصرها أيّاما قليلة ثمّ انصرف عنها إلى جهات أخرى ينشر سطوته ويستولي ويظلم ويتعسّف حتّى جاء أبو زكرياء فقرّر مطاردته ومحاربته والقضاء عليه، فأدركه بجهة قابس وهناك تمكّن من تشريد جموعه والاستيلاء على غنائمه والإيقاع بأتباعه حتّى لم يبق حوله إلاّ شرذمة سرعان ما تشتّتت وتركته مع قلّة من رجاله ففرّ ناجيا بنفسه إلى الصّحراء وبقي شريدا طريدا حتّى هلك، فانقرض بموته أمر الملثّمين من تونس والمغرب والأندلس. وكان ليحيى بن غانية هذا، ثلاث بنات ليس له سواهنّ من الولد، فلمّا أحسّ بضياعه في الصّحراء وضياع ماله وجاهه خاف على بناته ولم يجد من حوله من يثق به، لا من أقربائه ولا من رجاله فخطرت بباله فكرة غريبة لكنّها في الواقع ذكيّة وعاقلة. لقد قرّر أن يرسل بناته إلى عدوّه وخصمه أبي زكرياء لما يعرفه عنه من محاسن الأخلاق وشيم الكرام وحبّه للعدل والإنصاف طالبا منه رعايتهنّ واعتبارهنّ مثل بناته.

- كيف ذلك يا عمّ الجيلاني، هل يعقل هذا؟ أم تريد أن تجعل من سلطانكم رجلا لا ككلّ الرّجال؟

- إنّه أمير يا طوطو، وكما قلت لك فإنّ أخلاقه العالية ودينه الصّحيح يأبيان عليه النّزول إلى رذالة الانتقام السّخيف، فالعفو عند المقدرة من شيم العظام، أليس عندكم رجال من هذه الطّينة؟

- وهل جئن من الصّحراء إلى تونس وتركن والدهنّ يموت في غربته بعد انهزامه وانحسار الجاه والسّلطة عنه؟ ... إنّها خيانة وعقوق.

- جئن طاعة لأمر والدهنّ وخوفا من ضياعهنّ وتشرّدهنّ أو سبيهنّ بعد موت والدهنّ، ولا تنسَ فهنّ أميرات لا يحتملن الذّلّ والهوان.

- وماذا بعد ذلك؟

- أخذ البنات الثّلاث برأي أبيهنّ فودّعنَه وداعا أخيرا وقصدن تونس وأملهنّ ضعيف في المستقبل، وكانت دهشتهنّ عظيمة حين التقين بالأمير أبي زكرياء فوجدنه كما قيل لهنّ، رجل متواضع في أخلاقه وفي ملبسه، تقيّ ورع، متعلّم وكريم، فقبلهنّ قبولا حسنا وأنزلهنّ منزلة عزّ وأشعرهنّ بأنّ ما كان بينه وبين والدهنّ شيء وما بينه وبينهنّ شيء آخر، فأسكنهنّ في بادئ الأمر بالقصبة ثمّ بنى لهن هذه الدّار ليعشن فيها بكامل الحرّيّة حتّى لا يشعرن بوطأة القيد وبالتّبعيّة لرجل كان السّبب في القضاء على والدهنّ، وأجرى لهنّ جراية واسعة من رزقه، فعشن في هناء ودعة وكنّ معروفات باسم الأميرات "المايورقات" وقد اشتهرن بعلوّ الهمّة وبالتّعفّف وبالأنفة وبالكبرياء، حتّى أنّ بعض الأمراء من بني حفص أرادوا التّقرّب منهنّ والتّزوّج بهنّ فلم يجدوا منهنّ إلاّ الصّدّ والزّهو بأصلهنّ، وبقين زمنا في وحدتهنّ حتّى جاء ابن عمّ لهنّ فخطب إحداهنّ من الأمير أبي زكرياء الّذي ذهب بعيدا في اعتباراته وأراد استشارتهنّ أوّلا في الأمر، فبعث قهرمانة قصره تبلغهنّ الخطبة على لسانه فكلّمت المخطوبة قائلة لها:

- كلّفني مولانا بأن أبلّغك قوله: هذا ابن عمّك وأحقّ النّاس بك لقرابته منكنّ وكفاءته لكن...

فكان جواب الفتاة: قولي للأمير: "لو كان لنا ابن عمّ ما كفلنا الأجانب".

ولم تزد على ذلك كلمة.

لم يعلّق الأمير على هذه الإجابة ولم يأخذ في خاطره من قسوة الرّد، بل زاد في إكرامهن وبالغ في رعايتهنّ وتركهنّ يعشن كما اخترن. ومن يومها لم يقترب رجل من بابهنّ ولم يجرؤ أحد على خطبة واحدة منهنّ، حتّى تقدّمن في السّنّ وهنّ عوانس وهلكن على تلك الحال. وقد عرفت شيخا مات منذ مدّة أدرك واحدة منهنّ أيّام صباه وكانت تناهز التّسعين من العمر وقال لي عنها: إنّها كانت من أشرف النّساء نفسا وأحسنهنّ خلقا وأزكاهن خلالا.

- أتصدّق هذا الكلام يا عمّ الجيلاني؟

- ماذا تقصد يا طوطو؟

- ألم تقع عين واحدة منهنّ على رجل أحبّته؟ ألم يعشن مغامرة في السّرّ؟ وهل قضين العمر كلّه متعفّفات في هذا القفص الفخم بلا رجل وبلا حبّ وبلا متعة مثل الرّاهبات؟ رغم أنّي أشكّ في عفّة بعض من عرفتهنّ من الرّاهبات؟ لا... لا أصدّق.

- أستغفر الله... أستغفر الله... معك حقّ عندما تذهب بك الظّنون مذاهب بعيدة. فأنت تتحدّث بلسان حالك ولا تعرف ما معنى العفّة يا هذا. هنّ أميرات، عشن في ظلّ العزّ والسّؤدد، وأبين الرّضوخ إلى الغير، وعندما غدر بهنّ الزّمان بقيت أنفسهنّ شامخة. أنتم النّصارى لكم عادات أو طقوس أو لا أدري ماذا، تسمح للمرأة أو للفتاة بأن تهب نفسها للكنيسة أو للدّير وتعيش راهبة زاهدة حتّى تموت، ونحن عكس ذلك فالزّواج عندنا نصف الدّين، ولا رهبنة عندنا لا في الدّين ولا في الحياة، فما وجه الغرابة في نظرك؟

- أنا لا أتصوّر أبدا أن تعيش امرأة محرومة من رجل طول عمرها أو على الأقلّ من الحبّ، ونفس الشّيء بالنّسبة إلى الرّجل.

- دعنا من هذا الآن. أنا لم أعش معهنّ ولم أدرك واحدة منهنّ لأخبرك بسرّ لا يعلمه إلاّ الله. لقد طلبت منّي أن أقصّ عليك قصّة باب البنات وأسباب تسميته ففعلت، وافرض يا سيّدي أنّ واحدة منهنّ عاشت مغامرة ما، فهل يبقى ذلك خافيا على النّاس وخصوصا على الجيران؟ لا أظنّ. والآن أخبرني ماذا ستفعل؟

- سوف أكشف لك عن ذلك ذات يوم.

توالت الأيام سعيدة على ريم والأمير على نفس الوتيرة، وزادت السّعادة باقتراب موعد الولادة، ورغم انتفاخ بطن ريم وتغيّر ملامح وجهها بفعل الحمل فإنّها لم تفقد شيئا من جمالها ومن سحرها، لكنّها لم تعد تمتّع الأمير وفضّلت أن تصرفه عنها في كثير من الأحيان لأنّها لا تريد أن تطمس في ذهنه صورة العاشقة الّتي عرفها منذ شهور.

- ما بك يا أميرتي؟ هل ألهتك عاطفة الأمومة عن مولاك؟

- لا يا مولاي، عاطفتي راسخة رسوخ الجبال، لكنّي لا أحبّ أن احتكرك طويلا حتّى لا يأتي اليوم الّذي تنطفئ فيه شعلة حبّك لي، لا أريد أن أصل إلى هذه النّقطة، أريد أن تحبّني دوما.

- دعك من الجواري والحريم، فأنت دائمة التّفكير فيهنّ، أعرف كيف أتصرّف معهنّ فلا تشغلي بالك بما يقلن أو بما يشعرن، أنا أحبّك أنت وقد تعوّدت الآن على امرأة تحبّني وأحبّها وتقاسمني شعوري ومتعتي ولن أجد هذا عند جارية أخرى.

- كيف عرفت يا مولاي أنّك لن تجد من تحبّك وتتفانى في حبّك؟ كلّ الجواري هنا يتطلّعن إلى إرضائك بكلّ الوسائل، ففيهنّ من تحبّك وفيهنّ من تريد...

- لن أجد من بينهنّ من تحبّني كما تحبّينني أنت، أو لن أجد واحدة أحبّها كما أحبّك. وقد حاولت عدّة ليال أن أعود إلى ما كنت عليه مع النّساء فوجدت أنّي لم أكن أبحث عن المتعة بل أريد العاطفة والشّعور العميق.

لم تتكلّم ريم فقد وضعت يدها على بطنها حيث كان الجنين يتحرّك وكان هذا الإحساس هو أعظم ما شعرت به فأنساها إحساسا آخر وجعلها أكثر تسامحا وعطفا...

- اقترب يا مولاي وهات يدك... ستشعر بحبّ آخر...

لمعت عينا الأمير سعادة حين تحسّس حركة الحياة في بطن ريم وسبّح بخشوع ثمّ طبع على جبين حبيبته قبلة حارّة وأراد الانصراف وهو حائر بين الإحساس بالسّعادة وبالانكسار في آن واحد، فقد تعدّد صدود ريم له وكلّ مرّة تقنعه بوجهة نظرها وتصرفه عنها بلباقة ولطف...

- مولاي... أقرأ على وجهك تلك المسحة الّتي لا أحبّ أن أراها أبدا، تعال واجلس بجانبي، أريد أن أسرّ لك بكلام.

جلس حيث أشارت وقد عاد الأمل إلى قلبه وابتسم ابتسامة فضحت فرحه الصّبيانيّ.

- إلى هذا الحدّ تحبّني يا مولاي؟

- لا أستطيع أن أحدّد هذا الحدّ، إنّه مدّ شاسع وكبير كبر الدّنيا.

- ما قولك في ريحانة؟ فوجئ بالسّؤال الّذي لم يخطر على باله أبدا ولم يعرف سبب ذكر هذه المرأة الآن.

- كيف لا أعرفها وهي صديقتك وجليستك وحافظة أسرارك على ما أظنّ... لكن لا أدري لماذا لم أفكّر في ريحانة ولم أنظر إليها نظرة رجل إلى امرأة في حين أنّها جميلة وتتمتّع بجاذبيّة خاصّة، ولا أدري لماذا غاب عنّي سحرها، ربّما لأنّها قريبة منك كثيرا فطمس جمالك جمالها وغلب سحرك سحرها... لا أدري... لكن، أخبريني لماذا سألتني عن ريحانة؟

- ريحانة تحبّك كثيرا يا مولاي. ولا أدري هل تحبّك مثلما أحبّك أنا أو أكثر... هي كتوم جدّا ولا تريد أن تتحدّث معي في هذا الموضوع. وهي لا تنتظر سوى فرصة واحدة لكي تشعرك بمقدار حبّها لك... وأنت غافل عنها. فهل ستتناساها حتّى يذهب الدّهر بجمالها وبصباها؟

- أستغرب من امرأة تدفع بحبيبها إلى أحضان امرأة أخرى. ويعظم استغرابي لمّا تكونين أنت هذه المرأة. ولكن... لماذا ريحانة بالذّات؟ أستطيع أن أختار ما يحلو لي، لكن هذا لا يحلّ مشكل الشّعور بالحبّ وبالحنان الصّادقين.

- ريحانة مثلي تماما يا مولاي... ولأنّي أحبّك كثيرا فقد اخترت لك في هذا الظّرف من يحبّك حقيقة ويسعدك، وسوف تلمس ذلك بنفسك هذه اللّيلة مع ريحانة.

- لكن؟

- جرّب يا مولاي حبّا آخر غير حبّي إن كنت تحبّني حقّا.

*****

قرّرت ريم أن تنتقل إلى قصر رأس الطّابية وأن تصطحب معها بعض الجواري المغنّيات ومجموعة من الخدم وأن تستثني دعوة ريحانة لمرافقتها، وقبل أن تذهب استدعت القهرمانة كاتارينا:

- أعدّي ريحانة لمولانا إعدادا مميّزا، أريد أن يبلغني عنك مدح مولانا ورضاه.

- وأنت يا مولاتي؟

- أنا ذاهبة للاستجمام والرّاحة في جنان رأس الطّابية، ولا أدري متى سأعود. أعوّل عليك في ما أمرتك به، فإسعاد الأمير في غيابي مهمّتك الأساسيّة، ولك منّي بعدها مكافأة سخيّة.

غادرت ريم قصر القصبة دون أن يعلم الأمير محمّد المنصور. فقد انشغل مع والده أبو فارس في جلسة جمعتهما بصاحب الأشغال للنّظر في مسائل ماليّة تتعلّق باستعداد السّلطان للسّفر إلى جنوب البلاد.

كان اللّيل قد أرخى سدوله حين عاد الأمير إلى جناحه الخاصّ وفي نيّته الجلوس قليلا إلى ريم والسّؤال عن أحوالها وعن أحوال الجنين ومحادثتها وقد نسي تماما موضوع ريحانة، لذلك لمّا توجّه إلى غرفة ريم اعترضته كاتارينا وانحنت في ارتباك وهي تحاول الإشارة إلى جهة أخرى من الجناح.

- مولاي، لقد ذهبت مولاتي إلى جنان رأس الطّابية وأمرتني أن أبلغك أنّها ستقضي هناك بضعة أيّام، وقالت لي: أخبري مولانا أنّي لن أعود إلاّ حين أعرف أنّ ما اتّفقنا عليه قد حصل فعلا.

همهم الأمير وقد ظهرت على وجهه خيبة فقفل راجعا إلى جناحه لكنّ كاتارينا سارعت بقولها:

- مولاي... غرفتك هذه اللّيلة في ذلك الاتّجاه وقد أشرفت بنفسي على إعدادها وأرجو أن تنال رضاك... بمن فيها...

شعر الأمير وهو يتّجه إلى حيث أشارت القهرمانة بفوران ممتع يكتسح عروقه وبحبّة عرق تنزّ من جبينه، وكان يتبع كاتارينا بمتعة خفيّة، وقد اجتاحت خياله صور ريم بكلّ أوضاعها وتوقّفت صورة ريحانة في وضع واحد... صورة علقت بذهنه منذ مدّة ولم يستطع أن يمحوها من خاطره. فقد شاهد ذات مساء ريحانة وهي تمرح مع ريم وتزيّنها وهي نصف عارية ولم يعرف وقتها كيف ترك تلك الفرصة تمرّ دون أن يستعمل حقّه كصاحب الأمر والنّهي ليأمر بإعداد ريحانة وريم معا لقضاء ليلته، لكنّ ريم استطاعت ليلتها أن تستأثر به وأن تثنيه عن عزمه وتحدّ من جموحه، ومن وقتها لم يعد إلى التّفكير بطريقة

ملتوية في ريحانة، لكنّ إحساسه اللّيلة مختلف وغريب، فقد شعر ولأوّل مرّة، بالخوف وبالرّهبة من المجهول.

لقد اعتملت في نفسه مشاعر غريبة ولذيذة في آن واحد، فريم غائبة. لقد ابتعدت وتركت القصر خاليا من حضورها، وهذا الرّواق الطّويل الّذي يؤدّي إلى حيث ريحانة... آه من هذا الشّيطان الّذي يمتلك جسده في هذه اللّحظة ويدفعه إلى الجنون وإلى نسيان الحبّ والحنان وأشياء أخرى، آه منك يا ريم، فأنت حاضرة حتّى في لحظات الغياب كأنّك تقودين خطواته إلى حيث تريدين...

- كاتارينا.

- نعم يا مولاي.

- أعدّي لنا نبيذا.

- مولاي، عفوا... لم أعهدك تشرب... لذلك غفلت عن إعداد هذا الشّراب، لكن سوف يكون بين يديّ مولاي بعد لحظات... تفضّل يا مولاي هذه هي...

- دعيني أجلس هنا واذهبي لإحضار النّبيذ وبكلّ تكتّم، تصرّفي كما شئت وأحضريه.

انصرفت كاتارينا من باب جانبيّ وهي متعجّبة من هذا التّحوّل الفجئيّ بينما اتّجه الأمير إلى غرفة الميعاد الغريب، ولمّا وقف أمام بابها تردّد قليلا قبل أن يفتحه ثمّ ابتسم بخبث ممتع ودفع الباب ثمّ رفع السّتارة ليرى ريحانة في وضع لم يكن ينتظره أو يتصوّره إطلاقا.

*****

كان جوّ الغرفة عَبِقًا برائحة البخور، معتّما بالسّتائر، متمازجا بروائح أخرى من عطر فوّاح يموج من الخفاء، وكانت أضواء خافتة تنبعث من شموع رشقت في شمعدانات منزوية ترسل بهرة تشبه ضوء

القمر ليلة تمامه، لكنّ الأمير لم يشعر بكلّ هذا ولم ير ما حوله من زينة بل تسمّر بصره على مكان واحد، ولم يعرف هل يتقدّم أو يحجم، فقد انبهر بما رأى وتغيّم فكره وتعطّل لسانه عن الكلام وبقي برهة في مكانه لا يدري أيغلق الباب أو يتركه مفتوحا حتّى تأتي القهرمانة بالنّبيذ؟ ثمّ تمتم وبصره مازال معلّقا بتلك الرّؤية الشّاعريّة التي ظهرت له على أضواء الشّموع الخافتة.

- يا إلاهي... ما هذا الجنون؟ أين كانت هذه الرّوعة؟ تبّا لكنّ معشر العلجيّات، ما أروعكنّ وما أبدعكنّ في إظهار مفاتنكنّ.

كانت ريحانة واقفة بصدارة الغرفة وعلى بساط وثير كأنّه عشب وقد تشتّتت عليه مجموعة من الوسائد متعدّدة الألوان والأشكال فبدت كأنّها ثمار متناثرة على أرضيّة حديقة غنّاء ساعة الغسق.

*****

قطعت القهرمانة على الأمير دهشته لمّا دخلت حاملة طبقا عليه إبريق فخّاريّ وفواكه متنوّعة وضعتها على مائدة صغيرة ثمّ انصرفت بعدما استرقت النّظر إلى وجه الأمير وأدركت أنّه ضائع وسط هذا المخدع الكبير.

- أين النّبيذ؟

- وضعته في إبريق الماء، هل أصبّ لمولاي قدحا أو أنصرف؟

انصرفت كاتارينا بإشارة نفي من يد الأمير الّذي أخذ يتقدّم وهو ينظر في مرآة كبيرة وقفت أمامها الجارية الرّائعة.

كانت ريحانة عارية تماما، لا يكسو جسدها الرّائع سوى غلالة شفّافة من الحرير القرمزيّ، شدّت إلى كتفيها ونزلت منهما بانسياب ثمّ تفرّعت إلى أسفل في شكل دائرة انتشرت وامتدت حوالها وعلى الوسائد وفوق البساط.

كانت الغلالة تتموّج كلّما حرّكت ريحانة يديها، فقد رشق طرفان من أسفل الغلالة بسلسلتين ذهبيّتين شدّتا إلى سوارين يزيّنان معصمي الجارية الّتي كانت تتعمّد رفع يديها من حين لآخر لتسوّي شعرها الطّويل الّذي رشقت فيه مجموعة من الزّهور والرّياحين الفائحة بحيث تتموّج الغلالة الحريريّة كلّما تحرّكت اليدان إلى فوق أو إلى تحت.

تسمّر الأمير غير بعيد عن ريحانة ينظر تارة إلى المرآة العاكسة للوجه وللصّدر ولبقيّة الجسد الظّاهر تحت الغلالة، وتارة أخرى مباشرة إلى الكتفين العاريتين وللظّهر وللرّدفين وما تحتهما... ثمّ تقدّم ومدّ راحتيْ يديه وطوّق بهما الكتفين بلمسة سارية إلى الذّراعين ثمّ نزل بشفتيه على الجيد الطّويل فطبع عليه قبلات زاحفة حتّى دائرة العقد الّذي كان يزيّن الرّقبة الّتي تناثرت عليها خصلات الشّعر الطّويل وزهرات لم تستطع رقّتها الصّمود أمام هجمات الشّفتين الكاسحتين.

- وأخيرا... يا مولاي...

همست ريحانة وهي تتحمّل الرّجفة العاتية الّتي سرت في كامل جسدها فصمدت حتّى لا تشعر بالوهن ولتبقى واقفة فلا تجلس ولا تستلقي، فقد شعرت بأنّ الأمير سيفقد هدوءه ورقّته، فالتفتت إليه في غنج قائلة:

- مولاي... اسقني أرجوك.

تعثّر الأمير في الغلالة الطّويلة قبل أن يأخذ الإبريق الفخّاريّ ويصبّ قدحين ناول أحدهما لريحانة وشرب هو الثّاني على دفعتين... ثمّ مدّ يده إلى الجارية يريد استدراجها إلى حيث سيجلس.

- لا... يا مولاي... سأبقى واقفة هنا... حتّى نُفرغ ما في الإبريق من نبيذ، وستجلس أنت هناك تنظر إليّ من خلال المرآة أو مباشرة.

أحسّ الأمير بأنّ فعل الكأس الأولى قد سرى بسرعة في عروقه لأنّه لم يشرب منذ مدّة، ولأنّ هذه العلجيّة ستجعله يتعذّب ويتلذّذ بعذابه الممتع الّذي أخذ يكبر كلّما مرّ الوقت وتمادى إبحار نظره في عيني ريحانة...

مرّ الوقت فحسبه دهرا، وتعجّب من الإبريق الّذي مازال يعطي نبيذا ولم يفرغ، وزاغت عيناه فتعبتا من متابعة حركات الجسد البضّ المحبوس أمامه في تلك الغلالة.

- سأمزّق هذه الغلالة اللّعينة...

- لا يا مولاي... ابق في مكانك... مازلنا في البداية... أريد أن أسمعك وتسمعني. لقد صبرتَ عنّي زمنا... فما بالك لا تصبر الآن ساعة أخرى؟

ثقلت رأس الأمير بفعل النّبيذ، وانحبست في عروقه فورة الشّهوة، وتراقصت أمام عينيه ومضات الشّموع، وغاب وعيه في خضم حواسّه الباحثة عن الانفجار، حتّى طالت السّهرة وريحانة ترقص أمامه نشوانة، تعبث بعقله وتمنعه بتفنّن من الاقتراب منها وتشغله بحركاتها وبحديثها المثير.

- لماذا... هذا التّعذيب... ألا تتعبين هكذا؟ إنّك تعذّبين جسدك وتعذّبيني بهذه اللّعبة.

- لم أتعب أنا في الانتظار يا مولاي. لطالما تحمّلت الوقوف لوحدي، أتعذّب وأصمت وأسهد وأتلوّى في لهيب ناري... أنتظر منك لفتة أو ابتسامة أو إشارة... وأنت اللاّهي الغافل عنّي.

- إنّك شيطان رائع يا ريحانة، وما كنت أدرك هذا.

اقتربت منه قليلا ومدّت يدها إلى شفتيه فأخذها بلهفة وقبّلها بحرارة، ولمّا أراد أن يجذبها إليه سحبتها بدلال.

- مولاي... لماذا تجاهلت هذا النّعيم الّذي أمامك؟ لماذا عذّبتني كلّ هذا العذاب وأنت شاعر بأنّي أعشقك؟ ... لماذا استأثرت بامرأة واحدة

ونسيتنا جميعا؟ هل أستطيع أن أتجاهلك أو أن أصدّك عنّي كما فعلت أنت يا مولاي؟

- ها أنّك تردّين الفعل الآن وتتمادين في تعذيبي... إنّك تنتقمين منّي يا معذّبتي.

- ومن صدّك عنّي يا مولاي؟ إنّي لك... الآن... وغدا... وطول العمر...

- وهذا الرّداء الشّفاف الّذي يمنعني عنك... ألا تتركينه يسقط؟

- انظر يا مولاي، إنّه طويل وعريض، طول وعرض هذه الغرفة، فينتشر على أرضيّتها حتّى يلامس زواياها... به فتحة يمكنك أن تجدها لو بحثت عنها، ومنها تدخل لتصل إليّ... وعندما تصل سوف يلفنا الرّداء معا كأنّه يحتوينا... ألا ترغب في أن نلتحم يا مولاي؟

قام الأمير مترنّحا وأخذ يتحسّس الرّداء وكلّما تقدّم خطوة تعثّر في الحرير وريحانة تنظر إليه بتلذّذ وتضحك بدلال...

دار حول الجارية دورة كاملة ولم يجد الفتحة ولمّا عيل صبره رفع طرفا من أطراف الرّداء الأربعة ودخل تحته يحبو فمنعه الرّداء من التّقدّم لأنّه التصق بوجهه لرخاوته وتموّجه...

- إلى متى هذا العبث؟ ... ألا تمدّين لي يدك؟ ... أكاد أختنق بهذا الحرير... أكاد أنفجر...

- تقدّم يا مولاي... لم تبق بيني وبينك سوى خطوة واحدة... وبعدها تلامسني...

لمّا اقترب الأمير من ريحانة وهو يزحف تحت الغلالة الحريريّة دارت الجارية على نفسها فجأة فالتوت الغلالة فحدّت من تقدّم الأمير وحبسته حيث هو، ثمّ ابتعدت عنه قليلا ودارت حول نفسها دورة عكسيّة فانفتحت العقدة، فزحف الأمير حين اقترب منه الجسد العاري ومدّ يده ليمسك به وهو يضحك من فرط الغيظ والغُلب

والرّغبة... وعادت ريحانة إلى الدّوران مبتعدة عنه جاعلة بينها وبينه سلسلة من العُقد وكادت الغلالة أن تتمزّق من فرط الدّوران حتّى وصلت ريحانة إلى الرّكن المقابل من المكان الّذي انحبس فيه الأمير...

- سوف أعاقبك أشدّ العقاب... وأربطك بهذا الرّداء اللّعين... تعالي... هنا...

- سآتي يا مولاي... سآتيك...

تكوّرت ريحانة على نفسها ثمّ تدحرجت على البساط حتّى وصلت بين يدي الأمير المحبوس في الغلالة نفسها جامعة حولها الوسائد الصّغيرة الملوّنة... فألقى الأمير بنفسه على جسدها الملتوي وصاح...

- انتهت اللّعبة ووقعت في الفخّ، أنا أستطيع التّخلّص من الغلالة. أمّا أنت فلن تقدري على ذلك... إلاّ إذا مزّقت الحرير...

ودون شعور، وفي حركة جنونيّة امتدّت يده إلى كلّ شبر من الغلالة وراح يمزّقها بعنف وتشفّ ثمّ مزّق ما علق بوجهه فحرّر أنفاسه ثمّ خلّص يديه منه وخرج من الغلالة وطفق يعيد دحرجة جسد ريحانة حتّى أعادها إلى الزّاوية الّتي كانت بها. وبحركة عنيفة مزّق طرف الغلالة المشدود إلى سلسلتي الذّهب اللّتين تربطه بالسّوارين وأعاد دحرجة ريحانة بطريقة عرّت كامل جسدها... وكان انتصاره سببا في نشوة عارمة، فقد تمكّن أخيرا من ذلك الجسد الّذي امتنع عنه سهرة كاملة، فلم يطق صبرا وراح يتمسّح عليه برأسه في كلّ موضع زاحفا متشمّما وهو يتمتم بكلمات لم تفهمها ريحانة الّتي انزلقت إلى متاهات المتعة فأطلقت العنان لجموحها حتّى الانفجار.

*****

- من تحبّ أكثر يا مولاي... ريم أو ريحانة؟

نزل السّؤال على الأمير محمّد المنصور بكلّ ثقله، سؤال لم يكن

ينتظره وإن كان يشعر في قرارة نفسه أنّه سيلقى عليه ذات يوم أو ذات ليلة من طرف ريم.

لكنّ اللّيالي السّبع الّتي قضاها مع ريحانة في جنون الجسد منعته من إحضار الإجابة الحقيقيّة ولم يعرف كيف يردّ على ريحانة الّتي كانت واضعة رأسها على صدره وشعرها الكستنائيّ الطّويل ثائر على رقبته وعلى وجهه.

ترك خياله يبحر إلى أماكن عدّة دون توقّف ولا تركيز، ونسي أنّه مطالب بالإجابة، وعليه أن يتخلّص من المأزق الّذي أوقعته فيه هذه الفاتنة الّتي عاش معها أسعد اللّيالي وأحلاها إطلاقا.

- إنّي أقدّر صمتك يا مولاي... وما سألتك إلاّ للتّلهّي ولا أطمع في إجابة لأنّي أعرف أنّك لن تجيبني بصراحة، ولأنّي على يقين من أنّ مشاعرك نحو صديقتي ريم هي الأقوى. لكنّ شعور المرأة لا يستقرّ على حال خصوصا إذا كانت لها غريمة.

- من فيكما الغريمة يا ريحانة؟

- ثق يا مولاي أنّ ريم هي أعزّ كائن بقي لي في الوجود بعدك أنت يا مولاي... وإنّي أعزّ رفيقة بقيت لها في الوجود بعدك أنت أيضا، نحن امرأة واحدة في جسدين، اثنتان تكنّان لك حبّا لا حدود له... ولا يوجد بينهما حقد أو غيرة.

- لا أصدّق أبدا هذا الكلام لأنّي لم أسمع من قبل بمثل هذا الحبّ المتقاسم... ولا يمكن بأيّ حال أن تقبل أيّ امرأة مهما بلغت رحابة صدرها، وحتّى رجاحة عقلها، ومهما علت كذلك درجة ذكائها وحصافة رأيها، حبّ امرأة أخرى لزوجها أو لخليلها أو لمولاها، حبّا لا شيء وراءه... لا يمكن... مستحيل... وإن حصل فإنّي أرفض تصديقه. ثمّ من يعطي خيره لغيره كما يقال؟ من؟ ... لا أحد... لا... هذا هراء.

- هو خيرك كلّه يا مولاي... ونحن جواريك نبحث عن حظوة لديك وعن رضاك. وليس من مصلحتنا أن نتحاسد أو نكيد لبعضنا. ولسنا زوجاتك ولا نقدر على أن نتحكّم فيك... وليس لنا الحقّ إلاّ في حبّك فحسب... فلا تشغل بالك بما يمكن أن يحدث بيننا. وإن حدث فلن يصل إلى سمعك أبدا.

عادت ريم إلى القصبة بعد عشرة أيّام من غيبتها في جنان رأس الطّابية فلقيها الخدم والحشم وبقيّة الجواري لقاء الفرحة. ومع ذلك انطلقت الألسن بالسّؤال عن أسباب هذه الغيبة الاختياريّة وهل يعود ذلك إلى الغرام الجديد الّذي وقع فيه الأمير مع جاريته القديمة ريحانة؟

لم تجب ريم عن تلك التّساؤلات إلاّ بالابتسامة المعهودة وبالإجابة القاطعة.

- مولانا هو صاحب الشّأن هنا... وحقّه في الاختيار والتّفضيل مازال قائما... ولست إلاّ جارية مثلكنّ وبالتّالي لا أدّعي أحقّيّة ولا أنتظر محاسبة...

لمّا جاء المساء سارع الأمير إلى ملاقاة ريم وكلّه شوق لرؤيتها وفي نفسه شيء من التّردّد ومن الحرج ومن التّوجّس من السّؤال الّذي سيلقاه في عيني ريم، لكنّه ارتاح لمّا عانقته الحبيبة بكلّ حرارة ولم ير في عينيها سوى الحبّ.

مرّت السهرة في جوّ حميمي فلم يذكر فيها اسم ريحانة أو سألت ريم عن أسباب عدم ذهاب الأمير إلى رأس الطّابية للسّؤال عنها، ولم يظهر في كلامها ما يستشفّ منه غيرة أو عتاب، لكنّ الأمير فاجأها بالقول:

- سوف أسافر بعد غد إلى قفصة وسأبقى هناك قرابة الشّهر، أرجو أن لا تقلقي في القصر.

- يا إلاهي... إنّها غيبة طويلة يا مولاي، لا أحبّ السّفر ولا غيابك عنّي... وما قضيت الأيّام السّابقة في رأس الطّابية إلاّ بجهد جهيد، وها أنت تعلمني الآن بهذا البعاد الجديد.

- اذهبي إلى جنان أبي فهر، إنّه رائع أيضا وتفسّحي هناك حتّى أعود.

- كنت يا مولاي في جنان وأنتقل إلى جنان آخر؟ أفضّل في هذه الحالة البقاء في قصر القصبة. أو... آه... لقد راودتني فكرة يا مولاي وأنا في رأس الطّابية.

- ما هي يا غزالتي؟

- أريد الذّهاب إلى أحد حمامات مدينتكم.

- حمّام؟ حمّام عمومي؟ لا، هذا غير ممكن.

- لماذا يا مولاي؟

- لأنّه ليس من عادة الأميرات والجواري أن يخرجن من القصر ويختلطن بنساء العامّة، هذا ممنوع في عرفنا ولم يسبق لجارية أن خرجت من قصر السّلطان إلى الأماكن العامّة.

- لكن يا مولاي من سيعرف أنّي من نساء القصبة؟

ضحك الأمير ضحكة مرحة وقال لها وهو يلاطفها معانقا:

- وهل يوجد مثل هذا الحسن في الأزقّة وفي الدّروب وفي حمّامات الرّعيّة؟

- مولاي... لقد تاقت نفسي إلى الذّهاب إلى حمّام تونسيّ... وهذا رجاء من... امرأة حامل... فهل يرفض الحبيب طلب حبيبته؟

- في هذه الحال سوف آمر بإخلاء الطّريق والحمّام معا لكي ترضى مالكة القلب وتمرّ نزوة الحمل الغالي بسلام.

- لا يا مولاي... لا أريد ذلك... أريد أن أرى نساءكم وأختلط بهنّ وأسمعهنّ، سوف أذهب مع ريحانة بدون خدم أو حرس، وسوف نتنكّر.

- ريحانة؟ إنّها شيطانة... و...

صمت الأمير وقد انتقل فكره وحواسّه إلى ريحانة وتخيّل نفسه في حمّام النّساء.

- كانت رائعة معك يا مولاي أليس كذلك؟ وهذا ما كنت أريده رغم أنّه عذّبني عذابا لا يطاق وتحمّلته عشر ليال بأكملها من أجلك... من أجل إسعادك يا مولاي... فهل مازلت تحبّني؟

سارع الأمير بكلّ ما أوتي من عطف ومن حبّ وعانق ريم ولثمها وهو يتمتم في أذنها وفي شعرها.

- أحبّك... أحبّك، أكثر ممّا تتصوّرين... فلا تتوجّسي من ريحانة... أو من غيرها، أنت مولاتي ومولاتهنّ جميعا... وستبقين كذلك إلى مماتي...

- اللّطف عليك من الموت يا حبيبي.

ضحك الأمير لهذا القول وسألها متعجّبا:

- من أين لك بهذا القول الّذي لا تقوله سوى واحدة من قاع المدينة؟

- من نساء الحمّام يا مولاي.

راح الإثنان في ضحكة ملء الوجدان.

*****

أرادت ريم الذّهاب إلى الحمام رفقة ريحانة وبمفردهما، لكنّ القهرمانة كاتارينا أثنتهما عن عزمهما ونصحتهما بالانتظار يوما أو يومين ريثما تعيّن لهما امرأة من "بَلْديات" المدينة من معارفها لترافقهما، لأنّ الحمام بعيد عن القصبة والطّريق إليه ملتوية ولا يمكنهما معرفتها، أضف إلى أنّهما ستذهبان إلى حمّام عموميّ لأوّل مرّة، كما ستغادران القصبة نحو المدينة لأوّل مرّة أيضا.

بعد يومين حضرت إلى الجناح الخاصّ بريم امرأة في الثّلاثين من العمر ممتلئة الجسم حلوة الوجه تبدو عليها آثار النّعمة، رداؤها صوفيّ شفّاف وفي معصميها مجموعة من الأساور الذّهبيّة.

- هذه صديقتي التّونسية "منّانة"... تسكن غير بعيد عن القصر، في حومة الحلفاوين، تعرف مسالك المدينة جيّدا. سوف ترافقكما إلى حمّام لا يبعد كثيرا عن حومتها. فإذا أرادت مولاتي أن أذهب معكما فإنّي...

- لا يا كاتارينا... أشكرك... وفّري لنا لوازم الحمّام وخادمة لحمل صرّ الثّياب، وسترافقنا هذه السّيّدة الجميلة.

- لقد كلّفت الوصيفة "ياقوتة" بحمل الثّياب وبالاعتناء بكما دلكا وغسيلا، فهي تتمتّع ببنية قويّة وتستطيع أن تقضي يوما كاملا في بيت السّخون دون كلل، وتقدر أيضا أن تغسل وتدلك لعشر نساء تباعا.

التحفت ريم مثل البَلْديّات بعدما قضت ساعة كاملة وهي تتدرّب على الالتحاف بالسّفساري ثمّ خرجت لأوّل مرّة من قصر القصبة إلى المدينة وقد شعرت بالسّعادة العارمة وهي تختلط بجموع النّاس وتتفرّس في وجوههم وقد أدهشها لباس بعضهم. فهي لم تر في القصر سوى الأناقة والنّعمة على الوجوه والهيئات والألبسة، وها هي اليوم تكتشف حياة الأحياء والأسواق وحياة النّاس البسطاء وفقراء الدّروب والأزقّة، وكآبة وجوههم الّتي حفرها وقع الحياة والكدّ والسّعي وراء الرّغيف، ولم تصدّق عينيها وهي ترى كثيرا من الأطفال وحتّى الرّجال يمشون حفاة نصف عراة لا تكسو أجسامهم سوى خرق بالية أو مرقّعة...

- ما هذا يا منّانة؟ ... إنّ مدينتكم تعجّ بالمناظر الّتي تدعو إلى الشّفقة... وما هذا التّراب والغبار والوحل والمياه المدلوقة أمام كلّ عتبة.

- هذه يا مولاتي أحياء عامّة النّاس وأزقّتهم... وليست قصورا أو أجنحة فخمة... ألم تعيشي في مدينة؟ ألا تعرفين أنّ الفقر والغنى في كلّ مكان من الدّنيا؟ ... هذا فقرنا ترينه بعينيك وليست لنا حيلة لإخفائه... ثمّ لا تنسي أنّ لنا أماكن في المدينة فيها ما يروق ويسرّ العين ويطيب فيها

العيش. تونس مدينة جميلة فلا تغرّنك مظاهر البؤس الّتي رأيتها، عندنا أيضا مظاهر الغنى والترف في دور لا تصلها عيون الغرباء، سوف آخذك يا مولاتي ذات يوم إلى إحداها وسوف تكتشفين دنيا أخرى، قولي لي، هل تريدين الذّهاب إلى أقرب حمّام أو إلى حمّام أبعد وأنظف؟

- أيّهما أقرب؟

- حمّام زرقون من جهة باب البحر... ذهبت إليه مرّة واحدة منذ مدّة ولم أعد إليه لأنّه لم يعجبني... أمّا أحسن حمّام أعرفه وأغتسل فيه دوما فهو حمّام الرّميمي الموجود ناحية باب الخضراء في المنطقة الشّماليّة من المدينة، أصحابه من سلالة أمير أندلسيّ.

- أمراء الأندلس؟ ماذا يفعلون هنا؟ هل أضاعوا ملكهم ولم يجدوا غير حمّام يتمعّشون منه؟

- لا... ليس هكذا... لقد حكى لي أبي رحمه الله، أنّ صاحب الحمّام الأوّل، أي الّذي أنشأه كان فعلا أميرا لمدينة أندلسيّة تسمى ألمريّة، وقد كان من أنصار الحفصيّين، وصديقا للأمير أبي زكرياء الأوّل مؤسّس الدّولة، لكن غدر به الزّمان ووقع الاستيلاء على مدينته من طرف أحد أمراء بني الأحمر فلم يجد الأمير محمّد ابن الرّميمي، وهذا اسمه، سوى الالتجاء إلى صديقه أبي زكرياء الّذي اقتبله في تونس وأكرم وفادته وأنزله بالمدينة مبجّلا فعاش الرّجل في رخاء بعيدا عن الحكم عيشة هادئة وسعيدة. ومن جملة ما بناه من دور وحوانيت، هذا الحمّام الّذي سمّيته لك والّذي عرفناه باسم حمّام الرّميمي... فإلى أيّ حمّام تريدين الذّهاب يا مولاتي؟

- أريد أن أتمشى أكثر ما يمكن رغم أنّي بدأت أشعر بالتّعب من هذا الحمل.

- أتمنّى لمولاتي أن ترزق بولد. إن شاء الله حمّام الهناء والخلاص، في أيّ شهر أنت الآن يا مولاتي؟

- في الثّامن.

- ربّي يخلّص وحلك. وهذه الفاتنة صاحبتك؟ هل هي حامل أيضا؟

ابتسمت ريحانة لمنّانة ابتسامة لم تظهر إلاّ في عينيها فقد كانت وجوههنّ محجوبة كبقيّة النّسوة اللاّئى اعترضنهنّ في الطّريق... أجابت ريحانة مازحة:

- لا أريد أن أجد نفسي ذات يوم مكوّرة البطن بهذا الشّكل.

- لا تقولي هذا يا أختاه، فما زلت في مقتبل العمر... الحمل نعمة ربّي. سوف يأتي يوم تحنّين فيه إلى ولد، أدعو لك من كلّ قلبي أن لا يقع لك ما وقع لي، فقد تزوّج عليّ زوجي ثلاث نساء من أجل ولد لم يرزقني الله به، وها أنا اليوم في الثّلاثين بدون زوج قارّ... أسكن في دار كبيرة وأرى بقيّة «ضرّاتي» في عزّ وخير مع أولادهنّ، وأنا وحيدة لا يزورني زوجي إلاّ لماما في حين أنّي زوجته الأولى... آه... من الرّجال ومن الزّمان... ها قد وصلنا إلى حمّام الرّميمي.

*****

صادف يوم دخول ريم وريحانة حمّام الرّميمي احتفال بالإعدادات لعرس إحدى بنات الحومة، لذلك وجدتا الحمّام في هرج ومرج وقد تعالت زغاريد النّسوة تباعا، فمع كلّ حركة تقوم بها العروس الّتي أحاطت بها مجموعة من الصّبايا ومن النّسوة والعجائز ووصيفات سمينات تتصاعد إيقاعات الدّربوكة ومزيد من الزّغاريد وعبق البخور وروائح العطر الّتي اختلطت برائحة الشّموع الّتي أدرك بعضها هواء فأطفأها.

تضايقت ريم من هذا الهرج ومن قبّة الحمّام الّتي ضاقت بالنّسوة فقالت لمنّانة.

- لا أستطيع البقاء في هذا المكان البارد... وفي هذا الضّجيج الّذي لا يطاق...

- هذه قبّة الحمّام ودكّاناتها، سأنزع لك ثيابك ثمّ ندخل بيت السّخون... ساعديني يا ياقوتة...

دخلت ريم وريحانة ورفيقتاهما بيت السّخون في حذر شديد وهما تحاولان التّأقلم مع ذلك الجوّ الّذي امتلأ بخارا وأحال بقيّة النّساء إلى أشباح تروح وتجئ في ضوضاء وجلبة وشقشقة الماء وصياح الصّغار والنّساء. وكانت ريم تخطو بالقبقاب العالي بحذر شديد، فقد شعرت بالدّوران فأسندتها ياقوتة الوصيفة وساعدتها على شقّ طريقها حتّى "دكّانة" بيت السّخون...

- لا... لا... لا يمكن أن أبقى هنا... سأختنق وسيغمى عليّ... كيف يستطعن البقاء هنا؟ أرجوك يا منّانة أدركيني بقردل ماء بارد أو أخرجيني من هنا.

- سأفرد لك مطهرة وسأغسل لك أنا وياقوتة... اصبري قليلا... هل تريدين كوب عصير من اللّيمون أو البرتقال؟

وبصعوبة شديدة تمكّنت ريم من التّأقلم مع جوّ الحمّام واستسلمت في دعة إلى تمسيد الوصيفة الّتي أظهرت براعة فائقة في التّدليك والغسل، وانشغلت ريحانة بالنّظر إلى النّسوة وإلى الصّبايا المغتسلات من كلّ الأعمار وعلى كلّ الأشكال وهنّ عاريات تماما...

- ما هذه الزّينة يا منّانة الّتي أراها على وجوه بعض النّسوة وعلى صدورهنّ؟

- إنّها وشم... وهي عادة قديمة عند بعضهنّ... وخصوصا عند البدويّات أو من الوافدات من الرّيف القريب من المدينة... وهي طريقة خاصّة للزّينة عند بعض الرّجال والنّساء، وهي عند البعض الآخر وقاية من أمراض معيّنة لا أعرفها. فبالنسبة إلى الرّجال فهم يوشمون عند اقتراب سنّ البلوغ وعند النّسوة قبل العرس بأيّام.

- وهل تذهب هذه الزّينة؟

- لا... إنّها مؤبّدة لأنّ طريقة رسمها تجعلها باقية وظاهرة على الجلد ولا يمكن محوها أبدا. رأيت إحدى العجائز توشم بدويّة بآلة صغيرة مذبّبة تشبه الإبرة تسمى "نشطان" تجرح بها الجلد سواء على اليد أو على الصّدر أو في أيّ مكان من الجسم ثمّ تدلك الزّينة المجروحة بالغنج أيّ بسواد الدّخان وبفحم مسحوق ثمّ تمسحها بأوراق شجر نظيفة ليلتئم الجرح وتظهر بعد ذلك الزّينة... وتبقى كما ترينها الآن على جبين تلك المرأة... هيّا أسرعي بالاغتسال... يجب أن لا تبقي في هذه الحرارة وأنت حامل.

خرجت ريم من الحمّام السّاخن تسندها ريحانة ومنّانة ولمّا وصلت إلى المربّع الخاصّ الّذي كانت استأجرته لها منّانة في الدّكّانة الكبيرة ارتمت على الفراش الوثير الّذي أعدّته لها ياقوتة فشعرت لأوّل مرّة بالطّهر الحقيقيّ وبأنّها خفيفة خفّة الفراشة رغم حملها الثّقيل الّذي أتعبها كثيرا وجعلها تتنفّس بصعوبة وتتحرّك بحساب حتّى أنّها استسلمت برهة لغفوة قصيرة لم تزعجها ضوضاء نسوة العرس إلى أن مضت ساعة من الوقت فاستفاقت على رائحة ممتعة تدغدغ الحواسّ:

- منّانة، ما أروع هذه الرّائحة، هل هي رائحة عطر؟

- رائحة "الحرقوس" يا مولاتي.

- حرقوس؟

- هي زينة كالوشم الّذي حدّثتك عنه منذ قليل، لكنّه يزول في ظرف أيّام، لأنّه خليط من عود القرنفل والحديدة والعفص، وتُزيّن به وجوه النّساء وأيديهنّ وأرجلهنّ زينة رفيعة كالنّقائش. وهو ذو رائحة منعشة ومغرية تدعو الرّجل إلى... تشمّم المرأة وتقبيلها.

غمزت منّانة ريم غمزة شقيّة وراحت في ضحكة سرعان ما كتمتها حياء وقالت:

- عفوا يا مولاتي إن تجاسرت، سوف أدعو الحنّانة لترسم لك نقيشة حرقوس خفيفة، فشهوة الحامل لا تردّ.

نقشت الحنّانة البدينة على جبين ريم رسما نباتيّا خفيفا ثمّ أردفته بنقطة ظاهرة أسفل الشّفة وقالت لها مازحة:

- الحرقوس للبوس يا مزيانة، واللّي ما عَنْدُو فْلُوسْ لا يْعَنَّقْ ولايْبُوسْ ولا يْشِمّ ريحة حرقوس، إن شاء الله في خلاص الوحل.

حين انصرفت الحنّانة بعدما زغردت احتفاء بريم وفرحا بما دسّت لها منّانة في كفّها من مكافأة سخيّة، قالت لريم وهي تساعد ياقوتة على لململة صرّ الحمّام:

- هيّا يا مولاتي سنذهب الآن...

- إلى القصر؟

- بل إلى دارنا لو شرّفتني بقبول الدّعوة إلى دار أبي لنفطر هناك... فقد أوصيت أمّي بأن تحضر لنا كسكسي... وأظنّ أنّك لا ترفضين أكل الكسكسي في دار أحد رعايا مولانا السّلطان... أتجاسر وأقول إنّه أحسن من كسكسي القصر...

- ما خرجت اليوم يا منّانة إلاّ لأقضي معك وقتا أتعرّف فيه على الحياة خارج القصر... أين تقع دار أبيك؟ ... ولماذا... لا نذهب إلى دار زوجك؟ ...

- لا أحبّ أن أجمعك بضرّاتي... ولا أجد الرّاحة في تلك الدّار... دار أبي تبقى داري وأستطيع أن أعيش فيها بكلّ حرّيّة، وهي تقع قرب سوق الشّمّاعين وسوق العطّارين، غير بعيد عن القصبة، سترين أجمل سوقين في المدينة، روائح وألوان تذكّرك بأجواء الفرح، وعلى كلّ حال فكلّ الدّروب الّتي سنسلكها تؤدّي رأسا إلى قصر القصبة.

قضى أنطونيو أشهرا في تصيّد بارقة أمل تمكّنه من العيش في مدينة تونس الّتي بدأت تقلقه بضيق بعض مسالكها ودروبها وبالوحل الّذي تحدثه الأمطار في هذا الفصل الشّتائيّ، وزادت عليه وحدته وغربته قنوطا فلجأ إلى مجالسة عمّ الجيلاني الّذي وجد فيه الصّديق الكبير والرّجل المجرّب والحكيم الّذي أخرجه كم من مرّة من عذاب يأسه وزيّن له الصّبر والعزيمة.

كان كلّ عشيّة يرافق سي إبراهيم بن مخلوف من باب البحر إلى حومة باب البنات أين يجتمع الثّلاثة في حانوت صغير على ملك صهر سي إبراهيم الّذي كان يستعمله لسهراته مع أصدقائه حيث يتسامرون ويتلهّون بسماع حكايات ألف ليلة وليلة أو يقرؤون القرآن أو يستمعون إلى أحدهم يروي لهم سير العظماء أو يروي لهم أحاديث نبويّة شريفة. ومنذ أن أقعده مرض مزمن أعطى المفتاح لسي إبراهيم وترك له حرّيّة استعمال الحانوت في الغرض الّذي يريده. ولم يجد سي إبراهيم أحسن من الحانوت ليجتمع فيه أحيانا مع عمّ الجيلاني وأنطونيو حين يكون على غير موعد مع أصدقائه التّجّار. وكان يحاول أثناء سهراتهم أن يقنع أنطونيو بالدّخول في دين الإسلام والتّفكير في الزّواج بتونسيّة والاستقرار بالمدينة حتّى يجابه الحياة وينسى حبيبته. لكنّ الشّابّ الفينيسيّ رفض الاستماع إلى كلام العقل وطلب من صديقه ألاّ يعود إلى موضوع الدّين إلاّ حين يطلب منه ذلك أو حتّى تحين الفرصة. فهو مهتمّ بحياته الآنيّة لا بتلك الّتي هناك، في السّماء، أمّا الآن فعقله مشغول ومشاعره غير مستقرّة على حال...

ذات سمر سأل عمّ الجيلاني أنطونيو سؤالا عفويّا للخروج من مأزق الحديث عن الدّين فقال:

- لم تخبرني يا طوطو من أيّ برّ أنت، وما اسم المدينة الّتي جئت منها، وكيف هي؟

تدخّل سي إبراهيم قائلا:

- سؤال وجيه. تصوّر يا عمّ الجيلاني أنّي لم أسأل صديقنا هذا السّؤال أبدا. لا أدري لماذا. فربّما لأنّي أعرف قصّته وكيف جاء إلى بلدنا، وكأنّي بذلك عرفت كلّ شيء عنه، رغم معرفتي السّطحيّة. سماعا طبعا. بالبندقيّة.

- بندقيّة؟

- اسم البلاد الّتي جئت منها يا عمّ الجيلاني، هي بلغتكم اسمها البندقيّة. أمّا بلغتنا الإيطاليّة فتسمّى فينيسيا.

- إذن بيننا وبينكم البحر؟

- نعم يا عمّ الجيلاني، فحتّى فينيسيا كلّها تعوم في البحر، إنّها مجموعة كبيرة من الجزر المتقاربة جدّا، تصل بعضها ببعض جسور وقنالات، ودروبها كلّها ماء.

- غريب أمركم يا معشر النّصارى، كلّكم بدع، وكيف تتنقّلون من دار إلى دار؟

- بالفلايك الّتي نسمّيها قُندُول، وقد عملت ناقلا على إحداها، تنقل البشر والحيوان والسّلع على حدّ السّواء. فينيسيا رائعة يا عمّ الجيلاني. آه لو تراها! قصور فخمة وكنائس عظيمة وساحات كبيرة تعجّ بطيور الحمام.

- يبدو أنّ بلدكم غنيّ يا طوطو؟

- جدّا جدّا، فينيسيا سيّدة الدّنيا في التّجارة، فهي تستورد السّلع من الشّرق لتبيعها إلى الغرب بأضعاف أضعاف أثمانها.

- لماذا؟ ألا تتّقون الله في عباده.

- لا يا عمّ الجيلاني، المسألة ليست في التّقوى، بل في نوعيّة السّلع وفي تكاليف جلبها من أقاصي الدّنيا، نحن نجلب السّلع من بلاد الهند والسّند ومن الصّين ومن الجزيرة العربيّة ومن الشّام ومصر، قوافل وصحاري وبحار ومراكب، كلّها بمقابل باهظ الثّمن.

- وماذا تجلبون من هذه البلدان؟

- كلّ ما يخطر على بال، معادن، خشب، أقمشة من الحرير، ذهب وفضّة، بهارات سكر وحبوب، وحتّى عبيد... نعم بشر يباع في المزاد العلنيّ كأيّ سلعة.

- وأنت يا طوطو، ألم تستهوِك التّجارة العظيمة هذه؟

- التّجارة قوامها المال يا عمّ الجيلاني، وسي إبراهيم يدرك هذا جيّدا، فحتّى لو اقترضت مالا من المرابين اليهود فإنّك تفلسَ قبل أن تستثمره بسب كثرة المزاحمة، وأنا مفلس، فقير، مات أبي في البحر وأنا في المهد، وكان صيّادا فقيرا، والفقير عبارة عن رجل مبتور اليدين والرّجلين، وتجّار البندقيّة وحكّامها يا عمّ الجيلاني، أغنياء جدّا جدّا لا يطولهم أبدا ضعفاء الحال من أمثالي، فنحن جئنا من القاع وسنبقي فيه أبد الدّهر.

- مكتوب يا ولدي، يرزق الله من يشاء من عباده.

تدخّل سي إبراهيم سائلا:

- قيل لي إنّ ميناء البندقيّة عظيم يا أنطونيو، أعظم من مينائنا ومن دار الصّناعة عندنا، وبما أنّك تعرفهما فكيف تراهما؟

ضحك أنطونيو ضحكة عالية ثمّ أردف قائلا:

- يا سي إبراهيم، ذكرت منذ حين أنّ البندقيّة سيّدة الدّنيا في التّجارة البحريّة، وهذا النّشاط العظيم يستلزم موانئ وأساطيل من المراكب التّجاريّة والحربيّة لتأمين السّبل، وبحّارة يعدّون بالآلاف، إضافة إلى مخازن السّلع وغير ذلك...

قال عمّ الجيلاني وقد أخذته الغيرة على تونس:

- على كلّ حال لن ترتقي قصوركم ودياركم إلى عظمة قصر القصبة وفخامته، ولا صوامعكم إلى شموخ صومعتي القصبة وجامع الزّيتونة وغيرهما.

- معك حقّ يا عمّ الجيلاني ما دمت لا تعرف البندقيّة وقصورها وكنائسها المنقوشة بالذّهب والعالية صوامعها علوّ تحليق الطّير في السّماء، فإنّي غير قادر على إقناعك أنت وسي إبراهيم بصواب كلامي، أقول لا مقارنة بين البندقيّة وتونس، لا مقارنة إطلاقا. أعطيكما مثالا بسيطا وملموسا. أظنّ أنّ لكما فكرة عن قصر سلطانكم؟

- عمّ الجيلاني له فكرة باعتباره قد دخله مرارا، أمّا أنا فلا.

- طيّب يا سي إبراهيم. لنتخيّل فقط عظمة قصر القصبة من الدّاخل، ولنقل إنّه فخم، وهذه حقيقة ما في ذلك شكّ. ولنقارنه بأبسط دار في زقاق من أزقّة المدينة.

ثار عمّ الجيلاني ولم يترك أنطونيو يطرح المقارنة:

- تريد أن تقول إنّ مدينتكم الغاطسة في ماء البحر هي عبارة عن قصر فخم، ومدينتنا عبارة عن دار متواضعة؟ لا... لا... فتونس المحروسة لا تضاهيها مدينة في الدّنيا سواء أكانت في الماء أو في السّماء، أنت لا تعرف من المدينة ومن ديارها سوى باب البحر، وباب البحر مجعول للبرّانيّة من أمثالك. فلا تتحدّث بما تجهل يا ولد.

- عفوا يا عمّ الجيلاني. لا تأخذ في خاطرك هكذا. أعرف أنّ لكل مدينة عراقتها ورونقها وسحرها وخصوصيّاتها، وإنّما أردت أن أقول، وأنا أصيل البندقيّة، وها أنا أعيش في بلدكم، وقد طاب عيشي فيه فعلا، إنّ الفرق بين البندقيّة وتونس هو حقيقة ملموسة. البندقيّة بهرج صارخ، تكاد تشعّ ذهبا، مدينة عائمة، غنيّة واسعة. ومدينتكم صغيرة محبوسة بين سورين، كئيبة بائسة ضيّقة الدّروب قصيرة الدّور والبناءات و...

صاح عمّ الجيلاني لا إراديًا وقام منفعلا يريد المغادرة وقال:

- وماذا تنتظر إذن يا سيّد؟ إرحل إلى بهرجكم ودعونا في ضيقنا ولا تضيّقوا علينا بحضوركم معشر العلوج في أرزاقنا وفي كسبنا ما دام لا يعجبكم العجب. أنتم تأكلون الغلّة وتسبّون الملّة، أعوذ بالله.

تدخّل سي إبراهيم لتهدئة عمّ الجيلاني، فهدأ قليلا بعد أن استعاذ من الشّيطان، لكنّ غيرته على البلاد جعلته يندفع مرّة أخرى لإغاظة أنطونيو فسأله مستفزًا إياه قائلا:

- باهي. هل عندكم جامع عظيم مثل جامع الزّيتونة عندنا، إنّه منارة علم يأتيه النّاس من كلّ الدّنيا؟

ابتسم أنطونيو وردّ دون أن يدرك أنّه سينزلق بالكلام إلى ما سيغضب عمّ الجيلاني فقال:

- أوه! عندنا ما أعظم وما أفضل من جامعكم، عندنا كنيسة القدّيس "سان مارك" المنتصبة بشموخها وبعظمتها في قلب فينيسيا، إنّها عالية قوامها أعمدة رائعة، إنّها من الذّهب الخالص، كلّها زخارف ونقوش وتماثيل ورسوم رائعة، لا تضاهيها في عظمتها أيّ بناية أخرى في الدّنيا قاطبة. أمّا جامعكم فهو بسيط جدّا، محصور بالأسواق وبالدّيار ولا يوحي بالعظمة ولا...

- بالله، بالله! جامعنا بسيط؟

قام عم الجيلاني مرّة أخرى غاضبا، فرجاه سي إبراهيم بأن يقعد ويهدأ قائلا له:

- أُقعد يا عمّ الجيلاني أرجوك، واستمع إلى صديقنا، فهو يجيب عن سؤالك بما رآه وبما يعرفه، فما غلبنا الفرنجة إلاّ لأنّنا سريعا ما ننفعل، دعنا نستوعب أشياء نجهلها ونسمع عنها الحكايات، وهكذا نتعلّم دون عناء السّفر.

راح أنطونيو يعتذر لعمّ الجيلاني حتّى هدأ قليلا وترك سي إبراهيم يوجّه الكلام إلى أنطونيو قائلا:

- في البساطة يا صاحبي تعبّد خالص لوجه الله، فديننا الحنيف قائم على عبادة الخالق دون سواه، ودون أن يعترض عين المؤمن وهو في المسجد لا بهرج ولا ذهب ولا تماثيل ولا أيقونات، فكنائسكم تشغل العين والعقل بالزّخارف وبعلوّها الشّامخ وبقبابها العالية، فتحجب بذلك عن المتعبّد التّوجّه رأسا إلى خالقه، في حين أنّ مساجدنا بسيطة جدّا لأنّها خالية من روح الشّرك بالله، فنحن معشر المسلمين لا نشغل عيوننا وعقولنا ببهرج الألوان وببدائع النّقوش، وبذلك لا تعمى أبصارنا عن الاِتّجاه إلى السّماء عبادة ودعاءً وتذلّلا إلى الخالق، لا إلى صور المخلوق وإلى تماثيله.

قال أنطونيو معقّبا ودون اقتناع:

- ومع ذلك تبقى كنائسنا عنوانا لعظمة ديننا.

كاد النّقاش بين عمّ الجيلاني وأنطونيو يؤول إلى شجار لولا تدخّل سي إبراهيم ليلتها لتهدئة عمّ الجيلاني وإقناعه بصواب بعض كلام أنطونيو النّابع من الحقيقة والواقع اللّذيْن شبّ عليهما، باعتباره "برّاني" كما ذكر، وباعتبار أنّ البرّاني عن البلاد يراها بعين مجرّدة من العاطفة، لحدثت بين الرّجلين جفوة وفُرقة.

كان جوّ العشيّة لطيفا رغم برد أواخر أيّام فصل الشّتاء، وكانت أشعّة الشّمس تبعث شيئا من الدّفء والأنس في الدّروب والأسواق وكثيرا من الحبور في نفوس المارّة الّذين بدؤوا يأخذون طريق العودة إلى ديارهم قبل الغروب. وكان أنطونيو وسي إبراهيم في طريقهما إلى حومة باب البنات للالتقاء كالعادة بعمّ الجيلاني الّذي دعاهما قبل يوم للعشاء وقضاء السّهرة معه.

- لماذا تريد المرور من نهج جامع الزّيتونة دائما يا أنطونيو؟ هيّا نسلك طريقنا من درب "الطّويلة" فهو طويل فعلا لكنّه يوصل أيضا إلى باب البنات...

- لا أحبّ ذلك المسلك ولا أشعر فيه بالرّاحة... لا أعرف سبب ذلك... وأحبّ المرور بهذا الدّرب، وقد تعوّدنا على ذلك كلّ عشيّة. فما الّذي طرأ على العادة؟ ثمّ إنّي أحبّ سوق العطّارين وأتباطأ فيه لأتشمّم الرّوائح الزّكيّة.

- لك ذلك يا صديقي.

كانا يمشيان في صمت حتّى وصلا إلى مستوى مدخل سوق الشمّاعين[1]، وكانت معروضات حوانيت العطّارين تشغلهما عن النّظر إلى الغادين والرّائحين بحيث لم يلاحظا النّساء الأربع اللاّئي كنّ خارجات من إحدى الدّور من جهة سوق الشمّاعين في اتّجاه القصبة...

لاحت التفاتة من أنطونيو فرأى امرأة حاملا تساعدها رفيقاتها على المشي ببطء فغضّ بصره احتراما للحامل وواصل طريقه، لكنّ شعورا ما جعله يلتفت وراءه ليلقي نظرة فضول على تلك المرأة الحامل ثمّ يتأخّر خطوتين عن سي إبراهيم متظاهرا بنزع حصاة من نعله في انتظار وصول النّسوة إلى مستواه.

كان اهتمامه بالمرأة الحامل أكثر من اهتمامه برفيقاتها بدافع خفيّ وغريب، لذلك تجاسر وركّز بصره على العينين إذ لم ير من وجهها سوى عينيها.

بدأت نار خفيّة تتصاعد في داخله وتسري في عروقه وتجتاح وجدانه وتهزّ قلبه بدقّات متسارعة وأصيبت رجلاه فجأة بالوهن فلم يستطع مواصلة السّير فأمسك بذراع سي إبراهيم:

---

[1] سوق الشمّاعين: صار سوق البلاغجيّة لكن هذه الصناعة اندثرت اليوم وبقي الإسم بغير مسمّى.

- سي إبراهيم... سي إبراهيم... لا أدري هل أنا في حلم أو في يقظة... لا أدري... لقد رأيت الآن عيون ماريا.

- أين ذلك... أين؟

التفت سي إبراهيم إلى حيث أشار أنطونيو فرأى أربع نساء ملتحفات...

- أين رأيت عيون ماريا، ومن هي ماريا بين هؤلاء؟ ...

- تلك المرأة الحامل..

- يا مجنون... يا أهبل... ماريا في قصر السّلطان... لا تخرج منه أبدا... ولن تخرج منه إلاّ على نعش، لم أسمع من قبل بجارية خرجت من هناك، وحتّى لو حدث ذلك فإنّها تكون على محفّة أو في عربة خاصّة يحيط بها الحرس... ثمّ أخبرني بربّك، ماذا تفعل جارية في الأسواق وفي هذا الوقت من العشيّة؟ هيّا... هيّا... ودعك من خيالاتك... فقد أصبحت الآن ترى ماريا في عيون النّساء... وأين؟ في عيني امرأة حامل؟ ومن عامّة النّاس، دعنا يا صديقي من المشاكل... ولا تنسَ أنّ للنّساء حرمة هنا... فلا توقعنا في مأزق نحن في غنى عنه...

اقتنع أنطونيو بكلام صديقه وواصل السّير بتثاقل وتراخ بعدما نفخ الأمل في صدره نفخة حياة جديدة، لكن طار الأمل، فقد شعر بالحزن الشّديد يلفّه، وتمنّى لو يجلس ولو للحظة إلى ماريا ويشبع بصره من رؤية وجهها الصّبوح، ويسمعها تتكلّم أو تواسيه على الأقلّ بكلمة واحدة... وغرق للحظلة في تخيّالات عبثيّة بينما ظلّت مهجته وراءه وقلبه يقول له إنّ شيئا ما يحدث على بعد خطوات منه.

لم يقاوم الدّفع الّذي جعله يلتفت عنوة ويرسل نظرة كالسّهم إلى عيني الحامل... فكان الردّ فوريّا، إذ سمع كلمة... لا... بل سمع اسمه... سمع المرأة تلفظ اسمه بدهشة... وتقول باللّغة الإيطاليّة:

- سانتا ماريا!... غير... معقول... أنطونيو... إنّه مجنون؟

*****

كاد يغمي على ريم لمّا رأت أنطونيو وتعرّفت عليه فشعرت بوهن جعلها تميل بكلّ ثقلها على ياقوتة الّتي سارعت لإسنادها وقد ارتبكت وزاد ارتباكها حين كادت ريم تقع أرضا فسارعت ريحانة ومنّانة لإجلاسها على مقعد موضوع أمام محلّ تاجر عطور وقد أصابتهنّ رجّة خوف من وقوع مكروه للحامل فكانت ياقوتة هي السّبب في مزيد إحداث الإرتباك حين استنجدت ببعض المارّة الّذين أسرعوا للاستفسار عن حالة الحامل، وتطوّع أحدهم لجلب إناء ماء من محلّ قريب ورشّ قليلا منه على وجه المرأة بينما راحت منّانة تضرب على صدرها وتحدّث نفسها بسوء المآل لو حدث للجارية مكروه.

- مولاتي... مولاتي... أفيقي أرجوك... هل ستلدين في الطّريق؟ ياقوتة ساعديني... ساعديني لإرجاعها إلى الدّار. الكلّ منك يا منّانة... وإلاّ لماذا عرّجت بنا إلى العطّارين؟

تدخّلت ريحانة وهمست في أذن ريم:

- ما بك يا حبيبتي؟ أجيبيني... هل تحسّين بألم؟

أسرع أنطونيو وسي إبراهيم يتطلّعان إلى الحلقة الّتي تجمّعت حول النّسوة الأربع، وأبعدا الفضوليّين لكن لم يقدر سي إبراهيم على منع أنطونيو من الإقتراب من المرأة الحامل لمحاولة نجدتها بذلك الإندفاع ولا على فهم سرّ رفيقه الّذي مضى يتحدّث إليها باللّغة الإيطاليّة.

- أنت ماريا... أنت هي دون شكّ؟ ... أنت حبيبتي عزيزتي... ماذا جرى لك... إنّي هنا...

تدخّلت منّانة بسرعة وبلهجة قاطعة:

- عيب يا سنيور، المرأة في عصمة رجل ولا يجوز محادثتها هكذا، ساعدنا على نقلها إلى تلك الدّار عوض الكلام الـ.. إنّها هناك على بعد خطوات من هنا... أسرع... أسرع قبل أن تلد هنا... يا إلاهي، يا للفضيحة... ماذا سأقول للقهرمانة... هيّا... أسرع أرجوك...

لم تدرك ريحانة أوّل الأمر ما الّذي يجري، لكنّها حين سمعت أنطونيو يخاطب ريم بذلك القول الحميم أدركت هول الموقف وذهب فكرها إلى بعيد حتّى أنّها كادت تمنع أنطونيو من التّدخّل، لكنّه كان أسرع منها حركة فاندفع لحمل ريم على ذراعيه وتبع منانة الّتي سبقته لتدلّه على الدّار.

كانت لحظة العمر بالنّسبة إلى أنطونيو فحمل الجسد الثّقيل بكلّ حنان ورفق رغم معارضة ريحانة وياقوتة... وكان يمشي ودموع السّعادة تغشي بصره وتمنعه من رؤية وجه ماريا، هذا الوجه الّذي عذّبه طويلا في يقظته وفي منامه، وكانت فرحته وسعادته وغبطته تدفعه كلّها إلى أن يسير هكذا حتّى لو شقّ البحر وعاد إلى البندقيّة... آه!... لو يستطيع أن يهرب بها الآن... حتّى ولو كانت على هذه الحال... المهمّ أنّه لقيها بعد عناء، وأنّ الصّدفة أو القدرة الإلهيّة هي الّتي قادت خطواته إلى حبيبته الّتي حرموه منها.

التفت إلى سي إبراهيم فرآه وراءه يسرع الخطى أيضا وقد تغيّرت سحنته...

- من هنا... يا سيّدي... من هنا...

أشارت منّانة إلى باب كبير أسرعت إليه ودفعته بقوّة ثمّ تقدّمت إلى باب السّقيفة ودفعته أيضا وهي لا تكاد تعرف ماذا تفعل...

- تلك الغرفة... هناك... هاتها إلى هنا... يا إلاهي... هل عاد إليها وعيها؟

دخل أنطونيو بحمله الثّقيل ووراءه ريحانة وياقوتة... أمّا سي إبراهيم فقد بقي خارج الدّار ينتظر وقلبه واجف.

وضع أنطونيو ريم على الفراش الكبير الّذي أشارت إليه منّانة. لكنّه اغتنم لحظة وضع الانكباب الّذي كان عليه لوضع الحمل الغالي على الفراش، وفي غفلة من منّانة وريحانة طبع على جبين حبيبته وعلى

رشم الحرقوس قبلة حارّة حرارة حرقة الحبّ الّذي يحمله لها... وأراد أن يعيد الكرّة لكن ريحانة سارعت إلى منعه قائلة:

- عيب يا سنيور... عيب أن تمسّ امرأة صارت في حرمة رجل... والآن أرجوك تفضّل اخرج من هذه الدّار... فأنت غريب عنها... وشكرا على مساعدتك لنا...

- لكن؟ ... إنّها ماريا... ماريا الّتي...

- أرجوك بدون فضائح، دع المرأة تعيش في أمان وسعادة... لقد انتهى ما كان بينكما، وإلى الأبد، أرجوك.

عادت منّانة الّتي تغيّبت لحظات وفي يدها كوب بها ماء ممزوج بالزّهر وأسندت رأس ريم على وسادتين كبيرتين وقربت المشروب من فمها:

- اِشربي يا مولاتي... اِشربي أرجوك، سأموت من الفجعة، يا ويلي...

لم يستطع أنطونيو أن يتحرك من مكانه فقد أبهره منظر ماريا وهي ممدّدة على الفراش وبطنها بارز، وشعر بالقهر وبالألم الشّديدين وبالظّلم وهو يرى كلّ أمانيه تموت أمام هذا الحمل الّذي وضع حدّا لكلّ أحلامه وطموحاته وجعله يتراجع فجأة عن كلّ ما كان خطّط له في ذهنه منذ أشهر...

*****

استفاقت ريم من غيبوبتها فجحظت عيناها وهي ترى أنطونيو واقفا بانكسار غير بعيد عنها... فصاحت بهلع في رفيقاتها...

- أخرجوه عنّي...أخرجوه من هنا...

وحين تلكّأ أنطونيو في المغادرة توجّهت إليه بالإيطاليّة:

- اذهب أيّها السّنيور... ألم تفهم بعد أنّه لم يجمعنا شيء من قبل، ولن يجمعنا مستقبلا أيّ رابط؟ ... دعني وشأني... واذهب في سبيل حالك وعش حياتك بعيدا عنّي. أرجوك!... أرجوك لا تكن سببا في قطع رقبتي وحرماني من ضناي هذا لو كنت تحبّني كما تدّعي.

اضطرّت ريم للتّصرّف مع أنطونيو بتلك الطّريقة القاسية أمام رفيقاتها وبالخصوص أمام ريحانة، درءا لما يمكن أن ينجرّ عن هذه الحادثة من تداعيات حين يعلم وليّ العهد بما جرى، فالمصيبة ستكون قاضية لو علم الأمير، وهو لن يصدّق أبدا أن المسألة لم تكن سوى مجرّد صدفة، لكن سيذهب في ظنّه أنّها صدفة مفتعلة، وأنّ الخروج إلى الحمّام والإصرار على ذلك لم يكن سوى تعلّة للقاء الحبيب. أوه سانتا ماريا !... هذا مرعب... مرعب.

كانت خائفة إلى حدّ الشّعور بالرّغبة في التّقيّؤ، ولكنّها كانت في قرارة نفسها مشفقة على الفتى المقهور الّذي مازال على حبّه لها رغم كلّ ما جرى.

ألقى أنطونيو نظرة أخيرة كسيرة على الّتي كانت حبيبة الرّوح وخرج وهو يحسّ بأنّه يحمل على كتفيه ركام صرح حبّه العالي الّذي انهار بأكمله في تلك اللّحظات القاسية...

*****

أغلق الباب المؤدّي إلى جناح ريم أمام مجموعة الجواري والخدم الّذين تجمّعوا أمامه في انتظار خروج "القابلة" أو إحدى مساعداتها لمعرفة جنس المولود الّذي أبطأ في النّزول إلى الدّنيا وترك ريم تصرخ وتتلوّى لمدّة يومين وليلتين على التّوالي، وجنّد كلّ من في القصر لاستقبال المولود الجديد وإحضار ما يستوجب إحضاره من علامات الفرح وأسبابه إذا كان القادم ذكرا.

انفرد وليّ العهد محمّد المنصور في مقصورة غير بعيدة عن جناح ريم وأخذ يمضي الوقت الّذي طال بالتلهّي إمّا بقراءة بعض الأوراد دون تركيز، أو بالمشي جيئة وذهابا وبعصبيّة. وكانت دقّات قلبه تتسارع حين يشعر بأنّ أحدهم قد اقترب من مقصورته. وكانت دعواته الصّادرة من الأعماق تتمنّى أن يرزق بولد... وأن لا تخيّب ريم آماله وأن تلد له وليّ عهد حتّى تبقى على حظوتها وحتّى لا يضطرّ للبحث عن ولد عند امرأة أخرى.

كان هذا القلق عامّا في القصر، فالسّلطان نفسه أبو فارس ينتظر نتيجة المخاض على أحرّ من الجمر وقد جلس ينظر من النّافذة إلى مدينة تونس الّتي يراها من خلال المطر المنهمر ولم يستطع أن يمرّر حبّات سبحته بهدوء فطفق يمرّرها بسرعة وهو يتمتم دون أن يفقه ما يقول فقد ذهب خياله هو الآخر إلى بُعد أكبر. فهو يحمل لريم محبّة خاصّة ويتمنّى لها الخلاص ويدعو لها بذلك في السّرّ وفي العلن.

أمّا بقيّة الجواري فكان انتظارهنّ من نوع آخر. فمنهنّ من رقّ قلبها للحامل الّتي تتلوّى من فرط الآلام ودعين لها بالخلاص في سرّهنّ على أن يكون المولود... أنثى... أو ينزل ميتا. ومنهنّ من كشفن عن نواياهنّ ومخاوفهنّ من القادم المجهول...

- خوفنا من أن يكون المولود ذكرا وعندها ستكون الطّامّة الكبرى. فقد استأثرت بالأمير وأصبحت في مقام عال في مدّة وجيزة... وها هي تلد له... وعندها ستصبح هي أميرة هذا القصر دون منازع وسوف ننزل نحن إلى درجة أقلّ ممّا نحن عليه اليوم... آه!... لو تلد أنثى فسوف تكون نسيا منسيّا وتشغلها الأمومة وينخر شبابها الهجر والنّسيان...

انتهت المخاوف والتّخمينات فجأة قبل صلاة العشاء بدقائق لمّا انطلقت صيحة ألم أخيرة من حنجرة ريم وتلاها بكاء وصراخ المولود الجديد...

دفعت إحدى مساعدات "القابلة" باب مقصورة محمّد المنصور وعلى وجهها علامات البشر والفرح...

- البشارة يا مولاي... أبشر فالقادم بالبركة والخير... ذكر... ذكر... إنّه ولد يا مولاي...

لم يتمالك محمّد المنصورمن إخفاء دمعة فرح وأشار إلى حاملة الخبر السّعيد بالانصراف بعدما وهبها صرّة صغيرة من المال... وعوض أن يهرع إلى حيث ولده ليراه فضّل التّهالك على مقعد وثير ليرتاح من العناء الّذي أضناه طوال يومين وليترك الفرحة ترتع في كيانه وتدغدغ حواسّه وتسعده.

بعد برهة قطعت عنه خيالاته العذبة طرقات خفيفة على باب المقصورة فاستوى من استرخائه وأمر الطّارق بالدّخول، فإذا بها "القابلة" النّصرانيّة وعلى يديها المولود الجديد...

- هذا ابنك يا مولاي... أطال الله عمرك لتربّيه وترعاه...

- كيف حال ريم؟

- إنّها بخير يا مولاي... تفضّل بتقبيل هذه الملائكة.

احتضن المولود بكلّ رقّة وحنان ونظر في وجهه الورديّ متمتما بآيات بيّنات من القرآن الكريم ثمّ وبكلّ رفق طبع على جبينه الصّغير قبلة وهمس له:

- سأسمّيك... محمّد... المنتصر... يا وليّ... عهدي... يا ولدي...

*****

كانت هديّة السلطان أبو فارس عبد العزيز إلى ريم هديّة سلطانيّة بحقّ، فقد ذهب بنفسه لزيارتها في جناحها واحتضن المولود الجديد، وكانت فرحته به عظيمة، فطفق يحدّثه ويناغيه ويرسم له طريق المستقبل وريم تنظر إليه وقد غمرها الفرح وامتلكتها السّعادة.

- سأسهر أنا شخصيّا على تربيته تربية إسلاميّة حتّى يكون من الرّجال الصّالحين، وسأجلسه معي على كرسيّ الحكم ليحضر مجالس كبار الدّولة والعلماء ورجال الدّين، وسأولّيه إمارة هامّة سواء بجاية أو قابس أو قفصة أو جربة، وسأدرّبه على قيادة الجيوش و...

- يا مولاي... أعزّك الله وأطال عمرك... مازال هذا الوليد في أيّامه الأولى، ومازلت لا أعرف هل سيعيش أو سيموت... وهل سأقدر على تربيته تربية حسنة حتّى يصبح من رجال الدّولة... أم سـ...

- سيصبح كذلك إن شاء الله... إنّ رجال بني حفص كلّهم تربّوا وترعرعوا على أيدي العلماء والصّالحين... سأربّيه كما ربّيت أولادي وسأختار له حاضنة من اليوم...

- مولاي أرجوك لا تحرمني منه... دعني أربّيه أنا...

- في هذه الحال ستربّينه على دينكم، إنّك غير مسلمة يا ريم وهذا ما يحزّ في نفسي كثيرا... فقد قضيت بيننا أشهرا عدّة ورأيت كيف أعيش وسمعت عن ديننا، ولكنّي لم أسمع أنّك اهتممت يوما بالدّين أو حاولت حتّى معرفته وبقيت على نصرانيّتك فكيف ستربّين أميرا على ديانة غير ديانة أجداده؟

أطرقت ريم وهي تعدّ الإجابة المقنعة لهذا الرّجل الّذي لم تجلس إليه أبدا بهذا الشّكل الحميم.

- مولاي أعزّك الله... أنت تعلم حالي وكيف رمت بي الأقدار إلى دياركم... لقد عشت أقسى أيّام حياتي وأنا في الأسر، وكان أنيسي الوحيد في وحشتي وفي وحدتي هي العقيدة الّتي تربّيت عليها، وكان دعائي لا ينقطع، وهو الّذي أستمدّ منه صبري وقوّتي. كانت نشأتي على النّصرانية فكيف تراني يا مولاي أتنكّر لديني من أجل دين آخر أجهله؟ ... هل تستطيع أنت أن تفعل ذلك؟ ... اعذرني يا مولاي إن تجاوزت حدود اللّياقة؟

ضحك السّلطان ضحكة هادئة وطيّب خاطر ريم بطبطبة خفيفة على يدها وقال:

- اسمعيني يا ابنتي... نحن أمّه وسط... لا نكره أحدا على غير ما يحبّ. ديننا من أفضل ما أنزل الله فهو دين الرّحمة والمحبّة والتآخي والتّسامح، وهو يدعو إلى التّوحيد ونبذ الشّرك بالله. فلا إلاه غيره. اطمئني يا ابنتي، لن أدعوك إلى عبادة إلاه سواه. بل ستواصلين الابتهال إلى نفس الرّبّ الّذي كنت تبتهلين له في نصرانيّتك... فالله أحد... الله الصّمد... لم يلد ولم يولد... ولم يكن له كفؤا أحد... هذه هي عظمة الله يا ابنتي. فالله أعظم من أن يكون له أب أو أم أو ولد. هو خالق الكون والبشر، وهو المتربّع الأوحد على العرش، ندعو له من غير واسطة وهو السّميع المجيب... وأنت يا ريم المؤمنة سوف تواصلين الصّلاة لله عزّ وجلّ، وسوف تواصلين الدّعاء له، لكن بدون شرك... وأنا لم أدعك إلى عبادة إله آخر... انظري حواليك كم من نصرانيّ ونصرانيّة أسلموا وهم يعيشون معنا وبيننا وحولنا، وفيهم من بقي على دينه ولم نمسسه لا في شعائره ولا في ذاته... نحن لا نهدي من نحبّ ولكنّ الله يهدي من يشاء... فإذا شئت أنت، تكونين قد فزت بما وعده الله لعباده المؤمنين، وأدعو الله أن تكوني منهم.

تنهّدت ريم تنهيدة عميقة وقالت وعيناها إلى الأرض كأنّها تستحضر صورا بعيدة:

- مولاي... صدّقني لو قلت لك إنّ نفسي تاقت للإسلام وأنا أصارع آلام المخاض، فاستعنت بالرّب كثيرا وبالمسيح وبالسّيّدة مريم العذراء، وحتى باسم نبيّكم محمّد... نعم... نبيّكم، وكان ذلك لأوّل مرّة... فقد كانت بقربي امرأة تسندني وتشدّني وتساعدني وتهمس في أذني بكلمات لم أفهم مراميها، وبتلاوة متسلسلة لم أقدر على متابعتها بسبب وجعي، لكن تلك الهمسات

كانت تنزل عليّ بردا وسلاما كأنّها مرهم أو مسكّن، وكنت أطلب من المرأة أن تشدّني إليها بقوّة وأن تزيد في قول الكلمات الطّيّبة الّتي ساعدتني على تجاوز مضيق الموت الّذي كنت أمرّ به ساعات المخاض... لقد همستُ أو صحتُ، لم أعد أتذكّر كيف خرج السّؤال من فمي وأنا بين صيحة وزفرة وتوجّع: ما هذا الّذي تقولين يا امرأة؟ أهو شعر، أو غناء؟ وهمست المرأة في أذني وهي تحاصرني بذراعيها فتساعدني بذلك على الثّبات قائلة:

- إنّه القرآن، قول الله يا بنيّتي... إنّها سور من كتاب الله العزيز... حبّذا لو تفقهين كلام الله وتدخلين في دينه بعد العسر الّذي أنت فيه الآن... أو إن شئت بعد أن يخلّص الله وحلك فتحمدينه على نعمته الّتي سيسبغها عليك بعد حين وذلك باعتناقك الإسلام ودخولك في دين الله الحنيف.

لم أستطع وقتها يا مولاي أن أفقه الكثير من مرامي تلك المرأة الّتي طلبت منّي الخروج عن ديني واعتناق دين آخر وأنا في أضيق حال... لكن عندما ولدت واحتضنت ولدي شعرت بأنّي انتقلت إلى رحاب أخرى وأحسست بقيمة كلام المرأة وبمعانيه الطّيّبة، وأردت حقّا أن أحمد الرّبّ بطريقة غير الّتي كنت أعرفها فلم أفلح واتّجهت إلى صلاتي الّتي تربّيت عليها ورسمت الصّليب وطلبت من الرّب الغفران والهداية... وذلك كلّ ما أعرف يا مولاي.

أشرقت أسارير السّلطان أبو فارس وهو يستمع إلى كلمات الجارية الّتي أدخلت على قلبه الفرحة بإنجابها هذا الحفيد الرّائع، وها هي تتيح له فرصة نادرة لنيل ثواب الهداية والدّخول في رحاب الإسلام على يديه فقال ملاطفا:

- أنت يا ريم مؤمنة من الأعماق، وطريقك إلى الهداية مفتوح لأنّي أحسّ بأنّك من زمرة عباد الله الصّالحين، ولولا يقيني من رجاحة عقلك ومن عمق محبّتك للخير ومن طيبتك الّتي قرأتها على وجهك ما

فاتحتك أبدا في هذا الأمر العظيم، لكن مهما أخفيت عنّي من حقيقة المشاعر فإنّي واثق من أنّك لن تتردّدي طويلا وسوف ينير الله قلبك بالإيمان الصّحيح، والآن... أتركك لترتاحي... وسوف...

ما كاد أبو فارس ينهض حتّى أمسكت ريم بيده وجعلته يعود إلى الجلوس وقد أحسّ فعلا أنّه على وشك سماع خبر آخر أعظم من الأوّل:

- مولاي... بحضورك استحضرت كلّ عزيز عليّ... وبكلامك طيّبت خاطري ومسحت منه كلّ تردّد وخوف... أنت رجل طيّب جدّا... لقد رفعتني إلى العلا بتشريفي بحضورك وبالحديث إليّ حديث الأب لابنته. لقد تعلّمت أنّ الإنسان الطيّب لن يأتي أبدا أفعال العيب... لذا وبكلّ تلقائيّة وبكلّ اقتناع أسألك الأخذ بيدي وإدخالي إلى دين الإسلام... فكيف أفعل؟

هديّة ثانية من هذه الجارية تلغي قيمة الهديّة الّتي جاءها بها وترتفع به إلى رحاب السّماء فأمسك بيدها وقال لها:

- قولي يا ابنتي... "أشهد أن لا إلاه إلا الله وأشهد أنّ محمّدا رسول الله".

... انحبست دمعة في مقلتي أبي فارس وهو يستمع إلى ريم تردّد الشّهادة في خشوع فقام إليها وأخذ يدها وشدّ عليها ثمّ طبع على جبينها قبلة أبويّة وقال لها:

- إنّ فرحي بإسلامك على يديّ لا يضاهيه فرح... ولا ترقى هديّتي هذه لك إلى هديّتك لي الآن، ولن تبلغ بأيّ حال مقاما أرفع منه.

ناولها صندوقا ضمّ مجموعة من الأساور الذّهبيّة والعقود اللّؤلئيّة وجوهرة كبيرة، ثمّ وضع قرب وسادة المولود محفظة جلديّة فاخرة بها مصحف كان أهداه إيّاه أمير الحجاز، وطبع قبلة خفيفة على جبين محمّد المنتصر ودعا له ثمّ خرج وقد نزل على كيانه سلام لم يشعر بمثله من قبل.

*****

علم أنطونيو بإنجاب ريم ولدا عن طريق عمّ الجيلاني وسي إبراهيم بن مخلوف فاعتكف في فندق الفنيسيّين بباب البحر ولم يعد يذهب إلى المدينة أو إلى حومة باب البنات وقد زاد هذا الخبر في وجيعته وفي انفتاح جرح قلبه فأفقده طعم الحياة بعدما كان فقده منذ شهر حين لفظته حبيبته وطلبت منه أن لا يقف مرّة أخرى في طريقها وألاّ يحاول رؤيتها...

لقد بقيت صورتها الأخيرة عالقة بذهنه طوال أيّام وليالٍ، وهي غاضبة حانقة، ففكر طويلا في العودة نهائيّا إلى فينيسيا ونسيان ماريا إلى الأبد والابتعاد عن تونس الّتي أحبّها حبّا دفينا رغم أنّها أقلّ جمالا وفخامة في رأيه من مدينته "البندقيّة" لكنّه تردّد ولم يعرف كيف سيخرج من ضيقه بعدما ضاع أمله في الحبّ، وتساءل: تُرى ماذا يمكن له أن يفعل بعد اليوم في ديار الغربة؟ هل يواصل العيش هنا، هكذا دون هدف ودون حبّ؟ ... هل يبقى ويترك قدره يقرّر مصيره؟

لم يجد الجواب ولم يحاول أن يلقي هذه الأسئلة على صديقيه الحميمين فانزوى في مكانه واجترّ حزنه وقلقه وقنوطه في انتظار فرج ما، ربّما تأتي به الأيّام...

دخل عليه ذات ظهر "عمر" ذلك الصبيّ الّذي ألحقه به سي إبراهيم بن مخلوف ليدرّبه على التّكلّم باللّهجة التّونسيّة والّذي يقوم على شؤونه أحيانا، فوجده مازال يتناوم وآثار الإحباط بادية على وجهه فقال له مازحا:

- أما زلتِ حزينة على فقدان حبيبك سنيورينا أنطونينا؟

ذهل أنطونيو وغضب من سخرية الصبيّ فسارع إلى نعله وقذف به تجاه عمر، فتفاداه هذا الأخير وهو يضحك ملء شدقيه قائلا:

- طبعا سنيورينا، فأنت تبكي الحبيب مثل النّساء، والرّجال عندنا لا يبكون النّساء، فلا تنسيك المرأة سوى المرأة يا صديقي، فقم ابحث عن النّسيان عند امرأة غير تلك الّتي تحبّ.

قام أنطونيو وأمسك بالصّبيّ من ياقة سترته وقال له بين حنق ومزاح:

- من أين لك هذا يا ابن الـ...

- من أبي، فقد هجر أمّي وتزوّج بأخرى، ومعها نسي أمّي.

ترك أنطونيو الصّبيّ وهزّ رأسه دون أن يعلّق بكلمة وذهب ليتهالك على الفراش، فقال له عمر:

- لا تؤاخذني يا صاحبي، فما كلّمتك هكذا إلاّ إشفاقا عليك. لأنّي أحبّك، فأنا معلّمك في العربيّة وأنت معلّمي في الرّوميّة. والمعلّم مثل سيدي المؤدّب، يعلّم وينصح ويربّي... وأنا أنصحك بالبحث عن امرأة أخرى لتخرج من عزلتك، فربّما تجد عندها ما لم تكن تتصوّره أبدا.

نظر أنطونيو مليّا إلى الصّبيّ وسأله:

- ماذا تريد أن تكون حين تكبر؟

- أجبني أوّلا، ما هي مهمّة القنصل؟

- آه، هذا سؤال وجيه، لنأخذ مثلاً قنصل البندقيّة في تونس، فهو في الأصل تاجر كبير يمثّل تجّار فينيسيا في بلدكم باسم جمهوريّة فينيسيا لدى سلطان تونس، إذن فمهمّته الرّسميّة هي رعاية مصالح أبناء بلده من التّجّار وغيرهم في البلد الّذي عيّنته به سلطات الجمهوريّة لتمثيها رسميّا.

- لم أفهم كثيرا، لكنّ كلامك هذا يساعدني على الإجابة عن سؤالك. أريد يا صاحبي أن أصبح مثل سيدي عبد الله التّرجمان، مدير الدّيوانة، لذلك أحرص على أن تعلّمني اللّغة الرّوميّة لأكون مثله مترجم السّلطان، وإذا لم يتيسّر لي ذلك فإنّي أسافر إلى بلدك للتّجارة حيث أسعى للعمل قنصلا على تجار تونس.

ضحك أنطونيو من كلّ قلبه وجذب الصّبيّ وضمّه إلى صدره تحبّبا. وفي لحظة ذهبت عنه كلّ أثقال الحزن والإحباط فقام ليغيّر ملابسه ليخرج وفي ذهنه فكرة كان أنكرها، لكنّ دخول سي إبراهيم عليهما أخمد في نفسه الخاطرة الخطيرة، فعدل عن الخروج وجلس ليستمع إلى صديقة الّذي أشار إليه بالجلوس بعدما صرف الولد عمر وقال له:

- أنطونيو ما هذا الّذي أرى؟ ما هذا الضّياع الّذي تعيشه؟ أكاد أكره الحبّ حين أراك هكذا. إنّك رجل يا أخي... رجل عليه أن يتسلّح بالصّبر وبالعزيمة وأن لا يظهر مثل هذا الضّعف، أليس في قلبك شيء غير هذا الحبّ الملعون؟ اِرحل يا أخي أو غيّر حياتك، إنّي أفضّل أن أراك تودّعني ذات يوم وتسافر إلى بلدك على أن أراك هكذا كالحطام، تعيش فقط لتواصل تعذيب نفسك.

- ما الحلّ يا سي إبراهيم؟

- تزوّج... يمكن لك أن تجد إيطاليّة أو إسبانيّة هنا أو في ربط النّصارى، أو في حلق الوادي.

- أريد أن أتحدّث إلى ذلك الرّجل الّذي ذكره لي عمر منذ حين، السّيّد عبد الله التّرجمان.

- عمر ذكر لك السّيّد عبد الله التّرجمان؟ كيف؟

- قال لي علّمني التّحدّث بالرّوميّة لأصبح ترجمانا كالسّيّد عبد الله.

- والله ولد ذكيّ جدّا وفكرته هذه لا يمكن أن تخطر على بال أحد، أنا بنفسي لم أطرح هذا السّؤال إطلاقا: لماذا لا يكون لنا قنصل تونسيّ في البندقيّة؟

- لا أعلم، ربّما تلقى الإجابة عند صاحب الدّيوانة، فهو عليم دون شكّ بهذه الأمور نظرا لقربه من السّلطان، وعلى ذكر هذا الرّجل فإنّي أصارحك بأنّي أشعر نحو الرّجل بالإنجذاب ولا أعرف السّبب.

- ... ذلك الّذي اصطدمت به يوم ذهابك إلى كنيسة باب منارة... لماذا لم تكلّمه من قبل؟

- لا أعرف عنه شيئا... ولم أستطع الاِقتراب منه لأنّي لا أملك سببا للتّحدّث إليه أو لمجالسته. لا أراه إلاّ قادما من المدينة إلى باب البحر أو خارجا من إدارة الدّيوانة. ثمّ لا أدري لماذا يبدو لي غريبا أو منشغلا. أو ساهما، لا أعرف، لا أعرف، أشعر بأنّه يعاني من شيء ما، كما أعاني أنا داخليّا، وأنت هل تعرفه؟ ومن يكون يا سي إبراهيم؟

- أعرفه بحكم العمل، وأعرف حكايته وكيف جاء إلى تونس منذ أكثر من سبعة عشر سنة، وقد قصّها عليّ صديقي الحاج محمّد الصّفّار ابن صهر عبد الله التّرجمان، فقد تزوّج ابنة الصّفّار. بل قل إنّ السّلطان أبو العبّاس والد سلطاننا الحالي هو الّذي زوّجه بعد اعتناقه الإسلام.

- ماذا؟ كان نصرانيّا مثلي؟

- بل كان راهبا ممّا يعني أنّه أعلم منك في نصرانيّته إذ كان بالفعل راهبا وقِسّا وعالم لاهوت...

- عالم لاهوت وقسّ نصرانيّ ومع ذلك أسلم؟ لماذا؟ وما هي الدّوافع؟

- آه هذه أسئلة لا يجيبك عنها سوى السّيّد عبد الله نفسه.

- كيف الوصول إليه، أنا لم أحاول أبدا التّعرّف عليه؟

- إنّه رجل متواضع تواضع العلماء، وهو على خلق كبير، يرحّب بكلّ غريب تائه الفكر والرّوح مثلك أنت. سوف يرحّب بك وربّما يتبنّاك ويهديك إلى السّراط المستقيم.

- إذن لم يكن اسمه لا عبد الله ولا ترجمان؟

- لا أذكر اسمه الأصليّ فقد طال عليّ العهد بحكايته، فقد وفد على تونس منذ ثمانية عشر سنة تقريبا، ولم أتعرّف عليه إلاّ بكنية التّرجمان.

- وفّر لنا يا سي إبراهيم أسباب الاجتماع به.

- سوف أحدّثه عنك، وما عليك إلاّ الذّهاب إليه فلن تلقى منه سوى القبول الحسن.

*****

بعد أيّام وردت على أنطونيو سلع من البندقيّة، وُظّف عليها أداء ظهر له مشطّا بعض الشّيء، وعوض أن يفضّ الإشكال مع قابض الميناء كما تعوّد على ذلك، تخاصم معه ثمّ تطوّر الأمر إلى مشادّة كلاميّة آلت بالدّيوانيّ إلى التّهديد بالحبس وبحجز السّلعة، لولا تدخّل أحد التّجّار الجنويّين الّذي له سابق معرفة بأنطونيو ففضّ النّزاع وأشار على أنطونيو بالتّوجّه إلى صاحب الدّيوانة لحلّ الإشكال.

- صاحب الدّيوانة؟ سانتا ماريا، هل سألاقي ذاك الرّجل بسبب خصام مع أحد رجاله، في حين أنّي كنت أنوي ترتيب لقاء معه في ظرف أفضل ولسبب أوجه وبيدي هديّة؟

قال أنطونيو لنفسه هذا الكلام وهو متوجّه إلى مبنى الدّيوانة وقد عقد العزم على تفضيل أمر البضاعة على أمر نفسه، اعتبارا للسّنيور ألكسندر، ذلك الرّجل الطّيّب الّذي جعله وكيلا على تجارته في تونس ومكّنه من مقرّ دائم في فندق الفنيسيّين، فلا يجوز التّسبّب له فيما يكره.

أشير على أنطونيو بالتّوجّه إلى باب في آخر الرّواق فطرقه ثمّ دخل حين سمع صوتا يأمره بالدّخول... وكم كانت دهشته كبيرة حين قام الرّجل لمصافحته وقد هشّ في وجهه:

- أهلا بابننا... تفضّل اجلس... أظنّ أنّنا التقينا قبل اليوم... واعذرني يا سنيور على نسياني إسمك، فقد تقدّمت بي السّنّ وضعف بصري كما ضعفت ذاكرتي... لقد حدّثني عنك صديقنا السّيّد إبراهيم بن مخلوف وقال لي إنّك تريد التّعرّف عليّ... وانتظرتك ولكنّك لم تأت إلاّ اليوم...

ارتبك أنطونيو أمام هذا الرّجل الخمسينيّ، الأنيق المظهر، الثّاقب النّظرات، ولم يدر كيف يبادر بتصحيح الموقف، فقد جاء شاكيا ومشتكى به فإذا به يلقى مثل هذا القبول؟ فتجاسر أخيرا وطرح مسألته فاستدعى السّيّد عبد الله التّرجمان القابض وسوّى المشكل بالحسنى وأصلح ذات البين بين الرّجلين، ثمّ استبقى أنطونيو لمزيد التّعرّف عليه.

كانت تلك الفرصة بداية للقاءات شبه يوميّة بين الرّجلين. ففي عشيّة نفس اليوم طفق أنطونيو يقصّ على السّيّد عبد الله قصّته بالكامل كأنّه يستعجل الزّمن لإفراغ ما ثقل على نفسه من هموم الغربة والضّياع والفشل، وكان ينتظر من رفيقه ردودا أو تعاليق تفيد أنّه مهتمّ بالحكاية وأنّه متأثّر بما جرى، لكنّه كان يستمع صامتا ويردّ من حين لآخر على تحايا كلّ من يعترضه في الطّريق إلى أن وصلا أمام باب دار تبدو من ديار الأعيان في حومة الخُرَسانِيّين قرب باب المنارة فطرق سي عبد الله بابها وسرعان ما انفتح على خادم أسود سارع إلى الانكباب على تقبيل يد سيّده ثمّ أفسح له المجال للدّخول:

- تفضّل سنيور أنطونيو، أنت ضيفي هذا المساء.

- لكن يا سيدي عبد الله...

- بلا لكن، تفضّل أُدخل، لقد استمعت طول الطّريق إلى حكايتك، وعليك الدّور بعد حين للاستماع إلى حكايتي.

لم يكن أنطونيو يتصوّر فخامة دار صاحب الدّيوانة من الدّاخل، دار تدلّ على المقام الرّفيع لصاحبها، فهي فسيحة الأرجاء ذات طابقين، يتوسّطها صحن كبير بوسطه نافورة ينزل منها ماء يحدث خريرا لطيفا يشقّ صمت المكان الّذي يوحي بالهدوء وبالسّكينة:

- من هنا يا سنيور أنطونيو.

أشار السّيّد عبد الله إلى مدارج رخاميّة بطرف الرّواق فصعدا منها إلى الطّابق العلويّ حيث دخلا إلى غرفة واسعة الأرجاء لكنّها مختنقة بالكتب والمجلّدات الضّخمة المصفّفة على رفوف كادت تناطح السّقف.

- هذه يا سنيور أنطونيو ملاذي كلّما زفّت الكتابة والمطالعة.

تعجّب أنطونيو لكثرة الأوراق ولأكوام الكتب المركونة دون تصفيف. وحتّى لوجود عديد الأقلام والمحابر الموضوعة على مكتب يحتلّ ركنا قرب نافذة مطلّة على حديقة عامرة بالاخضرار.

- كيف تجد الوقت يا سيدي للقراءة وللكتابة؟

- قضيت عمري كلّه في القراءة وفي الكتابة وما زلت إلى اليوم أقرأ وأكتب دون انقطاع. تفضّل اجلس.

- وماذا تكتب يا سيّدي؟

- أكتب خواطر وملاحظات عن الدّين والعقيدة وعن اختلاف المفاهيم عند البشر.

- لماذا لا تكتب قصّة حياتك يا سيّدي؟ إذ يبدو أنّها شيّقة وتشبه قصّتي.

- أنا بصدد كتابتها، لكنّ قصّتك غير قصّتي، فأنت سعيت وراء امرأة فخسرت، وأنا سعيت وراء عقيدة فكسبت، رغم أنّي كنت قسّا مؤمنا أشدّ الإيمان بالعقيدة المسيحيّة، لكنّي كفرت بها على يد قسّ من شيوخ القساوسة، كان أكبر منّي سنّا ومقاما، وأوفر منّي علما، وهو الّذي أشار عليّ باعتناق الإسلام والرّحيل إلى دياره.

- عجبا؟ قسّ كبير ينصح قسّا أصغر منه سنّا بالارتداد عن دينه، وكان من المفروض عليه أن يستميت في الدّفاع عن دينه، وأن يرعى المؤمنين به، لا أن يتسبّب في تشتّتهم.

- هذا إذا كان دينه صحيحا لا محرّفا كما هو الشّأن بالنّسبة إلى دين الكنيسة.

- كيف ذلك يا سيّدي؟ كلام غير... عفوا سيّدي، أنا لا أكذبك، لكنّي...
- آه، من هنا تبدأ قصّتي يا صديقي.
- علمت يا سيّدي أنّ إسمك الأصليّ غير الّذي أعرف.
- فعلا، فاسمي الأصلي هو" آنسالم تورميدا "ولدت بمايورقة وهي جزيرة أندلسيّة كانت طوال قرون تحت حكم المسلمين. آه مايورقة العظيمة! جزيرة التّين والزّيتون والغابات والعيون الصّافية الّتي تصبّ في البحر.

كان أبي من أعيانها، وكنت وحيده، وكان حريصا على تعليمي حتّى أنّه سلّمني إلى معلّم من القساوسة وعمري ستّ سنوات، فقرأت عليه الإنجيل حتّى حفظت أكثر من شطره في مدّة سنتين، ثمّ انصرفت إلى تعلّم لغة الإنجيل وعلم المنطق في ستّ سنين.

- يعني صرت يا سيّدي نابغة وعمرك أربع عشرة سنة؟
- لا نابغة ولا شيء، فطلب العلم لا يتوقّف أبدا عند سنّ معيّنة، كنت فعلا شغوفا بطلب المعرفة فارتحلت من أجلها إلى مدينة "لاردة" من أرض القطلان وهي مدينة علم عند النّصارى، يجتمع فيها طلبة العلم بالمئات، ولا يحكم فيهم إلاّ القسّيس الّذي يدرّسهم، فدرست فيها علم الطّبيعيّات والنّجامة مدّة ستّ سنوات.
- إذن تقرأ الحظّ والطّالع يا سيّدي؟
- لا يا أنطونيو، النّجامة علم لا دجل، وهي النّظر في النّجوم بحسب مواقيتها وسيرها.

- نجوم؟ وماذا يفعل النّاس بعلم النّجوم والأرض أجدى لهم بالمعرفة؟
- النّجم والفلك والشّمس والقمر وغيرها مؤثّرة في الأرض وفي الإنسان والحيوان، قال الله تعالى في كتابه العزيز: هو الّذي جعل الشّمس ضياء والقمر نورا وقدّره منازل لتعلموا عدد السّنين والحساب ما خلق الله ذلك

إلاّ بالحقّ يفصّل الآيات لقوم يعلمون، صدق الله العظيم. فهل يستوي يا صديقي الّذين يعلمون والّذين لا يعلمون؟

- رغم أنّي لم أفهم ما قلت يا سيّدي، فقد فهمت بديهة أنّ الّذين تعلّموا هم أفضل من الّذين لم يتعلّموا، طيّب هذا العلم لم يكن السّبب على ما أعتقد، في قدومك إلى تونس؟

- لا، مازالت الحكاية في البداية، إذ انصرفت بعد ذلك إلى قراءة الإنجيل ولغته ملازما لذلك مدّة أربع سنوات أخرى، ثمّ ارتحلت إلى مدينة "بلونية" وهي مدينة كبيرة جدّا ومحطّة علم يجتمع فيها كلّ عام أزيد من ألفي طالب علم. فسكنت في كنيسة لقسّيس كبير في السّنّ وفي المقام عندهم اسمه الأب "نيكولا مرتيل".

- أظنّ يا سيّدي القائد أنّ هذا الرّجل هو الّذي قلب معتقدك وحياتك؟

- نعم، فهو معلّمي وهو صاحب أفضال عليّ، رجل له منزلة في النّاس رفيعة جدّا بالعلم وبالدّين وبالزّهد، انفرد بها في زمانه عن جميع أهل دين النّصرانيّة، فكانت الأسئلة في دينهم ترد عليه من الملوك ومن أصحاب الشّأن ومن القساوسة وغيرهم من رجال الدّين ومن العامّة، وكانت تصحب الأسئلة هدايا على قدر مقام أصحابها.

درست على هذا القسّيس أصول النّصرانيّة وأحكامها، وتقرّبت إليه بخدمته والقيام بالكثير من وظائفه حتّى صيّرني من أخصّ خواصّه إلى درجة أنّه وثق بي فسلّمني مفاتيح مسكنه وخزائن مأكله ومشربه وصيّر كلّ ذلك بيدي ولم يستثن من ذلك كلّه سوى مفتاح بيت صغير كان يخلو فيه بنفسه.

- الظّاهر يا سيّدي القائد أنّه أعطاك كلّ شيء باستثناء مفتاح بيت الكنز؟

- جائز... والله أعلم، فلم أحاول معرفة ذلك إطلاقا، فقد كان العلم الّذي آخذه عنه هو الكنز الحقيقيّ الّذي كنت أسعى إليه طيلة عشر سنوات.

- عشر سنين أخرى يا سيّدي وأنت تسعى وراء العلم؟ سألنا مادونا... أنا لم أطق البقاء عند قسّ سوى بضعة أشهر ثمّ سرعان ما هربت منه لفساد مزاجه وسوء أفعاله.

- لقد كتبت كتابا عن فساد القساوسة. وسوف أعود إلى هذا الموضوع لاحقا. أمّا الآن فدعني أواصل حكايتي مع القسّ نيكولا مرتيل فهي مهمّة جدّا.

ذات يوم مرض شيخي هذا فتخلف عن حضور مجلس علماء قساوسة مثله كانوا دأبوا على الاجتماع للتّذاكر في مسائل من العلوم. فأنابني عنه لأنقل له فيما بعد حصيلة ما دار من نقاش. فحضرت المجلس واستمعت إليهم دون كبير اهتمام إلى أن أفضى بهم الكلام إلى قول الله عزّ وجلّ على لسان نبيّه عيسى عليه السّلام في الإنجيل: إنّه يأتي من بعده نبيّ اسمه "بيريكلتوس" باللغة اليونانيّة، أو "البَارُوقْلِيطُ" باللّغة العربيّة، فانتبهت ساعتها وأنصتّ إلى كلّ الآراء. فقد بحث الجماعة في تعيين هذا النّبيّ ومن يكون من الأنبياء، فمضوا كلّ حسب اجتهاده في تفسير ذلك حتّى كثر بينهم الجدال والاختلاف إلى أن انصرفوا دون تحصيل فائدة في المسألة.

عدت إلى شيخي وأخبرته باختلاف الجماعة في اسم الباروقليط ونقلت إليه آراءهم جميعا، فبيّن لي قائلا: إنّهم كلّهم على غير صواب، رغم ملامسة البعض منهم للحقيقة، لكنّ الحقّ خلاف ذلك كلّه، لأنّ تفسير هذا الإسم الشّريف لا يعلمه إلاّ العلماء الرّاسخون في العلم، وهؤلاء لم يحصل لهم من العلم إلاّ القليل، حتّى أنت يا أنسالم.

شعرت لحظتها أنّي فعلا لا أعرف إلاّ القليل، وأنّ سنوات التّحصيل في الدّين قد تذهب سدى، وأنّ الحقيقة مازالت خافية ولا يعلم سرّها إلاّ هذا القسّ الطّاعن في السّنّ، فبادرت إلى استعطافه وتقبيل يده

وتذكيره بأنّي قدّمت من بعيد وخدمته طوال سنوات وأستحقّ جزاء ذلك أن يفيدني بمعرفته، وأن لا يتركني على ضلال، فتأثّر وتردّد في الكلام بتعلّة الخوف عليّ من معرفة الحقيقة، وقال لي: أخاف عليك من أن يظهر ذلك عليك فتقتلك عامّة النّصارى في الحين. فطمأنته وحلفت له أنّي لن أتكلّم أبدا بما أسرّه لي، فقال: يا ولدي إنّي سألتك يوم قدومك عليّ عن بلدك، وهل هو قريب من بلاد المسلمين؟ وهل يغزونكم أو تغزونهم؟ لأختبر ما عندك من المنافرة للإسلام، فلم أشعر بها إلى اليوم، لذا أقدر أن أعلمك يا ولدي أنّ الباروقليط هو اسم من أسماء نبيّهم محمّد، وعليه نزل الكتاب الرّابع المذكور على لسان النّبيّ دانيال عليه السّلام وأخبر أنّ دينه هو دين الحقّ، وملّته من الملّة البيضاء المذكورة في الإنجيل إلخ...

هنا داخلني شكّ مرعب وأيقنت أنّي قضيت سنوات شبابي في تحصيل الخسران، فبادرته بالسّؤال الحارق: "فما تقول إذن يا سيدي في دين النّصارى؟ أليس هو دين الحق؟"

فقال لي: "يا ولدي لو أنّ النّصارى أقاموا على دين عيسى الأوّل لكانوا على دين الله، لأنّ عيسى عليه السّلام وجميع الأنبياء دينهم دين الله، ولكن بدّلوا وكفروا حتّى حرّفوا الدّين لغايات دنيويّة".

فقلت له: "كيف الخلاص إذن من هذا الأمر؟"

فقال لي: "بالدّخول في دين الإسلام."

تصوّر يا أنطونيو أنّ شيخك الّذي علّمك أصول الدّين المسيحيّ لسنوات طوال، يدعوك إلى تركه فجأة لأنّه مبنيّ على كذبة كبرى مازال الآلاف من النّاس يتّبعونها ويؤمنون بها؟ يا للهول، يا للخسران؟

- إذا كان الأمر كذلك يا سيّدي القائد، فلماذا لم يتّبع هذا القسّ العارف والعالم دين الحقّ الّذي يدّعيه؟

- ذلك هو السّؤال الّذي ألقيته عليه، فقد قلت له: "يا سيّدي، إنّ العاقل لا يختار إلاّ أفضل ما يعلم به، وأنت قد علمت فضل دين الإسلام فما الّذي منعك من اعتناقه في الإبّان؟"

فقال لي: "يا ولدي إنّ الله تعالى لم يطلعني على الحقيقة إلاّ بعد كبر سنّي ووهن جسمي، ولو هداني الله لذلك وأنا في سنّك لتركت كلّ شيء ودخلت في دين الحقّ".

- كلام لا يستوي يا سيّدي القائد، هذا القسّ إمّا أن يكون دجّالا أو صاحب منفعة، فإذا كان على حقّ ممّا يدّعي فلماذا لم يتبع هذا الدّين وهو الرّجل الّذي لم يعد يطمع في الحياة بما أنّه كان على شفا القبر؟

- كلامك معقول يا أنطونيو، وسؤالي له كان في هذا المعنى فأجابني قائلا: "إنّ حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة، وأنت ترى ما أنا فيه عند النّصارى من رفعة الجاه والعزّ والتّرف وكثرة عرض الدّنيا، فلو ظهر عليّ شيء من الميل إلى دين الإسلام لقتلتني العامّة في أسرع وقت، وهب أنّي نجوت منهم وخلصت إلى المسلمين فأقول لهم إنّي جئتكم مسلما، فيقولون لي لقد نفعت نفسك بنفسك بالدّخول في دين الحقّ واتّقيت عذاب الله فلا تمُنّ علينا بفعلك هذا، فأبقى بينهم شيخا كبيرا فقيرا لا عائل لي وأنا في التّسعين من العمر، لا أفقه لسانهم ولا يعرفون مقامي فأموت بينهم جوعا وإهمالا وأنا والحمد لله على دين عيسى الحقّ لا المحرّف، أي على دين الله، وعلى ما جاء به الله على لسان عيسى عليه السّلام، وهو التّوحيد الخالص الّذي دعا إليه جميع الرّسل، والله عالم بذلك منّي، فقلت له: "دلّني يا سيّدي على بلد من بلاد المسلمين أدخل في دينهم". فقال لي: "إن كنت عاقلا طالبا للنّجاة فبادر إلى ذلك تحصل لك الدّنيا والآخرة".

لمّا رآني سررت وانشرحت لقوله هذا جذبني إليه وقال لي همسا: "نحن هنا بمفردنا لا سامع ولا رائي فاكتم ما دار بيننا ولا تظهره أبدا حتّى لا تقتلك العامّة، ولا ينفعك حينها لا دين ولا أنا. ولا ينفعك حتّى لو ادّعيت أنّي أنا ناصحك، فإنّي أنكرك، وقولي عند النّاس مصدّق عليك وقولك غير مصدّق عليّ". لمّا وعدته بكتمان الأمر، بادرت بالإعداد للرّحيل فشجّعني ودعا لي بالتّوفيق وزوّدني بخمسين دينارا ذهبا فركبت البحر وعدت إلى بلدي مايورقة حيث مكثت بها رفقة أبي حوالي ستّة أشهر ثمّ رحلت منها إلى جزيرة صقلّيّة فأقمت بها خمسة أشهر أتحيّن فرصة الرّكوب إلى أرض المسلمين.

- وهكذا جئت إلى تونس يا سيّدي عن طواعية بينما جئتها أنا في بطن سفينة قراصنة مكرها مجرورا مقهورا، لكن الأدهى من هذا أنّي بقيت في هذا البلد رغم يقيني أنّي لن أجني من بقائي فيه سوى السّراب، أمّا أنت يا سيّدي فيظهر أنّك خطّطت تخطيطا ذكيّا لبقائك فيه، فكيف فعلت؟

- والله ما خطّطت كما تظنّ، بل سعيت وراء حقيقة، وهربت من بلد الكفر والشّرك بالله، هربت من عقم الفكر البشري ومن التّعصّب الأعمى، هربت من عبادة الصّور والإيقونات ومن زخارف الكنائس بالذّهب وبما يبهر المساكين بزائف الصّنع عوض انبهارهم بآيات الله.

- حين جئت إلى تونس هل شعرتَ بالغربة؟

- أبدا، ذلك أنّي والحمد لله قد سبقتني شهرتي إلى أحبار النّصارى المقيمين بها بصفتي قسّ عالم، إذ ما أن وصلت إلى الميناء حتّى هرعوا لاستقبالي وأخذوني إلى ديارهم وعرّفوني بالتّجّار المقيمين بباب البحر فوجدت نفسي في أنس وفي ضيافة طيّبة وفي أرغد عيش مدّة أربعة أشهر تمكّنت خلالها من معرفة المدينة وأهلها وشيء من عاداتهم وتقاليدهم

فآنست لهم وطابت نفسي للبقاء هنا حتّى التقيت يوما بجماعة لهم صلة بقصر السّلطان فسألتهم هل بدار السّلطان أحد يحفظ لسان النّصارى فدلّوني على رجل فاضل اسمه يوسف وهو طبيب السّلطان ومن خاصّته. ففرحت بذلك وسألت عن مسكن الرّجل فدلّوني عليه.

- أنت ذكيّ جدّا يا سيّدي القائد، لأنّك لم تضع وقتك لا في البحث عن صناعة ولا عن تجارة، بل ذهبت رأسا إلى الهدف العالي.

- وكيف عرفت ذلك يا أنطونيو؟

- واضح أنّك بحثت عن أقرب رجل من السّلطان، ولمّا وجدته ادّعيت له ما ادّعيت ليوصلك إليه، وحين لاقيت ملك البلاد عرفت كيف تحدّثه وكيف تؤثّر فيه فاستنجبك وضمّك إلى حاشيته وهكذا ضمنت لنفسك المسكن والخدمة والكفالة والجاه والحماية. أليس كذلك يا سيّدي القائد؟

- ممكن أن يحصل هذا لو كنت أنت المعنيّ وجئت إلى تونس مغامرا، أمّا أنا فقد جئت سعيا وراء ترسيخ إيمان والدّليل ما حصل لي مع السّلطان، فقد زرت طبيب السّلطان كما ذكرت لك، في داره واجتمعت به وأخبرته بقصّتي وأنّ سبب قدومي الدّخول في الإسلام، فسرّ بذلك سرورا كبيرا باعتبار أنّ رغبتي وافقت رغبته حين عزم على الدّخول هو الآخر إلى الإسلام منذ سنوات خلت...

- هل كان نصرانيّا هو الآخر؟

- نعم، وقد تجادلنا طويلا في مسالة الدّين والارتداد عنه لاعتناق دين آخر، وقد تحمّس حالا لإخبار السّلطان بمسألتي باعتبار أنّ أخبارا طيّبة وصلته عنّي، وباعتبار أنّه سيكون واسطة خير لإتمام المراد، فركب فرسه وأخذني معه إلى قصر القصبة، فدخل على السّلطان وأخبره بحديثي واستأذنه في دخولي عليه فأذن لي.

- سانتا مادونا! أنت محظوظ جدّا يا سيّدي، أنا دخلت القصبة وزجّ بي حالا في سجنها المرعب، وأنت أدخلوك إليها وقدّموك رأسا للسّلطان.

- يا أنطونيو اِفهم يا صديقي أنّي فعلا عالم معروف في الأوساط المسيحيّة، وأنّ شهرتي تسبقني أحيانا لتسهّل عليّ الدّخول على الكبار، واعذرني لو لم أخبرك بهذا في سياق حديثي عن نفسي، ولهذا لا مقارنة إطلاقا بين حالك وحالي.

- المعذرة يا سيّدي القائد، فأنا لم أهضم إلى اليوم ما جرى لي وصرت أخلط بين الغثّ والسّمين، أكمل ولا تؤاخذني.

- لما مثلت بين يدي السّلطان أبو العبّاس، وهو والد سلطاننا الحالي سألني عن عمري، فقلت له خمسة وثلاثون سنة، ثمّ سألني عمّا قرأته من علوم فأخبرته، وأضفت أنّي أُحسِن اللّغات الإغريقيّة واللاّتينيّة والعبريّة وأنوي تعلّم العربيّة إن شاء الله، فقال لي: قدمت قدوم خير فأسلم على بركة الله، فقلت للتّرجمان وهو الطّبيب يوسف: قل لمولانا السّلطان إنّه لا يخرج أحد من دين إلاّ ويكثر أهله القول فيه والطّعن فيه، فأرغب من إحسانكم أن تبعثوا إلى النّصارى وأحبارهم من التّجّار المقيمين بالحاضرة وتسألوهم عنّي وتسمعوهم ما يقولون في شأني، وحينئذ أسلم إن شاء الله تعالى.

- لماذا طلبت هذا الطّلب الغريب يا سيّدي؟

- لكي يشهد عليّ مع الشّاهدين من رجال السّلطان ومن أهل ملّتي أنّي اعتنقت الإسلام جهارا وعن طواعية.

- وفعل السّلطان ما رغبت فيه؟

- فعلا، فقد أرسل في طلب أحبار النّصارى وبعض تجّارهم وأدخلني إلى غرفة قريبة من مجلسه حتى لا يراني أحد منهم، ولما حضروا قال لهم: ما تقولون في المدعوّ تورميدا القسّيس الجديد الّذي قدم إلى البلاد؟ فقالوا له:

هذا يا مولانا عالم كبير في ديننا، وقال شيوخنا فيه إنّهم ما رأوا أعلى من درجته في العلم والدّين. فقال لهم: وما تقولون فيه إذا أسلم؟ فقالوا نعوذ بالله من ذلك، وهو لن يفعل هذا أبدا. حينها بعث السّلطان في طلبي ولما حضرت بين يديه شهّدت شهادتَيْ الحقّ بمحضر النّصارى فاندهشوا ورسموا على وجوههم علامة الصّليب وقالوا: ما حمله على هذا إلاّ حبّ التزوّج. وخرجوا مكروبين محزونين.

- وتزوّجت يا سيّدي؟

- نعم، فكأنّ السّلطان أراد إغاظتهم فرتّب لي رحمه الله ربع دينار كلّ يوم وزوّجني بتونسيّة هي ابنة الحاج محمّد الصّفّار، ولمّا عزمت على البناء بها أعطاني مائة دينار ذهبا وكسوة جديدة فبنيت بها وأنعم عليّ الله بولد سمّيته محمّدا على وجه التّبرّك باسم نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم.

- كأنّي أستمع يا سيّدي إلى خرافة، لا إلى حقيقة بطلها ماثل أمامي، فأنت تتكلّم عن ماضيك الدّينيّ، وعن أهل ملّتك كأنّهم ليسوا منك إطلاقا، وكأنّك ولدت هنا وترعرعت على هذه الأرض ولم تكن مايورقيّا إطلاقا، فإلى هذا الحدّ غيّرك هذا الدّين وقلب حياتك كأنّك بعثت من جديد؟

- لن تدرك أبدا سعادتي بالخروج من جاهليّة عقيدتي الأولى إلى نور الله وسِعة رحمته، وأرجو أن يهديك الله إلى سواء السّبيل، وعلى يديّ إن شاء الله.

سكت أنطونيو وراحت به خيالاته إلى بعيد حتّى أنّه فقد التّركيز على كلام مضيّفه فلم يسمعه يحكي بقيّة الحكاية ممّا دفع بسي عبد الله التّرجمان إلى تغيير مجرى الحديث.

*****

صار أنطونيو يرافق عبد الله التّرجمان كلّ عشيّة إلى داره ويجلس معه في غرفته بين أوراقه وكتبه الكثيرة ويسمع منه حكايات وأشياء تعلّم منها الكثير وصقلت عقله وأنسته لفترة حبّه الضائع...

- أراك يا سيّدي عبد الله تكتب كثيرا هذه الأيّام، فهل أنت بصدد تأليف كتاب جديد؟

- فعلا إنّي أكتب نوعا من التّأمّلات الفلسفية والدّينيّة والدّنيويّة حول رجال الكنيسة وفسادهم وحول قيمة الإنسان بالنّسبة للحيوان. وما زلت كما ترى أرتّب أفكاري.

- وهل وجدت عنوانا لما تكتب؟

- أظنّ أنّي وجدته وقد تردّدت طويلا قبل أن أقرّره... هذا العنوان هو "تكهّنات حمار"

- ماذا؟ حمار يتكلّم... ويتكهّن؟

- نعم... حمار يتكلّم... هذا الكتاب عبارة عن حوار مطوّل بين حمار ورجل... خذ مثلا هذه الجملة... أو هذا السّؤال الّذي يسأله الحمار لصاحبه الإنسان: " لماذا هذه العداوة بين المسيحيّين والمسلمين؟" فيجيب الرّجل: "لا أعرف" فيقول له الحمار: "إنّ النّصرانيّ يتهكّم على المسلم، والمسلم على النّصرانيّ عندما يتحدّث كلّ واحد منهما بلغته وذلك لأنّهما لا يسمعان بعضهما ولا يفقهان كلام بعضهما... وهذه هي المصيبة".

- عذرا سيّدي عبد الله إن سألتك سؤالا محرجا، فقد سمعت من بعض النّصارى هنا في المدينة أنّك لم تكن مسلما عن اقتناع كامل، وأنّ شكّا داخلك ذات يوم، وأنّك في ساعة يأس وقنوط قرّرت الارتحال إلى أوروبا، وأنّك عبّرت عن ندمك وأسفك لأعلى سلطة في الكنيسة وطلبت الصّفح والغفران على ما أقدمت عليه من نكران لدينك الأصليّ.

- ومن أعلمك بهذا الإدّعاء؟

- أخبرني قسّ من قساوسة كنيسة باب المنارة أنك راسلت فعلا السّلطة البابويّة منذ بضع سنوات طالبا الصّفح والمغفرة، حتّى أن البابا غير المتوّج "بونوا الثّالث عشر" بعث لك بغفرانه وعفوه وبوعده لك أنّه لن يقع لك أيّ مكروه ولن تتعرّض لأيّ عقاب إن عدت إلى حظيرة الكنيسة وتبت توبة صادقة.

- مضت على حكايتك هذه يا ولدي أربع سنوات. وهي من تلفيقات أعدائي، فالكثير من أهل ملّتي في ربط النّصارى وفي باب البحر كانوا يستنكفون من مخالطتي باعتباري مرتدًا، قسّا مرتدًا. وهذا ما لم يهضموه إلى اليوم، لكنّ ذلك لم يؤثّر في اعتقادي إطلاقا. وها أنك تراني هنا في داري في حومة الخرسانيّين، ولم أذهب إلى الفاتيكان. وأتحدّث إليك وأنا أحمل اسم عبد الله التّرجمان، وأعتزّ بدين الإسلام، وأدافع عنه، وسأكتب كتابا أهاجم فيه رجال الكنيسة وأفنّد فيه حجج النّصارى، وسأردّ فيه على ادّعاءات أهل الصّليب. فهل أنت مقتنع الآن؟

- لا أدري يا سيّدي... ولا أستطيع أن أعرف ما في السّرائر.

- دعك منّي أنا وأخبرني متى ستدخل في دين الله وتتوب إليه؟

- لا أفكّر في ذلك ولا أنوي الضّياع بين ديانتين... فأنا الآن بلا عقيدة ولا دين، وما انتسابي للنّصرانيّة منذ الصّغر ما هو إلاّ مجرّد غطاء لا يستر ولا يعري.

- والله يابنيّ أشفق عليك، لأنّك شابّ ذكيّ رغم جهلك، وأنت تهضم جانب نفسك بتنطّعك، وسوف تموت إذن كافرا متشرّدا وحيدا غريبا، ولن تجد حتّى من يدفنك... إنّي أشفق عليك فعلا ولا أتمنّى لك مثل هذه النّهاية. خذ افتح بصيرتك بهذا الكتاب وتصفّحه ريثما أصلّي صلاة المغرب.

- لا أقرأ يا سيّدي، فلا تحاول إقناعي بما اقتنعت به أنت.

تونس، رمضان 821

مرّت أربع سنوات على قدوم ريم إلى تونس كانت كفيلة بأن تعطيها من السّعادة ومن الهناء ما لم تكن تحلم به أبدا، فقد أصبحت بفعل الحظوة الّتي لقيتها من الأمير محمّد المنصور تعيش عيشة الملكات، كلمتها مسموعة وحضورها مهاب. وزاد في وصولها إلى قلب الأمير والسّلطان إنجابها لولدها محمّد المنتصر الّذي ملأ عليها حياتها وزادها سعادة ورفعة، فلم تعد تفكّر في الحبّ فقط أو في إغراء الأمير كما كانت تفعل، بل أصبحت تحضن حبّهما حضانة عقلانيّة وعاطفيّة دافئة وتركت أمر إمتاعه بالطّريقة الّتي يريد إلى صاحبتها ريحانة وللجواري الأخريات، وأخذت توجّه الأمير في أمور السّياسة وتنصحه فيستمع إليها ويأخذ برأيها الحصيف فصارت مستشارته ومحطّ أسراره فزادهما ذلك التحاما ووصالا.

أمّا ريحانة فقد أقبلت على الحياة وانغمست في السّعادة الحسّيّة مع الأمير وذهبت إلى حدّ الاختصاص به أشهرا ولولا تدخّل القهرمانة كاتارينا الّتي حدّت من اندفاعها وعادت إلى التّفرّد باختيار الجواري البارعات في فنون اللّيل، لتمادت الجارية العاشقة في تنفيذ مخطّطها المتمثّل في الإنجاب من الأمير، لكنّ ذلك لم يحصل رغم مرور هذه السّنوات، فبدأت تشعر بشيء من القلق ينخر حياتها ويثقل وحدتها حتّى أنّها انصرفت أكثر فأكثر إلى المتع المحلّلة والمحرّمة.

أمّا أنطونيو فقد بقي على حاله ولم ينس ماريا ولم يقرّر العودة إلى بلاده ولم يدخل في دين الإسلام رغم محاولات أصدقائه المتكرّرة خصوصا منهم عبد الله التّرجمان الّذي حاول بكلّ ما أوتي من ذكاء ومن حجّة أن يقنعه على الأقلّ بأخذ الموضوع عقلانيّا وترك العاطفة جانبا. لكنّ تنطّع أنطونيو وتمسّكه بدينه، رغم إنكاره له أحيانا، كان أقوى من الجميع، فقد عجبوا من إصراره على أمرين إثنين، عقيدته الخفيّة وحبّه لماريا العلجيّة، ولم يعرفوا أنّه راح يغرق شجونه في الخمر ويجترّ أوجاع قلبه وحيدا في غرفته في فندق الفنيسيّين، وأنّه قرّر تنفيذ تلك الفكرة الشّيطانيّة الّتي راودته ذات عشيّة إثر سخرية الولد عمر منه ودعوته إلى نسيان امرأة باللّجوء إلى البحث عن أخرى. فقد راودت خياله صورة المرأة منّانة كم من مرّة فكان يطردها من ذهنه، لكنّها كانت تعود متسلّلة لتهيّج رغبته المكبوتة فيزيده ذلك سهدا على سهد. لذلك راح يحوم مؤخّرا حول تلك المرأة الّتي مال إليها ميولا لم يعرف كنهه، هل هو مصلحيّ لمعرفة أخبار ماريا؟ أو هو إعجاب وضرورة حسّيّة لقتل شعور الوحدة والإحباط؟

جلست ريم ذات عشيّة باردة أمام نافذة تطلّ على جنان القصبة وبقربها ابنها الصّغير المنتصر الّذي كان يقطع عليها تأمّلاتها بصياحه وهرجه المتواصل فاضطرّت لاستدعاء الحاضنة لتأخذه إلى مكان آخر، وعادت إلى نفسها بعدما هدأ المكان فأرسلت ببصرها إلى سطوح المدينة الّتي راح المطر يغمرها.

شعرت بالوحدة وبالبرد حين اقترب موعد آذان صلاة المغرب... فوضعت يديها على بطنها المنتفخ وأخذت تتحسّس حجمه بسعادة ممزوجة بمشاعر مبهمة، وتساءلت: هل ستلد في هذه اللّيلة الرّمضانيّة المباركة؟ وهل سيكون المولود ذكرا أو أنثى؟ وفي صورة إنجابها لأنثى هل سيؤثّر ذلك على حظوتها في القصر؟

جاءتها وصيفتها لتخبرها بأنّ موعد الإفطار سيحلّ بعد قليل وهل ترغب في الالتحاق بقاعة السُّفرة أو تحضر لها المائدة إلى هنا؟

- لا أرغب في الأكل ولست صائمة رغم أنّي لم أذق لقمة منذ الصّباح، وأشعر بآلام بعيدة، أخبري القابلة لتستعدّ.

ما أن تعالى آذان صلاة المغرب من جامع القصبة حتّى داهم ريم مخاض مؤلم جعلها تتأوّه بقوّة ثمّ تصيح وتتوسّل بكلّ أولياء الله المسلمين والقدّيسيّين المسيحيّين على حدّ السّواء، المهمّ خلاص الوحل بواسطة هؤلاء.

لم يستطع أحد من حاشية ريم أن يشقّ الفطر أو أن يتعشّى براحة فقد كان الانتظار يرهقهم ويصدّ أنفسهم عن الطّعام، أمّا الأمير فقد رافق السّلطان إلى جامع القصبة بعدما اكتفيا بشرب كوبين من اللّبن وبأكل تمرتين.

انتصف اللّيل وريم تصارع آلامها الشّديدة وجميع من في القصر ينتظرون الفرج إلى أن قاربت السّاعة موعد السّحور فانطلقت الزّغاريد من كلّ مكان وأضيئت كلّ جنبات القصر بالشّموع وبالمصابيح وتعالت أعمدة الأبخرة كما الأصوات بالتّكبير وبالصّلاة على النّبيّ وبالحمد لله بينما سارعت مساعدة القابلة إلى الأمير وزفّت له بشرى إنجابه لولد.

*****

لم تحتفل مدينة تونس هذه السّنة برمضان كما درجت عليه العادة، فقد نزل عليها الشّتاء بكلّ ثقله وجعل ناسها يعيشون البرد والقرّ ويهرعون إلى الأماكن الدّافئة أو يتوقّفون أمام المواقد الّتي يوقدها الباعة المتجوّلون في الدّروب وفي الأسواق، ومع ذلك كانوا يخرجون لقضاء حوائجهم خصوصا بعد العصر فيتسابقون رغما عنهم بسبب المطر أو البرد لشراء

ما يلزمهم وبذلك يخلقون حركية تعيد للمدينة حيويّتها. أمّا في اللّيل فقد كانت هذه الفترة كئيبة حيث لم تقع سهرات في الحارات وفي البطاحي بل اقتصر النّاس على التّزاور فيما بينهم وخلق أجواء دافئة تغنيهم عن الخروج، لكنّ الأسواق المسقّفة كانت على غير هذه الحال خصوصا في أواخر شهر رمضان هذا، فقد أوقدت الشّموع والمصابيح والكوانين الكبيرة للتّدفئة واختلط بخور التّجّار ببخور هؤلاء المتسوّلين الّذين يطلبون الإحسان وهم يحملون كوانين صغيرة ومعلّقة بسلسلة يأرجحونها يمينا ويسارا لتوزيع البخور ويقذفون فيها من حين لآخر بقليل من البخور كلّما توقّفوا أمام متجر أو محلّ من المحلاّت لطلب الإحسان. وارتفعت أصوات الذّكر في بعض المحلاّت الّتي اجتمع فيها بعض الشّيوخ وتجّار الأسواق. وانتصب على طول الطّريق المُغطّى صبيان وشبّان يبيعون المرطّبات المحلّيّة المكوّرة، وفاحت روائح المرطّبات والحلويّات من المنازل. واختار "فداوي" الجلوس على عتبات باب جامع الزّيتونة من جهة سوق العطّارين ليجمع حوله المارّة والفضوليّين ويحكي لهم قصّة عنترة بن شدّاد والغول وسيّدنا عليّ ويشدّهم بقصص غراميّة تارة وبقصص دينيّة تارة أخرى. واختار آخرون قضاء السّهرة في الجوامع والمساجد الموجودة في مختلف أنحاء المدينة ويستمعون إلى دروس وأحاديث دينيّة أو يستعدّون لصلاة الشّفع والوتر. وكانت المدينة تعدّ وقتها إلى جانب جامعيْ الزّيتونة والقصبة، جامع القصر بباب المنارة وجامع الهواء بالمركاض وجامع باب الجزيرة وجامع أبي محمّد بباب سويقة وجامع الخْلِقْ وجامع السّلطان وجامع الصفصافة وجامع سيدي يحيى السّليماني.

رغم برودة الطّقس ورذاذ المطر المتواصل فقد استطاع بعضهم تسلّق ربوة الجلاّز والدّخول إلى مقام سيدي بلحسن الشّاذلي وإيقاد الشّموع وقضاء ليالي رمضان في التّعبّد والذّكر. وكانت زاوية سيدي

محرز بن خلف بباب سويقة الأكثر مزارا والأوفر حظًا في الاحتفال برمضان كأنّه لا برد ولا مطر.

كان أنطونيو وسي إبراهيم بن مخلوف وعمّ الجيلاني في طريقهم إلى دار عبد الله التّرجمان لقضاء السّهرة حين اعترضهم أحد التّجّار من مزوّدي قصر القصبة وراح يسأل عن أحوال سي إبراهيم ثمّ أخبره أنّ القصر يعيش اللّيالي الملاح بمناسبة ازدياد مولود جديد وهم في حاجة إلى مزيد من الحلويّات ومن المرطّبات وعليه هو توفيرها قبل حلول عيد الفطر.

حين انصرف الرّجل مودّعا أمسك عمّ الجيلاني ذراع أنطونيو برفق وقال له:

- صاحبتك ولدت ولدا آخر... وأفرحت أهل القصر في ليلة العيد هذا، وقد عزّ عليّ إخبارك بهذا الخبر في الإبّان لكي لا أفتح جرحك، لكن ها هي الصّدف تلقي بالخبر في أذنك مباشرة وتزيد في إشعارك بالغربة وبالوحدة... أفلا تثوب إلى رشدك وتغيّر من حالك يا ولدي؟

- ما اسم هذا اللّقيط الجديد؟

- استغفر الله... لا تقل عن هذه الوليد لقيطا... إنّه في أحضان أبويه، وهو من سلالة السّلاطين... سمّوه... عثمان... أبو عمرو عثمان.

تسمّر أنطونيو في مكانه، وتوقّف سي إبراهيم وعمّ الجيلاني عن السّير، وشعر هذا الأخير بالنّدم على قول ما قال فحاول تهدئة خاطر صديقه... لكنّ أنطونيو نطق من بين أسنانه:

- الخائنة... الملعونة... تعيش في النّعيم... غارقة في سعادة الحبّ... وأنا هنا... وسط هؤلاء الغرباء أبحث عن ذاتي وعن كياني وعن حبّي الضّائع... آه... يا ماريا، لقد خنت الكلّ... خنت أهلك... ودينك... وخنتني... وتبعت هواك... لم يكفك لقيطك الأوّل فزدت عليه بآخر لتوسّعي في سلالة

سلاطين البربر وأمرائهم ليفتكّوا منّا "ماريات" أخريات ويتركوا أمثالي يتلوّعون ويموتون حرمانا... فماذا أفعل لك... ماذا أفعل لأنتقم منك... وأنا أحبّك؟

انقلب أنطونيو عائدا إلى باب البحر تاركا الرّجلين في دهشة وحيرة. وما كاد يصل إلى ساحة الباب حتّى توقّف ليستريح من عناء الإنفعال وليقرّر ما سيفعله بالفكرة الّتي اخترقت ذهنه منذ حين.

*****

كان في نيّته العودة إلى الفندق ليغرق أحزانه في الشّراب. فلفح وجهه موجة من البرد القارس فاستفاق قليلا من كابوسه واستعاد وعيه الّذي ضاع منه حين سمع بخبر ولادة ماريا...

أجال بصره في الظّلام فلم ير إلاّ أشباح حرّاس باب البحر وأضواء متفرّقة وبعض المارّة العائدين إلى ديارهم.

داهمته فكرة عبثيّة تردّد في تنفيذها وأخذ يسير ببطء عائدا من حيث أتى، فقد ندم على ترك سي إبراهيم وعمّ الجيلاني في حيرتهما وهروبه منهما بذلك الشّكل المزري فقرّر أن يعود إليهما... لكنّ الفكرة الشّيطانيّة عاودته بإلحاح حين وصل إلى مستوى سوق العطّارين فعدل عن الذّهاب إلى سوق السرّاجين واتّجه نحو سوق الشّمّاعين فوجده مضاءً بمئات الشّموع الّتي تزيّنه، وعامرًا بحركة النّاس فيه والّتي فاقت الحركة الموجودة في سوق العطّارين... ولم يُعِرْ اهتماما للنّاس بل استسلم لكلمات تردّدت في ذهنه:

- ... سأقضي كامل شهر رمضان عند أمّي فهي مريضة وأبي لا يستطيع أن يعتني بها بمفرده... تعال مرّة إذا أردت واطرق الباب كما يطرق محرّك الحومة طبلته عندما يقوم بجولته اللّيلية لإيقاظ النّاس لتناول السّحور.

كانت هذه كلمات منّانة له قبل دخول شهر رمضان بيومين حين التقت به خلسة في مكان مهجور قرب باب قرطاجنّة، وعرف وقتها أنّها كانت تتحرّق شوقا لرؤيته وأنّها أحسّت نحوه بانجذاب منذ رأته أوّل مرّة يحنو على الأميرة ريم الّتي طردته بتلك القسوة رغم المخاطر الّتي عرّض نفسه لها من لأجلها، وأين؟ في أسواق بلاد المسلمين.

راح في الأيّام الماضية يتصيّد الفرص لملاقاة منّانة خلسة. فكان يتنكّر في برنس ويخرج في العشايا ويدخل المدينة ويترصّد عن بعد الدّار الّتي رأى فيها منّانة لأوّل مرّة عشيّة حادثة الحمّام، لكنّ المرأة لم تظهر في اليومين الأوّلين، فكان يعود إلى باب البحر خائبا ممّا كان يزيد في إشعال رغبة شيطانيّة لمراودة منّانة، إلى أن حصل له المراد في اليوم الثّالث حين رآها وهي تحمل قفّة وتهمّ بفتح الباب بمفتاح، فأسرع نحوها ولمّا اقترب منها كشف لها عن وجهه وهمس لها قائلا:

- اِتبعيني، أريد أن أتحدّث إليك.

اندهشت وتردّدت وصار قلبها يدقّ بعنف ثمّ ما لبثت أن عدلت عن فتح الباب وتبعت الرّومي.

لم يدر أنطونيو ما هي الخطوة التّالية بعد وقوع الحمامة في الفخّ، فإلى أين سيذهب الآن وأين سيحادثها؟ وبينما هو في حيرته تجاوزته منّانة وقالت له وهي مازالت تسير:

- اتبعني...

صار يتبعها في الدّروب إلى أن خرجا من باب المنارة ثمّ عرجت به إلى مقبرة السّلسلة[1]، فشاهد بعض النّاس المتفرّقين على مواقع القبور، منهم القاعد ومنهم الواقف وهو باسط يديه يتمتم في خشوع، فتعاظمت

---

[1] مقبرة السلسلة: كانت مستعملة من قبل بني خراسان والتي بني على أرضها المستشفى الصادقي قبالة القصبة والذي سمي بعد الإستقلال مستشفى عزيزة عثمانة.

دهشته وانقلب شوقه لخوض غمار مغامرة العشق إلى خوف ونوخس فكاد ينقلب عائدا إلى الفندق وينسى الحكاية. لكنّ منّانة التفتت إليه حاثّة إيّاه على دخول المقبرة فتبعها إلى أن توقفت أمام قبر فجلست أمامه ودعته لفعل نفس الشّيء أمام قبر قريب منها. ففعل.

قالت له همسا وهي تفتح راحتي يديها لقراءة الفاتحة:

- تكلّم الآن وقل ماذا تريد منّي يا...

- أنطونيو يا سيّدتي، اسمي أنطونيو.

- أنا اسمي منّانة.

- أحبّ أن... أن أراك في... في...

- لماذا؟

زمّ شفتيه ثمّ أفرج عنهما وأرسل نحوها قبلة اشتهاء خاطفة. فابتسمت وأرسلت له واحدة مثلها، وقالت له وهي تنهض:

- تلك الدّار هي دار أبي، احذر عيون الجيران، شهر رمضان سيحلّ عن قريب، سأقضيه في دارنا، تسلّل أنت ليلا قبل موعد السّحور وتعالَ نلتقِ.

ذهبت وبقي هو في مكانه يتعجّب من سرعة الحدث ويسخر من وضعه وهو جالس أمام قبر مجهول بغية ضرب موعد غرام مع امرأة مجهولة لم يرها سوى مرّتين، الأولى تركت في نفسه أثرا بعيدا والثّانية أثّرت فيه بعمق لأنّه وجدها شهيّة حلوة الملامح تبدو لعوبا. فهاجت نفسه إلى وصالها... ولتخرب الدّنيا بمن عليها.

وما نتيجة الثّالثة إذن؟

*****

وصل أمام الباب والتفت حواليه فلم ير إلاّ بعض المارّة يسيرون في الظّلام على أضواء الشّموع الباهتة وهم يحاولون تفادي برك الماء المتعدّدة.

طرق الباب بالطّريقة المتّفق عليها وانتظر بوجل، فظهر له أنّ انتظاره قد طال فكاد يعود على أعقابه لولا سماعه لخطوات قادمة من الدّاخل، ثمّ ما لبث أن فُتح الباب بحذر شديد وأطلّ منه وجه منّانة في العتمة.

- أنت؟ ادخل بسرعة...

دلف في الظّلمة فأمسكت منّانة بيده لتقوده إلى صحن الدّار. فأسلم لها يده في دعة لكنّه فوجيء بها تتوقّف في ردهة باب السّقيفة وتطوّقه بذراعيها وتعانقه بحرارة وبشوق.

- لماذا هذه الغيبة الطّويلة؟ ألم نتّفق على زيارة قريبة... أم شغلك حبّك للأميرة فانشغلت عنّي... تعال إلى غرفتي فقد نام كلّ من في الدّار وهم عُجّز.

- قال لها لاهثا:

- كأنّنا كنّا على وفاق منذ تلك العشيّة.

لم تجبه بل قادته إلى غرفتها الّتي أضيئت بشمعة يتيمة كانت كافية لإعداد أسباب التّهيّج التّلقائي بين الإثنين فحدث بينهما المراد وكان الارتواء بعد ظمأ، ولم يتكلّم منهما أحد تاركين الآهات تأخذهما إلى عذب المتاهات.

لم يخرج أنطونيو من دار منّانة إلاّ حين تأكّد أنّ صاحب الطّبلة الّذي تباطأ في الضّرب على طبلته أمام باب الدّار قد ابتعد كثيرا ولم يعد يُسمع إلاّ إيقاع طبلته البعيد يتردّد في ظلام اللّيل البهيم... فودّع منّانة بسرعة وقذف بنفسه خارج الدّار وقد داهمه خوف فجئيّ لمّا سمع حركة وراءه فتسمّر في مكانه فإذا بقطّ يتسلّل بخفّة وفي فمه شيء يتدلّى، وحين هدأت

دقّات قلبه وتأكّد من خلوّ المكان راح يسير بحذرفي اتّجاه القصبة وقد زاد خوفه وتعاظم في ذلك الظّلام الدّامس، لكنّه تشجّع عندما مرّت في بخاطره صور منّانة الّتي عرفت كيف تواسيه وتنسيه حزنه وشجنه ووعدته أيضا وهي تودّعه بأنّها ستزور ريم وتخبره بأحوالها في القريب.

اندهش عمّ الجيلاني حين سمع طرقا على بابه فقام من فراشه وهو يتوجّس من هذا الطّارق في مثل هذه السّاعة المتأخّرة من اللّيل، فسأل الطّارق فلم يتلقّ سوى همهمة لم تفصح له عن هويّة الغريب، ومع ذلك فتح الباب فلم يتبيّن وجه أنطونيو من أوّل وهلة ولمّا عرفه صاح في تعجّب:

- أنت؟ ماذا تفعل هنا في هذه السّاعة، ومن أين دخلت المدينة؟

- لم أخرج منها لكي أدخلها، أغلق بسرعة يا عمّ الجيلاني... أغلق الباب فقد شعرت منذ حين أن أحدهم يتبعني...

- يتبعك؟ وأين كنت الآن... وماذا فعلت حتّى يُستراب في أمرك؟

- ليس هذا وقت كلام، أريد أن أنام الآن و...

سرت قشعريرة في جسم أنطونيو وكاد قلبه يشقّ صدره ويخرج منه حال سماعه طرقات عنيفة على الباب فنظر إلى عمّ الجيلاني في خوف وفي استعطاف ثمّ أسرع إلى إحدى ردهات قصر البنات حيث اختفى في الظّلام تاركا عمّ الجيلاني يتصرّف مع الطّارق المجهول...

*****

ماي 1420

الطّقس ربيعيّ يميل إلى الحرارة، والأرض زاهية بالاخضرار وبألوان النّوار الّتي زيّنت الممشى الطّويل المؤدّي من قصر رأس الطّابية إلى قصر باردو الجديد الّذي تمّ بناؤه حديثا. والخدم منتشرين في انتظار قدوم وليّ العهد محمّد المنصور وجاريته ريم وبعض مرافقيهم من الحاشية المقرّبة الّذين ما لبثوا أن وصلوا من القصبة راكبين الجياد. وكان وليّ العهد وريم يتحدّثان والمرح يطغى على كلامهما...

- لماذا اخترت يا مولاي هذا اليوم بالذّات لنزور قصر باردو وجنانه في حين أنّ بناءه قد تمّ منذ مدّة؟

- الأشغال انتهت فعلا منذ مدّة. لكنّ تأثيثه لم ينته إلاّ منذ شهر. وقد خصّص لنا مولانا السّلطان جناحا وأبقاه على حاله بدون تأثيث وترك لنا الخيار. لذلك أردت أن ترافقيني لزيارة قصر باردو الجديد لننتقي ما يحلو لك من أثاث من خزائن القصر.

وصلا إلى جنان رأس الطّابية وتوقّفا فيه قليلا ليستمتعا بالمنظر الطّبيعيّ الممتع في هذا الفصل الرّبيعيّ الخلاّب وقد طغت زقزقة العصافير من كلّ جانب على الأصوات الأخرى. وكان المكان يوحي بالسّلام ويدخل السّعادة إلى القلوب ويترك النّاظر ينسى هموم الدّنيا ومشاغل الحياة.

- لا يمكن يا مولاي أن ألقى مكانا أروع من هذا... ولا أظن أن قصر باردو الجديد يضاهي قصر رأس الطّابية وجنانه... إني أحبّ هذا المكان الّذي يذكّرني بأيّامي الأولى هنا. وفي حبّنا الّذي ترعرع تحت كل تلك الأشجار والخمائل وأمام أحواض الماء الرّقراق.

- لا تحكمي على شيء لم تريْه بعد... هيّا بنا نواصل الطّريق...

انطلقا في تؤدة يستمتعان في صمت بنعيم الطّبيعة وعظمتها حتّى وصلا أمام باب كبير فتح بأمر من الأمير فظهر وراءه حارسان انحنيا للقادمين ثمّ أسرعا إلى الجوادين وقاداهما إلى حوض مربّع ينزل فيه ماء رقراق من فتحة في أعلى الجدار.

- أشعر بالعطش يا مولاي وأنا أرى هذا الماء الرّقراق ينساب من هذه العين...

أسرع أحد الخدم إلى العين فملأ وعاء وقدّمه إلى ريم الّتي شربت منه بنهم كأنّها ظمآنة وقادمة من سفر طويل.

- ما أعذب هذا الماء يا مولاي... وما أبرده...

- إنّ هذا المكان بمثابة سبيل للعطاشى من الجند ومن دوابهم وماؤه قادم من زغوان على تلك الحنايا الّتي مررنا بها منذ قليل.

- أريد أن أترجّل يا مولاي وأمشي قليلا في ذلك الممشى... إنّه يؤدّي بدون شكّ إلى تلك البنايات الكبيرة؟

- اِبقي على جوادك فأنت سافرة الآن... ولا أريد أن يراك العامّة، فهذه الطّريق ما زالت عامّة رغم الجدارين المقامين على جانبيه وقد جعلت خصّيصا لمرور السّلطان إذا أراد أن يظهر للنّاس لكنّنا سنسلك مسلكا آخر تحت الأرض.

- تحت الأرض؟

- لا تخافي فالمسافة قصيرة... نصف ميل فقط، نستطيع البقاء راكبين، وستجدين نفسك بعد قليل في قصر باردو وقد مررت من باب رأس الطّابية إلى باب باردو تحت الأرض.

اندهشت ريم لعظمة البناء وكبره، ورأت أمامها ستّ بنايات متشابهة وأنيقة لكنّها أقلّ رونقا وجمالا من قصر رأس الطّابية، فترجّلت وهي متعجّبة من كبر أرجاء الحديقة واختلاف أنواع أشجارها وورودها وزهورها وأناقة الممشى الّتي ذكرتها بروعة مروج بلدها وهي قاصدة البندقيّة... وهنا توقّف نظرها عن رؤية ما حولها وطوّح بها خيالها إلى هناك، إلى مسقط رأسها، إلى حيث أهلها في قرية منسيّة واقعة في الضّفّة الأخرى من البحر... فاستحضرت كلّ الوجوه العزيزة على قلبها، أمّها، وإخوتها، وخالاتها وعمّاتها حتّى أنّها لم تسمع الأمير وهو يحدّثها عن هذا القصر وبقي وجه أمّها يلحّ عليها فترقرقت دمعة في مقلتيها.

-... ما بك يا حبيبتي؟ هل سرحت بعيدا... أم أنّك رحت تتخيّلين هذا القصر من الدّاخل؟ ماذا؟ هل تبكين... ما بك يا روحي؟

- مولاي... بي حنين وشوق جارف إلى رؤية أمّي وإخوتي. فهل يعزّ عليك تلبية هذه الرّغبة؟

لم تكن تلك هي أوّل مرّة تطلب فيها ريم من الأمير أن يعمل على استقدام أمّها أو أحد إخوتها بل تكرّر هذا الطّلب عديد المرّات وبدون إلحاح لكن بشيء من اللّباقة واللّطف، وكان الأمير يحاول في كلّ مرّة أن يغيّر مجرى الحديث في هذا الموضوع أو يسكت عنه أو يعدها بالنّظر في رغبتها حين تسمح الظّروف السّياسيّة، لكن هذا اليوم بالذّات وهما أمام قصر باردو الجديد، فقد أصرّت ريم على أن تعرف موقف مولاها النّهائيّ، وأن تسمع منه موافقة أو رفضا حتّى ينتهي هذا الموضوع ولا تعود إليه مرّة أخرى...

لم تكن ريم مسرورة جدّا بوجودها في باردو، فقد شعرت بأنّ هذا القصر كئيب ويفتقر إلى روح حميمة وإلى دفء عرفتهما في قصري القصبة ورأس الطّابية. وزاد في انقباضها صمت الأمير وبروده، فلم ترغب في إثارة الحديث وتظاهرت بالتّأمّل في زخارف أسقف القصر وجدرانه بينما كانت مشاعرها تتأرجح بين حبيبها وبين الحنين إلى أهلها. حنين ألحّ عليها منذ أيّام ولم تكن تدري السّبب، فقد كان خيال أمّها يتردّد عليها في يقظتها وفي منامها، وحاولت أن تفسّر ذلك، واستعانت حتّى بقارئة الكفّ فلم تظفر منها إلاّ بنظرة مبهمة وبابتسامة شاحبة ثمّ قالت لها: "اطمئنّي يا مولاتي، ستلتقيان في مكان رحب جدّا... لا هنا... ولا هناك".

وكأنّ الأمير قرأ أفكارها فسألها قائلا:

- أما زلت تفكّرين في والدتك يا ريم؟

- نعم يا مولاي... أرجوك... أرجوك... لا تردّ طلبي، ولا تكسف خاطري.

- سوف أرسل في القريب العاجل رسلا إلى إيطاليا ليبحثوا عن أهلك، وسأبعث معهم هدايا إلى والدتك... فهل يرضيك هذا؟

ارتمت ريم في عنق مولاها وعانقته بكلّ حنان وهي تتمتم بالشّكر وبكلمات المحبّة وقد غمر قلبها فرح لا حدود له.

- لن أنسى لك هذا الفضل يا مولاي... هيّا نخرج من هذا المكان... لا أظنّ أنّي سأستقرّ فيه... سوف أبقى في قصر القصبة فهو أحبّ إليّ من أيّ قصر آخر.

*****

بعد بضعة أيّام سافرت مجموعة من رجال الأمير إلى إيطاليا محمّلين بالهدايا بعدما زوّدتهم ريم بالتّفاصيل الدّقيقة الّتي ستمكّنهم من العثور على أهلها المقيمين بإحدى القرى الضّائعة على السّواحل الإيطاليّة، لكن دون تحديد جغرافيّ ولو تقريبيّ للموقع، كما مكّنتهم من

عنوان عمّها في البندقيّة وطلبت منهم الاتّصال به في صورة فشلهم في العثور على أمّها أو إخوتها. ومن شدّة شوقها إلى أهلها فكّرت حتّى في الاستنجاد بأنطونيو، فهو على الأقلّ يعرف عمّها ويستطيع أن يبحث عن أهلها بدافع حبّه لها، لكنّها سرعان ما عدلت عن هذه الفكرة ورفضتها من أساسها خوفا من العواقب ورضيت بما فعل الأمير.

كان كلّ يوم يمرّ إلاّ وتزداد لهفتها لمعرفة أخبار أهلها ويتعاظم شوقها إلى رؤية أمّها، فانشغلت بالوقوف على إعداد الجناح الّذي أفردته لأمّها وأهلها وجلبت له كلّ ما يمكن أن يجعله مريحا وقريبا من ذوق أمّها وممّا تحبّه، وأحضرت حتّى الملابس النّسائيّة والرّجاليّة لمن سيحضرون، وكان شوقها يدفعها في بعض الأحيان إلى التّفكير في الخروج إلى الميناء لاستقبال القادمين، لكنّ ريحانة كانت تمنعها وتحدّ من اندفاعها.

جاء اليوم الّذي عاد فيه رسل الأمير من إيطاليا ونزلوا بميناء تونس، وعلمت ريم بقدومهم فلم تسعها الدّنيا من الفرحة ورجت من الأمير أن يسمح لها بالذّهاب إلى استقبال أمّها في الميناء والعودة معها إلى القصر. ولم يجبها الأمير بل نظر إليها عميقا ثمّ لفّها إليه بكلّ قوّة وبحنان ممزوج بالإشفاق وهمس لها وهو يستعدّ لإسنادها بحنوّ:

- أمّك لم تأت يا حبيبتي... أمّك... انتقلت إلى رحمة الله يا ريم منذ ثلاث سنوات.

صاحت ريم صيحة مرعبة ثمّ استرخى جسمها بين يدي الأمير وراحت في غيبوبة مطلقة تواصلت وقتا، ولمّا استفاقت رأت وجها حنونا يقترب منها ويناديها باسمها الأوّل:

- ماريا... ماريا... عزيزتي، أنا أختك "ليزا" وهذا أخوك "ماريو"...

*****

لم تتوصّل منّانة إلى إدراك سرّ تلك العاطفة المبهمة الّتي يبديها عشيقها أنطونيو نحو الأميرة ريم، ولم تستطع أن تنسيه ذلك الحبّ الّذي اصطبغ به قلبه اصطباغا أدهشها وأقلقها في آن واحد. ورغم محاولاتها المتكرّرة والمتنوّعة لاحتواء أنطونيو وإظهار العطف والحبّ نحوه فقد كان يصدّها دائما سواء بكلمات رقيقة أو يفهمها أنّه يحبّها فعلا لكنّه لا يستطيع أن يبادلها شعورا مثل الّذي أحسّه ويحسّه إلى اليوم نحو ريم، وطلب منها أن لا تغضب وأن لا تتأثّر، وأن تترك علاقتهما في مستوى المتعة الحسّيّة وأن لا تبحث عن تفسير أو عن إجابة لسرّ العلاقة الّتي تربطهما، فإذا وافقت دامت المحبّة والوصال، وإذا رفضت انقطع حبل الودّ ويا ناس ما كان باس.

قنعت منّانة بتلك الحياة السّرّيّة مع أنطونيو وأصبحت تعيش على أمل لقياه وتستعدّ لذلك استعدادا يذكّرها بأيّامها الأولى مع زوجها. حتّى أنستها العادة ذلك الحرص على التّكتّم والحذر، حتّى جعلها اندفاعها وراء متعتها تنسى ذلك ولا تشعر بما يعدّه لها زوجها الّذي شكّ في أمرها وبلغه عنها لغط مبهم، فجعل وراءها من يتصيّد حركاتها ويتبع خطواتها، ودامت هذه العمليّة قرابة عام ونصف العام لم يستطع أحد أن يكتشف سرّها ويعرف من يكون عشيقها، لأنّ الخطّة الّتي وضعها أنطونيو لزيارتها كانت تنفّذ في وقت متأخّر جدّا من اللّيل، حين تكون المدينة غارقة في سبات عميق. لكنّ العين الّتي رأته ذات ليلة من ليالي رمضان العام الفائت وتبعته حتّى اختفى في قصر البنات عند عمّ الجيلاني، وقعت عليه صدفة فعاودت تتبّعه في غدوّه وفي رواحه فصارت تعدّ عليه حركاته وسكناته مع منّانة... أمّا صاحب تلك العين فهو ذاك المجهول الّذي طرق باب عمّ الجيلاني وسأله ليلتها من يكون الشّابّ الّذي دخل توّا إلى القصر. لكنّ إجابة عمّ الجيلاني كانت

قاطعة: "ماذا يهمّك يا هذا في أمور سلطانيّة، انصرف ولا تعد إلى السّؤال عن أمور لا تعنيك، فذاك عون من أعوان السّلطان، وهو عين من عيونه على من لا تنام لهم عيون... تصبح على خير... "

نسي أنطونيو ذلك الشّعور الّذي كان يلازمه كلّما خرج من عند منّانة، وهو إحساس بحضور شخص ما، وبعين ما تحطّ على كتفيه من الخلف، نسي ذلك ولم يعد مع مرور الأيّام ينتبه لما قد يجرّه إلى التّهلكة، فقد تعوّد على مؤانسات منّانة وهو في أحضانها تحبّه وتحنو عليه وتخاف عليه، وتحكي له حكايات تونسيّة تزيد في شعوره بالألفة مع هذه المرأة الطّيّبة والحنون، فانساق في دعة العيش واستساغ اللّعبة الحرام، وكانت متعته ممزوجة أحيانا بشيء من الشّعور بالانتقام... ممّن؟ ولم يعرف الرّدّ عن السّؤال، أو كان يعرف ولا يريد أن يبوح به حتّى لنفسه.

وذات ليلة، وكانت ليلة رائعة في كلّ شيء، في هدوئها، وفي روائحها وفي حنانها وفي متعتها... وكان أنطوينو ينعم بالسّعادة تحت جناح منّانة يسمعها تحكي له بصوت لم يألفه، فخاف منه أو شعر بانقباض منه فنظر في عينيها متسائلا، ورأى الدّموع منحبسة في مقلتيها، فأراد أن يسأل... لكنّه سمع حركة مريبة في مكان ما من الدّار... وبدون أن ينتظر قفز إلى ثيابه فلبسها على عجل أمام منّانة الّتي أدهشها هذا التّصرّف فلم تحاول أن تستر نفسها وقامت إلى أنطونيو تريد استبقاءه وقد ذهب في ظنّها أنّها أغضبته بكلمة منفلتة، لكنّه انفلت من يديها واندفع إلى الباب بقوّة فاصطدم بالرّجل الدّاخل وأوقعه أرضا ثمّ غاب في ظلام اللّيل وقد أمدّه فزعه وخوفه بقوّة خارقة للجري وحتّى للاصطدام بالجدران دون أن يقع، وجرى بدون هدف وهو لا يكاد يرى.

كبّل منّانة خوف مرعب وصعقها هول المفاجأة، فجحظت عيناها وهي ترى زوجها ينهض من سقطته كالوحش الجريح وينقضّ عليها بكلّ ثقله. شعرت بألم في صدرها يشبه الوخز فوضعت يدها حيث الألم وسحبتها وقد تلطّخت بسائل لزج راح يتدفّق بغزارة، وشعرت بدوران مريع يسحبها إلى قاع مظلم فأطلقت صيحة مدوّية، وكانت آخر صورة تمرّ أمام عينيها هي صورة أنطونيو الهارب...

راحت منّانة في غياهب الموت ترافقها مشاعر متداخلة تشابك فيها الحبّ والخوف والكره والفزع والاستسلام...

*****

مرّ شهر على أنطونيو وهو يعيش في خوف مطلق بعدما علم بمقتل منّانة، ولم يدخل المدينة من ليلتها، ولم يذهب إلى عمّ الجيلاني واكتفى بالالتقاء بسي إبراهيم بن مخلوف في الميناء خارج باب البحر، يجلس إليه ويتحدّث معه دون أن يذكر له شيئا عن مغامرته مع منّانة، وكان يتحرّق شوقا إلى إلقاء سؤال عن أصداء الجريمة، لكنّه كان يدرك أنّ سي إبراهيم لا يعرف شيئا ولم يسمع أيّ خبر سوى أنّ عمّ الجيلاني حزين هذه الأيّام ومهدود بسبب فقدانه لأحد أفراد عائلته في حادث مؤلم ورجاه القيام بأداء واجب التّعزية للرّجل الطّيّب. لكنّ أنطونيو تعلّل بالانشغال الشّديد بأمور التّوريد والتّصدير، وبالإعداد لزيارة وشيكة للسّنيور ألكسندر الّذي سيحضر من البندقيّة، ورفض حتّى تلبية دعوة صديقه للعشاء معه معلّلا رفضه بأنّه على غير استعداد للخروج من الفندق، وأنّه متوعّك المزاج فاقد للشّهيّة في كلّ شيء، حتّى في الحياة. ولم يلحّ سي إبراهيم فقد شعر بأنّ أنطونيو يعيش تمزّقا مريعا وضياعا لا حدود له فتركه على حاله ولم يحاول حتّى مواساته.

كان أنطونيو وقتها يفكّر في الهروب من تونس خوفا من أن يقتله ذلك الرّجل الّذي داهمه وهو في فراش متانة. لكنّ التزاماته مع السّنبور ألكسندر ومع سي إبراهيم حالت دون تحقيق المراد. ولم يجد الملجأ الأمن سوى في القائد عبد الله التّرجمان، فهو بالنسبة إليه مازال ذلك القسّ الّذي يقدر على الاستماع إلى شكواه، والمستعدّ دوما لتقبّل اعترافاته بالخطأ دون لوم ولا تقريع. وهو أوّلا وأخيرا مثله علج غريب عن الدّيار التّونسيّة، حتّى لو أسلم وتعمّم وأنجب من تونسيّة مسلمة. فأصله النّصرانيّ الأصيل باق في عيون النّاس، واسمه البديل "عبد الله". وكنيته إلى مهنته "التّرجمان" يدلاّن على غربته وانبتاته وسط قوم غير قومه.

كان يودّ مقارعة الرّجل المرتدّ ليجد لنفسه أجوبة عن أسئلة بعثرت حياته وسط قوم مازالوا يعتبرونه ذلك الكافر الّذي لا مكان له بينهم ما دام على تيهه وشركه بالله وإنكاره للتّوحيد. لكن هل يقدر على مقارعة براهين ذلك الرّجل العالم بالدّنيا وبالدّين وباللاّهوت وبالكهنوت والّذي تاه هو الآخر دينا ودنيا، وإلاّ فما معنى غربته الاختيارية في هذا البلد الّذي يُعتبر في خصام دينيّ متأصّل مع النّصارى منذ القدم؟

لا بدّ من جلسة مع هذا الرّجل، فلربّما يفتح له أبواب الفرج.

رغم احترام أنطونيو للقائد عبد الله التّرجمان وللاعتبار الكبير الّذي يكنّه له، إلاّ أنّه تجاسر ذات يوم على دفع بابه في الدّيوانة، لا بسبب طلب خدمة، بل ليفرغ أمامه ما أثقل عليه من هموم، لكنّه لم يستطع حين جلس إليه، فقد خشي غضب الرّجل وتقريعه له واكتفى بالسّؤال عن أحواله... لكنّ القائد أفحمه بما كان لا ينتظر قائلا:

- لا يا أنطونيو... أنت لم تأت إلى هنا بعد هذه الغيبة لتسأل عن أحوالي فقط... كنت تستطيع أن تفعل ذلك كلّ صباح حين كنت

تعترضني، لكنّك كنت تتفاداني، أمّا اليوم فإنّك هنا لسبب يقلقك ويعذّبك... فما هو؟

- لا... لا يا سيدي... وحقّ الرّبّ... لا شيء... أصابني القلق والقنوط فأردت أن أتحدّث معك وأسألك عن كتابك الّذي حدّثتني عنه... فهل أنهيته وما هو عنوانه؟

نظر إليه سي عبد الله التّرجمان نظرة ثاقبة وفاحصة ثمّ ابتسم بشيء من السّخرية وقال له:

- لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم... حيّرتني أيّها الشّابّ الضّائع... أعرف أنّك تكذب، ولكنّي أقبل كذبك لأنّك لا حول لك ولا قوّة... ولأنّي أشفق عليك أيضا... لكن لا بأس... كما أردت، سأخبرك عن أحوالي، وعن أحوال أهلي جميعا وهم بخير، أنا أيضا بخير وقد فرغت فعلا من كتابي الّذي سمّيته "تحفة الأريب في الرّد على أهل الصّليب" فإذا أردت أخذ فكرة عن محتواه تعال إلى الدّار لتناول العشاء وسأقرأ عليك منه بعض الصّفحات علّ الله يهديك ويرشدك عن طريق كتابي هذا إلى الصّواب... وإذا كنت لا تحبّ الحديث في أمور الدّين، بل في شؤون الدّنيا فعندي لك ما تريد يا صاحبي.

أطرق أنطونيو قليلا ثمّ فاجأ القائد بسوال عابث:

- هل أنت سعيد فعلا في هذه البلاد يا سيّدي القائد؟

نظر إليه عبد الله التّرجمان نظرة فاحصة وقال له:

- حالي غير حالك يابني، ولا مقارنة بيني وبينك.

- طبعا يا سيّدي، فأنت محظوظ، ولقد جازاك السّلطان، ورفع من شأنك، وسمّاك في أعلى المراتب، وزوّجك بامرأة من الأعيان، ووهبك دارا، أمّا أنا فقد أخذ منّي المرأة الّتي أحبّ، وبذلك حطّني وحطّمني، وآخرتها ماذا؟..

- الموت...

انتفض أنطونيو لوقع هذه الكلمة على نفسه وظنّ أن عبد الله التّرجمان قد سبر أغواره وكشف سرّه، فرسم لا إراديّا علامة الصّليب. لكنّ الرّجل ضحك لارتباكه وطمأنه قائلا:

- اطمئنّ، فما زلت ستعيش وترى، وإنّما أردت أن أقودك بالملموس إلى بعض ما كتبت في كتابي عن دين النّصارى وعن بطلان عقيدتهم. وما رسمك للصّليب مثل الآلاف المؤلّفة من المسيحيّين سوى دلالة على الكفر بالله عزّ وجلّ.

- يعني يا سيّدي أنتم هم المؤمنون ومصيركم الجنّة، ونحن الكفّار ومصيرنا كلّنا، النّار، فأخبرني إذن، هل الرّبّ يكره مخلوقاته إلى هذا الحدّ حتّى يجازيهم بهذا العقاب على إيمانهم به؟

- آه... هنا مربط الفرس، فالله أحد، واحد أحد، لا شريك له. وعلامة الصّليب الّتي رسمتها منذ حين دلالة على الشّرك الفاضح بالله. فهي إشارة إلى الثّالوث المقدّس والّتي رسمتها أنت منذ حين، اعتقادا أو آليّا، فهي تدلّ على الأب والإبن والرّوح القدُس، قال الله تعالى: " قل هو الله أحد الله الصّمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد". صدق الله العظيم. والسيّد المسيح يا أنطونيو لم يصلب أبدا لأنّ العقيدة الّتي جاء بها القرآن الكريم تنفي ألوهيّة عيسى وتثبت بشريّته وتنفي عمليّة القتل والصّلب، والدّليل ما جاء في القرآن بمعنى"وقولهم إنّا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم وأنّ الّذين اختلفوا فيه لفي شكّ منه ما لهم به من علم إلاّ اتّباع الظّنّ وما قتلوه يقينا"

- يعني يا سيّدي القائد أنّ المسيحيّة قاطبة قائمة على كذبة كبرى مازال المؤمنون بها يقدّسونها رغم هذه الحقيقة القرآنيّة الّتي تتبنّاها أنت؟

- نعم.

- لكن لماذا؟ وهل كبار الكنيسة مدركون لهذا؟

- مدركون حقّ الإدراك، لكنّهم في عماهم يغوصون، وهذه الحقيقة لو نشروها في صفوف المسيحيّين لتقوّض بناء العقيدة المسيحيّة من أساسه، وهذا أمر لن يقع أبدا.

- من إذن من الدّيانتين يحمل الحقيقة؟

- الإسلام، إعلم يا بنيّ أنّ لهذا الدّين كتاب واحد، وأنّ النّصارى لهم أربعة كتب، نعم أربعة، فمنها الأصليّ ومنها ما كتبه بشر، لكنّ المصيبة أنّ هذه الأناجيل الأربعة معترف بها لدى الكنيسة ويعتقدون أنّها كتبت بوحي وبإلهام سماويّ وبالتّالي فهي مقدّسة. وأزيدك للحقيقة، فإنّ الأناجيل تاريخيًا كانت أكثر من هذا العدد بكثير فقد وصل إلى الأربعين.

- أربعون؟

- نعم، وعليك إذن يا صاحبي إذا كان لك عقل حصيف أن تتبيّن الحقّ من الباطل، وخلاصة القول فإنّ الأناجيل الأربعة المعتمدة من قِبَلِ الكنيسة ما هي إلاّ كتابات بشريّة عن أحوال عيسى عليه السّلام، مضاف إليها التّحريف الطّارئ على عقيدة التّوحيد الّتي بدأت في فجر المسيحيّة ثمّ حرّفت لاحقا.

- وكتبت كلّ هذا في كتابك يا سيّدي القائد؟

- نعم، وأكثر من هذا بكثير.

- أرجو أن يحفظك إيمانك هذا من كلّ سوء.

- حين يعتقد المرء في عقيدة صحيحة فإنّه لن يخشى أبدا أيّ مكروه، فالأعمار بيد الله، هيّا الآن لنغيّر الحديث فيما ينفعك أنت شخصيًا.

*****

خرج أنطونيو من الدّيوانة وقد شعر بشيء من الرّاحة واستمع إلى نصائح صديقه العالم وقرّر أن يزوره في بيته ليستزيد من نصائحه وأحاديثه المفيدة... لكنّه لم يقرّر أن يلبي رغبة السّيّد عبد الله ولا رغبة عمّ الجيلاني ولا رغبة سي إبراهيم في الدّخول إلى دين الإسلام. ولا حتّى في ديانة إلحاد، فقد صارت دنياه قاحلة، وروحه كالحة. وتكاد نفسه لا تهفو سوى... أوه يا عمّ الجيلاني، أنت الوحيد المدرك لضياع نفسي في متاهات نفسي رغم بساطتك وقلّة علمك.

تذكّر عمّ الجيلاني فشعر بالحنين الشّديد لملاقاته والجلوس إليه وشرب قهوة لذيذة من إعداده.

استجمع ذات عشيّة شجاعته المبعثرة وقرّر أن يتنكّر في ثياب أهل البلد وأن يذهب إلى عمّ الجيلاني ليلا... لمعرفة الأخبار... كلّ الأخبار.

غربت الشّمس عن المدينة منذ ساعة حين سمع عمّ الجيلاني طرقا على بابه، فأشعل شمعة واتّجه نحو الباب بعدما تباطأ في القيام لفتحه متسائلا من الطّارق، ولمّا فتح الباب وتعرّف على الشّاب لم يتمالك وصاح في وجهه:

- أنت؟ ... أغرب عن وجهي أيّها الكلب القذر... لعنك الله... اذهب...

صفق الباب في وجه أنطونيو الّذي شعر بغصّة تسدّ حلقه وبسؤال كبير يروج في رأسه... لكنّه راجع نفسه بسرعة وأعاد طرق الباب بعنف...

- اِفتح يا عمّ الجيلاني... اِفتح واسمعني أرجوك... لماذا فعلت هذا؟ ... أحلف لك أنّي لم أفعل شيئا يغضبك... اِفتح يا عمّ الجيلاني أرجوك... اِفتح يا عمّي الجيلاني... فأنت الوحيد الّذي يعرف حالي ويرأف بي، أنت في مقام أبي الّذي حرمت منه، أنت الكبير الّذي يحنو على الصّغير...

استغفر عمّ الجيلاني وحوقل حين حنّ قلبه على هذا الشّابّ التّائه ففتح له الباب دون أن يسلّم عليه بالأحضان كالعادة. ممّا جعل أنطونيو يروح في تساؤلات حائرة عن أسباب انقلاب الشّيخ تجاهه. ورغم الصّدّ الّذي أبداه نحوه، فقد تحامل على نفسه وأحضر له قهوة وراح يستمع إليه يتحدّث دون أن يقاطعه. ولمّا فرغ من كلامه ومن إلقاء أسئلته بادره بصوت مرتعش:

- أنت يا طوطو الأسود سواد غراب... أنت نقمة على نفسك وعلى غيرك... أنت من صنف هؤلاء الّذين أرغب في قتلهم وإحيائهم لكي أعود إلى تعذيبهم مرّات ومرّات. أنت السّبب في هلاك تلك المرأة الطّيّبة منّانة. وهي في عزّ الشّباب، خنت زوجها وخنتني... لأنّي صديقك وأعرف، أو لا أدري ماذا، لا أدري... لم أستطع أن أدلّهم على طريقك. سامحني يا ربّ... سامحني... ولو فعلت ذلك لكنتَ اليوم من الهالكين... لقد تستّرت عليك لارتكاب فعل الحرام وأنا لا أدري أنّي شريكك في الظّلال. حسبي الله ونعم الوكيل. أكمل قهوتك واخرج من هنا. لك الله. لك الله. لقد أحببتك لوجه الله وفتحت لك بابي وقلبي فجازيتني بهذا الصّنيع. وكنت السّبب يا هذا في هلاك منّانة ابنة أختي، ابنتي الّتي لم أرزق... حسبي الله ونعم الوكيل... حسبي الـ ...

تعطّلت في حلق عمّ الجيلاني غصّة بكاء فاستدار ناحية الجدار ليخفي حرقته. فما كان من أنطونيو إلاّ أن اندفع خارجا وهو لا يكاد يرى من فرط الدّموع الّتي غشت بصره. وقد شعر بهول ما ارتكب في حقّ هذا الرّجل الطّيّب.

لقد هاله ما سمع، وهالته الحقيقة المرّة، وزادت شكوكه إلحاحا. فها هو عمّ الجيلاني يعرف الحقيقة. وإذا عرف عمّ الجيلاني الحقيقة فإنّ أهل منّانة كلّهم يعرفون الحقيقة، وأنّ واحدا منهم سيسعى إلى

الانتقام منه وبالتّالي فإنّ زوج منّانة أو الّذي يريد رأسه مازال وراءه، والمسألة مسألة وقت لكي تحيّن الفرصة لقتله غِرّة سواء في الطّريق أو في الميناء أو حتّى في الفندق.

لكن كيف لا يعلم سي إبراهيم بن مخلوف بهذه الحقيقة الهدّامة؟ كيف لم يعلم بما جرى وهو اللّصيق بعمّ الجيلاني؟ فهل لا يعلم حقّا، أو يعلم وسكت؟ ولماذا يا ترى؟

إذن البقاء في هذه البلاد صار خطرا وعبثا والفوز بالحياة صار ملحّا، وإلى الجحيم ذلك الحبّ الّذي لم يجن من ورائه سوى الخسران.

بعد الغد التقى بسي إبراهيم بن مخلوف وتظاهر أمامه بالضّيق الشّديد ولمّا سأله سي إبراهيم ادّعى أنّه تلقّى خبرا من البندقيّة مفاده أنّ السّنيور ألكسندر يحتضر وأنّه يريده بالقرب منه، وأنّ عليه السّفر عاجلا بعد تصفية بعض الأعمال العالقة، وسوف يوكّله على الأعمال الباقية ريثما تتّضح الرّؤية.

قَبِل سي إبراهيم بن مخلوف النّيابة محبّة في السّنيور ألكسندر شريكه السّابق، وأخذا بخاطر أنطونيو وهو لا يدري أنّ هذا الأخير سيهرب بجلده خوفا من انتقام محتمل.

لقد كان سي إبراهيم جاهلا فعلا بكلّ أطوار علاقة صديقه بمنّانة، وجاهلا حقّا بصلة عمّ الجيلاني بالفقيدة إذ لم يخبره الرّجل إطلاقا، ولو بالغمز، بالحقيقة المرّة.

وكما وصل أنطونيو ذات يوم إلى تونس وهو ساع وراء سراب حبّه المجنون لماريا، غادرها وهو هارب من تداعيات عشق منّانة له. فشتّان بين عشق وآخر.

*****

استساغت ليزا أخت ريم الحياة في قصر القصبة وقسّمت وقتها بين التّجوال في جنان رأس الطّابية والعناية بالطّفلين محمّد المنتصر وعثمان فقد أحبّتهما كما أحبّاها وأصبحا لا يرومان فراقها، بعدما أظهرت لهما مرحا واستعدادا لتحمّل شقاوتهما ممّا جعلهما يبتعدان عن أمّهما الّتي أصبحت تميل كثيرا إلى العزلة وتجترّ أحزانها على عدم إدراك أمّها حيّة لتقاسمها سعادتها برؤية حفيديها يمرحان أمامها، ووجدت عزاءها في الصّلاة والتّأمّل وفي الاجتماع بالأمير محمّد المنصور تسمعه يحدّثها عن أحوال البلاد وعن مشاكل السّلطان مع العائلات المالكة في تلمسان وعن ثورات العربان الّتي لا تهدأ، فتحاول أن تقدّم له النّصح على قدر إدراكها للأمور، وصارت سهراتهما هادئة في جوّ من الحبّ ومن التّفاهم المتزن حتّى ابتعد الأمير شيئا فشيئا عن حياة اللّهو مع الجواري واكتفى بالعيش المعتدل يعاضد والده السّلطان في تسيير أمور الدّولة وينوبه في معظم الأحيان في السّفر إلى أرجاء السّلطنة لقضاء أمر أو لتفقّد موضع.

لاحظ كلّ من في القصر أنّ ريم تغيّرت كلّيّا وأنّها أصبحت تبدو أكبر من سنّها الحقيقيّة كما لاحظوا أنّ وليّ العهد قد انصرف عن جواريه فأعتق بعضهنّ وخيّر الأخريات بين البقاء في القصر أو في التّزوّج والعيش في المدينة. أمّا ريحانة فقد فضّلت البقاء في القصر وفاء لمولاها ولصديقتها ريم.

قالت لها ذات مرّة:

- لا أستطيع يا ريم أن أفهم هل أنا فرحانة أم حزينة لهذا التّحوّل الّذي تعيشينه، لا أراك إلاّ شابّة في مقتبل العمر لا ينقصك شيء، تنعمين بكلّ ما تريدين وتشتهين ومع ذلك أحسّ كلّ يوم أنّك تنصرفين عن سعادتك شيئا فشيئا وتقتربين من حياة الرّاهبات...

- لست راهبة يا ريحانة أنا مسلمة لم أتغيّر، ولكنّي تعقّلت كثيرا وعرفت منذ علمت بوفاة والدتي أنّ لكلّ شيء نهاية، وأنّ على الإنسان أن يعمل لنهايته كما أمرنا بذلك المولى عزّ وجلّ.

- كأنّي أستمع إلى عجوز بلغت من العمر عِتِيًّا، في حين أنك في الثّالثة والعشرين من العمر. ماذا أصابك يا امرأة؟ هل زهدت حتّى في الحبّ؟

- منّانة ماتت أو قتلت وهي في الثّلاثين من أجل الحبّ والحياة، وقد زادني موتها غمّا على غمّ... فقد أحببت تلك المرأة حبّا صادقا، وليتني أعرف من هو المجرم الوغد الّذي جرّها إلى الرّذيلة... حتّى ماتت في الوحل...

- لا أستطيع أن أجزم... لكنّي أشكّ في شخص... وحدسي لم يخنّي أبدا... أظنّ أنّه... أنطونيو.

ضربت ريم على صدرها بيدها وهي تستحضر اليوم الّذي خرجت فيه للحمّام والتقت صدفة بأنطونيو وقرأت في عيني منّانة شيئا أخافها في ذلك الوقت لكنّها نسيته بعد ذلك...

- المجرم... النّذل... سأخبر الأمير بأمره لكي يأمر بطرده من البلاد، أو ينظر في...

- لا... لا تفعلي أرجوك... دعك منه... ولا تخبري الأمير بشيء ممّا قلته لك... ثمّ إنّ هذه ليست الحقيقة المطلقة... قلت لك مجرّد تخمين لا غير. ربّما يكون شخصا آخر هو الّذي أوقع بمنّانة، لا أريد أن يعلم الأمير بموضوعنا مع أنطونيو لأنّ ذلك سيعود عليك وعلينا بالوبال... أرجوك... هي ماتت يرحمها الله... وهو يعيش في العذاب والغربة... دعينا من هذا الموضوع... كيف حال أخوك ماريو؟

- يبدو أنّ الحياة هنا قد أعجبته كما أعجبت ليزا، وقد أعلمني أنّه يحوم حول فتاة من الموالي العلوج تسكن في ربط باب المنارة، لذلك أجّل عودته إلى إيطاليا، وأرجو من كلّ قلبي أن تشدّه هذه الصّبيّة إلى

هنا حتّى لا يرحل، وسأعمل على تزويجهما لتكون فرصة لجلب بقية إخوتي وأهلي ليعيشوا هنا في الحاضرة. أمّا ليزا فقد أعجب بها أحد رجال الدّولة. لا أعرف خطّته بالضّبط وأظنّه من قوّاد العسكر. وقد رفضته الشّقيّة مدّعية أنّها لا تريد العيش تحت جناح رجل من البربر، وأنّها ما زالت حديثة السّنّ على الزّواج. وأظنّ أنّها تحبّ شخصا آخر. فحاولي أنت يا ريحانة معرفة من يكون. أخاف عليها من طيش الشّباب ومن الوقوع في ما أكره...

- تتآمران عليّ؟

دخلت ليزا فقطعت عنهما الحديث، وكانت تحمل الطّفل عثمان يتبعها المنتصر وجلست قبالة ريم ثمّ قالت:

- أريد أن أخرج قليلا إلى المدينة.

نطقت ريحانة دون أن تنتظر موافقة ريم:

- سأخرج معك يا ليزا.

نظرت ريم إلى ريحانة كأنّها تسألها عن سبب تواتر خروجهما من القصر هذه الأيّام ثمّ ابتسمت لها قائلة:

- حاذري يا ريحانة، أشعر أنّك تلعبين لعبة خطرة... ولا أريد أن أفقدك...

- اطمئنّي يا حبيبتي فأنا لا ألعب خارج القصر.

*****

الفصل الثاني

تونس، 1430

مضت عشر سنوات كانت كافية بأن تحمل للبلاد أحداثا وأن تعزّز موقع السّلطان أبو فارس على إفريقيّة وأن تجعل من وليّ العهد محمّد المنصور رجل الدّولة الّذي تمرّس على السّياسة وعلى الحياة العسكريّة وأصبح يقوم مقام والده في عديد المهمّات خارج الحاضرة سواء كان في الجنوب أو في طرابلس أو في بجاية أو غيرها من مناطق المملكة الممتدّة. وانصرف أبو فارس للاعتناء بحفيديه خصوصا منهما محمّد المنتصر فسهر على تعليمهما ودرّبهما على ركوب الخيل رغم صغر سنّيهما وحرص على أن يكونا حاضرين في كلّ مجالسه ليستمعا ويتعلّما، كما سافر بهما حيثما دعته مصلحة الحكم وعرّفهما بشيوخ القبائل وبتخوم البلاد، وأجلسهما مع رجال الدّين والعلم في كلّ مكان حطّ به، وكان افتخاره بهما وحبّه لهما يفوق في بعض الأحيان حبّه وافتخاره بأبنائه الّذين وزّعهم على معظم ولايات السّلطنة لزيادة ترسيخ حكم بني حفص ولقطع الطّريق أمام الطّامعين في السّلطة من عائلات ما زالت تعمل على الإطاحة بالحفصيّين.

أمّا ريم فقد صقلتها الأيّام وزادتها سعادتها تعقّلا في ظلّ الأمير وأصبحت هي مشيرة القصر تسهر على تنظيمه وتسييره وتعدّه لوليّ العهد كلّما عاد من سفرة طويلة، واستطاعت إلى جانب ذلك أن تؤثّر

على الأمير ليعتق بعض العبيد بمناسبة المواسم والأعياد. وأن يزوّج بعض جواريه لرجاله من الموالي العلوج الّذين يحرسونه أو يقومون على خدمته. واكتشفت ريم في يوم من الأيام أنّ ريحانة تعشق أحد تجّار سوق الصّاغة، وأنّها تتّصل به عن طريق خادمة صغيرة ضبطتها ريم ذات مرّة وأرغمتها على قول الحقيقة. ولم تندهش ريم لما اكتشفته بل كتمت ذلك في نفسها ولم تخبر ريحانة واكتفت بإقناع الأمير بعتق جاريته ففعل بعد تردّد لأنّه ما زال يحمل لهذه المرأة شيئا من الحب والحنين، لكنّ ريم أقنعته بطريقة ما فتخلّى عن رفيقة جنونه بعدما شعر أنّها لم تعد كما كانت.

تزوّجت ريحانة تاجرها وحبيبها، فأسكنها دارا فخمة في حومة باب البنات، ولم تنقطع عن زيارة ريم ورؤية الأميرين الصّغيرين، فهي تحبّهما ويحبّانها ويملآن عليها حياتها بعدما يئست من الخلفة، إذ لم ترزق بولد طوال هذه السّنين، ومع ذلك فقد حافظ عليها زوجها وأظهر لها حبّا لم تنل منه الأيّام.

ليزا وماريو بقيا على دينهما رغم محاولات ريم المتكرّرة ليعتنقا الإسلام، لكنّها توصّلت إلى تزويج ماريو من واحدة من بنات ربط النّصارى بباب المنارة وأهدته دارا قرب حومة باب البنات، ورزق بنتا تشبهه كثيرا، أمّا ليزا فقد أصرّت على أن تبقى عزباء رغم بلوغها الخامسة والعشرين من العمر وترجّت ريم أن ترسل في طلب أختها الصّغرى ماريانا الّتي لم تبلغ بعد السّادسة عشر ربيعا، بعدما رفض أخوتها الذّكور القدوم إلى تونس معلّلين رفضهم بأنّهم لا يستطيعون ترك أعمالهم وزوجاتهم وأولادهم ويرحلون عن ديارهم.

أنطونيو كان قد رحل عن تونس منذ طرده عمّ الجيلاني واكتشف أنّ منّانة هي قريبة صديقه العزيز الّذي كان يعتبرها بمثابة ابنته، وهو الّذي سعى إلى التّعريف بها لدى قهرمانة القصر للقيام بأعمال جانبيّة عسى تنسى مشكل هجرانها من طرف زوجها بسبب عدم الخلفة.

لم يقدر أنطونيو في لحظة الحقيقة تلك على تحمّل الصّدمة فقرّر الرّحيل ووكّل سي إبراهيم بن مخلوف على أعمال التّاجر ألكسندر وركب البحر متّجها إلى البندقيّة وفي قلبه ألم مريع وفي عقله ضباب أسود، وكان طوال الرّحلة يتمنّى أن تقوم عاصفة هوجاء تُغرق المركب ليرتاح من حياته الفاشلة، لكنّه كان في قرارة نفسه يتمسّك بالدّنيا ويحيا على بصيص من الأمل البعيد الّذي كان يتراءى له في ظلمة يأسه.

حال وصوله إلى البندقيّة عصفت به حقيقة مؤلمة جعلته يندم على حياته بأكملها، فقد علم أنّ والدته قد توفّيت منذ أربع سنوات بعدما حزنت على فقدانه فتشرّدت ثمّ ماتت معدمة، وأنّ الدّار الّتي ولد فيها وترعرع قد هُدمت وحلّ محلّها مخزن تاجر خشب، وأنّ صديقته القديمة ريتا قد اختفت من سوق لامارسريا ولا يدري أحد ما مصيرها. وذهب حتّى إلى فيلاّ عمّ ماريا السّنيور كارلو ماندرياني فقيل له إنّه توفّي في عرض البحر منذ سنوات.

كان قد أخّر زيارته بيومين إلى السّنيور ألكسندر ليجد تعليلا منطقيّا لأسباب عودته الفجئيّة من تونس، فكانت الصّدمة التّالية إذ وجد الرّجل على فراش المرض فعلا، ووجد نفسه يحمل أثقالا لا قبل له بتحمّلها فقد بادره السّنيور قائلا:

- أنطونيو... حمدا للرّبّ أنك عدت من بلاد البربر، كنت سأرسل في طلبك فلا تتركني يا ولدي... فقد وجدت فيك الرّجل الأمين المخلص والعارف بكلّ أسرار تجارتي. سأموت عن قريب... هذا ممّا لا شكّ فيه

وسأترك في عهدتك بناتي الثّلاث... وتجارتي هنا في البندقيّة وفي جنوة، وفي صقلّية وفي تونس، اعتن بكلّ ما ذكرته لك... وبادر من اليوم لتطّلع على ما عندي في الأماكن الّتي ذكرتها لك...

- أنا؟ ... أنا يا سنيور ألكسندر أقوم بكلّ هذا... وماذا أستطيع أن أفعل لثلاث بنات... ولتجارة كبيرة؟ أنا جئتك ضائعا، يائسا بائسا، فإذا بك تغرقني وتثقل كاهلي بمسؤوليّات لا قبل لي بتحمّلها؟ ... لا...

بقي السّنيور ألكسندر يحاول إقناع أنطونيو بقبول إدارة أعماله فقبل عن مضض شريطة أن يكون ذلك لفترة قصيرة، وفي الأثناء، كتب السّنيور الكبير وصيّة تجعل من أنطونيو النّاظر الوحيد على كلّ أملاكه وتجارته.

ومات السّنيور ألكسندر بعد بضعة أشهر من كتابة وصيّته.

اضطرّ أنطونيو إلى تحمّل المسؤوليّة بأكملها إخلاصا للرّجل الّذي احتضنه في لحظة ضياعه وغربته ووكّله على ماله وعلى تجارته في بلاد البربر، ووجد في القيام بالأعمال الّتي بقيت معلّقة فرصة لكي ينسى تونس وماريا وكلّ تلك الأعوام الّتي قضاها في التّذبذب بين الشّكّ والأمل، فأحبّ عمله الجديد الّذي مكّنه من السّفر باستمرار والاطّلاع أكثر على دواليب التّجارة والمبادلات، ولم يفشل، فقد تعلّم ما رآه وما لمسه وحفظه وطبّقه، فكبرت التّجارة وتوسّعت الحركة وكثرت المعارف، وكان همّه طوال الأعوام الّتي قضاها في السّفر وجمع المال هو تزويج البنات الثّلاث ليوفي بوعده لصديقه الكبير، ولم يخطر بباله أبدا أن يتزوّج واحدة منهنّ لأنهنّ أوّلا متوسّطات الجمال وثانيا لهنّ ميولات ارستقراطيّة ومترفّعات وثالثا لأنّه لم يشعر نحو أيّ واحدة منهنّ لا بالحبّ ولا بالانجذاب، وكان يزورهنّ مرّة في الشّهر يتفقّد أحوالهنّ ويزوّدهنّ بالمال اللّازم، حتّى عثر ذات سفرة على تاجر كان يعرف السّنيور ألكسندر وقبل تزويج ابنيه لبنتي صديقه القديم فكان ذلك بمثابة الصّفقة الرّابحة، إذ أنّ الرجل يعرف جيّدا حجم ثروة السّنيور ألكسندر.

شعر أنطونيو بأنّ الحمل قد خفّ على كاهله شيئا ما ولم يبق له سوى تزويج البنت الأخيرة وتصفية الأموال وتقسيمها على البنات وأخذ نصيبه العائد إليه حسب ما أشار به السّنيور ألكسندر في وصيّته.

لمّا تزوّجت البنت الثّالثة والأخيرة من أحد الأرستقراطيّين في البندقيّة سارع أنطونيو إلى قسمة العائدات التّجاريّة للسّنوات الماضية على البنات وكان نصيبه ثروة لا بأس بها استثمرها لحسابه الخاصّ في مالطا وأبقى على جزء من تجارته مع تونس الّتي صارت من منابه حسب وصيّة السّنيور ألكسندر...

*****

لم يعد إلى تونس خلال السّنوات العشر الماضية سوى ثلاث مرّات كانت آخرها السّنة المنقضية إثر نكبة حصلت له في مالطا، ولم يدخل فيهما المدينة واكتفى بقضاء يومين مع سي إبراهيم ثمّ سافر بعدما كاد يصفّي بقيّة تركة السّنيور ألكسندر في تونس، ولم يكن في نيّته العودة أبدا بعد فشل مساعيه مع السّلطة التّونسية في طلب تعويض خسارة فادحة لحقت بتجارته في مالطا. لكنّ سي إبراهيم أثناه عن عزمه ووعده بمحاولة التّدخّل لدى صاحب الأشغال (وزير المال) لتمكينه من حدّ أدنى من التّعويض عن خسائره.

كان من أثر سياسة أبو فارس عبد العزيز في السّنوات المنقضية، التّدخّل في شؤون المغربين الأوسط والأقصى وجنوب الأندلس، وقيام عداوة سافرة بين سلطان إفريقيّة وملك الأراجون ألفونسو الخامس المتصرّف في آن واحد في حظوظ كورسيكا وسردينيا وإيطاليا الجنوبيّة، إضافة إلى مشاكل القرصنة الّتي كان ينتج عنها إمّا تبادل الأسرى أو فديتهم، وما كان يترتّب على ذلك من أخذ وردّ لا ينتهي، ولم تفد بعثات الصّلح وتجديد معاهداته في تجاوز المشاكل، فقرّر ألفونسو الخامس

بمعيّة حلفائه الطّليان الهجوم على سواحل إفريقيّة بواسطة أسطول ضخم، فكانت البداية بالتّوجّه نحو جزيرة جربة لاحتلالها، لكنّ قادة الأسطول اكتشفوا أنّها محصّنة، وأنّ بها أماكن يجهلونها يمكن أن تؤدّي إلى فشل خططهم الهجوميّة، فانقلبوا إلى جزيرة قرقنة غير المحصّنة فأغاروا عليها وقتلوا عدّة مئات من السّكّان العزل ووقع الباقون في الأسر، وكان عددهم بين رجال ونساء وأطفال ما يناهز ثلاثة آلاف نفر أخذوهم إلى صفاقس لمقايضة السّلطان أبو فارس الّذي كان معسكرا بجربة، فقدم إليهم مسرعا واتّفق معهم على فدية الأسرى من رعاياه. وبذلك أجلى الأسطول النّصرانيّ بعد تلك الغارة الهائلة الفاقدة لكلّ فخر.

لم يردّ أبو فارس في الحين بل بقي يتصيّد الفرص للأخذ بالثّأر وتأديب الأراجونيّين وحلفائهم، وكان كلّما سنحت الفرصة بعث عسكرا يغير على السّواحل الإيطاليّة أو الأراجونيّة، وفي الأثناء كانت تتعدّد بعثات الصّلح بين الطّرفين دون جدوى تذكر.

بعد أربع سنوات من غزوة قرقنة جهّز أبو فارس عبد العزيز حملة عسكريّة حفصيّة بقيادة القائد رضوان فنهب جزيرة مالطا بالكامل طوال عدّة أيّام.

صاح أنطونيو قهرا قائلا لسي إبراهيم:

- ما دخلي أنا في كلّ هذا؟ لقد ذهب شقاء الأيّام في النّار، صار رمادا تذره الرّياح مثل أحلامي يا سي إبراهيم، لقد نهبوا مخازني بالكامل ثمّ أحرقوها، لقد أفلست. ضاعت الثّروة الّتي شقيت من أجل الحصول عليها، ولم أتمكّن حتّى من إبلاغ شكواي إلى السّلطان.

- هذه يا صديقي نتائج الحروب، فهي تثار لتأتي على الأخضر واليابس، وعلى الحقّ والباطل، بل قل الباطل يأتي على الحقّ أحيانا.

هيّا... لا عليك سوف تبقى في تونس وسوف تستعيد أموالك وتنطلق من جديد، وأنا معك أساعدك كالعادة.

كان أنطونيو قد قرّر في الحقيقة العودة إلى تونس وذلك قبل حصول الكارثة ممّا جعله يتأرجح بين الإقدام والإحجام في اتّخاذ القرار النّهائيّ وكان السّبب خبرا عاديّا ساقه إليه عفوا سي إبراهيم سرعان ما أدخله في دوّامة مزعجة لذاته دفعته إلى ترتيب حسابات أخرى غير التّجارة، فقد قال له سي إبراهيم ساعتها مداعبا:

- يبدو يا صاحبي أنّك برئت والحمد لله من حبّ العلجيّة ماريا؟

- نعم يا سي إبراهيم برئت من حبّها، لكنّ مكانها في قلبي بقي محفورا.

- على ذكر صاحبتك هذه، فقد علمت أنّها جلبت بعض أهلها من إيطاليا ومنهم أخت لها، وقد رأيتها صدفة في حومة باب البنات، وقد دلّني عليها عمّ الجيلاني، وهي على حسن أخّاذ.

- ... كيف حال عمّ الجيلاني يا سي إبراهيم؟

- مريض يا أنطونيو، تعال نزره معا.

- ألم يخبرك بشيء عن سبب جفوته لي طوال هذه السّنوات؟

- لا أبدا، فقد كان يشير إليّ بعدم الخوض في الموضوع.

- وصديقنا القائد عبد الله التّرجمان؟

- لقد شاخ واعتكف في بيته.

- والولد عمر؟

- لقد عرف ذلك الولد الذّكيّ كيف يؤثّر في القنصل الفينيسيّ السّابق "مارك فيني" فيدخل في خدمته.

- ماذا؟ عمر الـ ...

- إيه... عمر.

- لكنّي أعرف ذلك القنصل الصّارم والأرستقراطيّ الّذي يكره البربر، فكيف...

- لكنّ الّذي فاتك أغرب، فقد نجح الولد عمر في إقناع القنصل بأخذه معه إلى فينيسيا يا انطونيو.

- لا أصدق.. لا أصدق.

- تلك هي الحقيقة الّتي حصلت منذ أكثر من ثماني سنوات. هيّا بنا نبدأ بالقيام بالاتّصالات الّتي ستمكّنك من قضاء حاجتك.

تلك كانت بعض الأسئلة وغيرها من الّتي ألقاها أنطونيو على سي إبراهيم حتّى لا يشعره بأنّ منعرجا ما قد طرأ على ذهنه وسيكون السّبب في انقلاب وتيرة حياته.

حين هجع إلى فراشه في تلك اللّيلة راح يقلب الفكرة الجنونيّة الّتي بدأت تكبر وتكبر إلى أن صارت قرارا، لكن قبل ذلك تساءل:

- لقد نفضت يديّ من حبّ ماريا نهائيّا ولم تبق في ذهني إلاّ ذكريات مرّة... فلماذا العودة إذن إلى هذا الميناء الّذي لم أرفيه إلاّ رصيفا ألقت بي إليه ذات يوم مغامرة طائشة وهربت منه ذات صباح بسبب مغامرة أخرى عابثة؟ وها أنا اليوم أفكّر في العودة إليه سعيا وراء... ماذا؟

كانت حادثة هجوم العسكر الحفصيّ على مالطا وخسارته للمال والعقار هي الإجابة الّتي جعلته يتّخذ قرار العودة إلى تونس.

*****

بعد أشهر، عاد أنطونيو إلى تونس حاملا ما أمكن له لملمته من شتات أمواله، وكان في نيّته استعادة ما ضاع منه، عازما على مواصلة تجارته انطلاقا من هذه المدينة بمعيّة صديقه سي إبراهيم بن مخلوف، كما عزم على الإقامة بربط النّصارى وربّما التزوج بواحدة من بناتهم.

لم يذهب لزيارة سي إبراهيم رأسا، بل فضّل مفاجأته إذا ما التقاه صدفة في الميناء أو في باب البحر، كان يريد أيضا مفاجأة عمّ الجيلاني، وكذلك مفاجأة القائد عبد الله التّرجمان ويقرأ على وجوههم تلك البهتة الّتي تثيرها عودته بغتة بعد سنوات الغياب، ثمّ كيف تتغيّر قسمات وجوههم حين يقارنون بين حاله بالأمس وبين حاله اليوم. كان يعتقد أيضا أنّ سنوات البعاد قد فعلت فعلها وأنست عمّ الجيلاني ما حصل جرّاء موت منّانة.

ذهب إلى قصر البنات وبيده هديّة من القماش الممتاز، وطرق الباب الكبير وهو واجف القلب من هذا اللّقاء الّذي كان من المفروض أن يحصل من قبل، لكن لا بأس، ما يدوم حال.

أعاد الطّرق مرّات، فلم يجبه أحد ولم يخرج له أحد، وكاد يدور على أعقابه لولا حركة مزلاج الباب الّذي انفتح بشيء من العنف وأفرج عن وجه صارم صاح فيه مباشرة:

- ماذا؟ ألا تعلم أنّ القصر خال؟ انصرف حالاّ يا هذا.

تلكّأ أنطونيو في الذّهاب، فقد جفل من هذا الاستقبال الجافّ، فخرج إليه الرّجل وهو في زيّ عسكريّ ونهره قائلا:

- قلت لك اذهب... علوج عقاب الزّمان، لقد تكاثرتم علينا هذه الأيّام.

ارتجّ أنطونيو حين أدرك أنّ صاحبه العزيز لم يعد يقيم في هذا القصر، ربّما لمرض أقعده، أو...

فتجرّأ وسأل العسكريّ بشيء من اللّطف قائلا:

- عفوا سيّدي، أسأل عن عمّ الجيلاني، هل تعرفه؟

همهم الرّجل بعدما نفض أنطونيو بنظرة ازدراء ثمّ رجمه بجواب في قسوة الحجارة قائلا:

- عمّ الجيلاني... الدّوام لله. لقد توفّي منذ شهر ودفن في مقبرة السّلسلة. فاذهب إلى هناك لتلقاه.

صفق الرّجل الباب في وجه أنطونيو الّذي دار على أعقابه ومشى خطوتين كادتا تأتيان على كلّ قواه. فلم يتمالك وأسند ظهره إلى جدار وعيناه تبحثان عن متكإ آخر حتّى لا ينهار من أثر الصّدمة.

بعدما استرجع بعض قواه توجّه إلى حومة قصر الخرسانيّين وفي قلبه جروح وفي حلقه غصّة وفي عينيه دموع مستعصية أوجعت رأسه. وتساءل، لماذا يرحل الأعزّة قهرا ولا يظلّون على قيد الحياة؟ هل من العدل أن يتباطأ الأشرار في العيش في هذه الدّنيا، بينما يرتحل عنها الأخيار إلى غياهب الموت وبسرعة؟

طرق الباب، باب دار القائد عبد الله التّرجمان وهو وجِل فخرج له شابّ عرف أنّه محمّد ابن سي عبد الله التّرجمان فعرّف بنفسه وطلب رؤية صديقه القديم فرحّب به الشّابّ قائلا:

- آه!... السّينور أنطونيو كازيلا، أهلا وسهلا، كدت لا أعرفك، فقد تغيّر شكلك كثيرا، مرحبا بك، تفضّل بالدّخول.

دخل أنطونيو وقد امتلأ فرحا، فهو سيرى أخيرا ذلك الرّجل الّذي كان ينظر إليه نظرة اعتبار كبير، رغم أنّه كان يخاف من كلامه ولا يتحمّل كثيرا نصحه له. وحمد الله على أنّه مازال حيّا، وليقل ما يقول الآن، فهو سيتقبّل منه لكلّ نصح أو تقريع، المهمّ أن يراه بعد هذه الغيبة. سأل بعدما شرب قهوة أعدّها له خادم الدّار:

- لكن أين السّيّد عبد الله يا محمّد؟

- آه! لم أخبرك بعد، معك حقّ، فقد طالت غيبتك عن تونس، وتغيّرت أشياء وأناس، لقد انتقل الوالد بالإقامة في جنان، وترك لي وصيّة لأبلغها لك.

- وصيّة وجنان؟ لم أفهم يا محمّد.

توجّس أنطونيو من حكاية الجنان والوصيّة فأراد مزيد الإيضاح من ابن القائد، لكنّ هذا الأخير سارع بالقول:

- قال لي أبي ذات مرّة حين ذكرك بالخير... إذا ما عاد السّنيور أنطونيو إلى تونس، خذه إلى داري الأخرى، وقل له لا تتخلّف عن زيارتي كلّما ضاق بك الحال... فهيّا بنا يا سنيور أنطونيو نَزُرْهُ.

فرح أنطونيو وتحسّس الهديّة الغالية الّتي أعدّها للتّرجمان وخرج برفقة الشّابّ وسارا حتّى خرجا من حومة الخرسانيّين فقلّت الدّيار واتّسع الفضاء إلى حدود مربّع مقبرة بها شجرة باسقة، وحينها أسْقِط في يد أنطونيو وأدرك ما المقصود بالجنان.

سقطت في كيان أنطونيو نقطة النّهاية، فهزّه الحزن الخانق ونظر إلى السّماء من خلال دمعة عصيّة، وكاد يتفوّه بقول لا يحبّه صديقه عبد الله التّرجمان، فقال لمحمّد:

- أهذا هو الجنان الّذي يقيم فيه والدك يا محمّد؟

- نعم، هذا هو جنان الخلد يا سنيور أنطونيو. هنا يرقد صديقك رقدته الأبديّة... فترحّم عليه ولا تنس ما حدّثك به ذات يوم، لو رغبت في الفوز بالدّنيا وبالآخرة معا.

*****

كثيرة هي الأحاديث الّتي حدّثه بها عبد الله التّرجمان، لكن ليست تلك المتّصلة بالدّين تحديدا رغم أنّها كذلك في العمق، فقد قال له مرّة في سياق حديث أخذهما إلى مسألة التّسامح عند أهالي إفريقيّة وتحديدا بمدينة تونس:

- أسألك سؤالا وأجيبك أنا، وستكون الإجابة خير دليل على طبيعة هذه الأمّة: لو أنّ سي إبراهيم بن مخلوف استقرّ في البندقيّة وكانت حاله

مثل حالك أو أتعس، أو أفضل في أقصى الحالات. فهل سيلقى فيها طيب العيش وحسن القبول باعتباره مسلما؟ هل سيقابل بروح التّسامح الّتي وجدتها أنت وأمثالك وأمثالي من "البرّانيّة "عن هذا البلد؟ هل سيمكّنونه، هو أو غيره من غرباء المسلمين من فضاء لإقامة مسجد أو مصلّى؟

- لا أظنّ يا سيّدي القائد.

- طبعا لا، لأنّ الكنيسة تخاف من دين محمّد، لأنّه سوف يقوّض الكذبة الكبرى الّتي أسّست عليها المسيحيّة المحرّفة، وبالتّالي يقوّض الكنيسة ورهبانها والمتمعّشين من أموالها ومن كنوزها ومن سلطتها الواسعة.

- ممكن...

- طيّب، هل تدري أنّ بين المسلمين والنّصارى حروب دهريّة قائمة وإلى اليوم؟ يؤجّجها كره متأصّل وتحفّز دائم للانقضاض على بعضهم البعض. فحين جئت إلى تونس منذ أكثر من سبعة عشر سنة هاجم الصّليبيّون الإفرنج من أهل جنوة والبندقيّة مدينة المهدية وحاصروها لمدّة شهرين، وكنت وقتها ضمن خاصّة السّلطان أقوم بمهمّة التّرجمة بين الجانبين، لكنّ هولاء المغيرين ارتحلوا بعدما انهزموا شرّ هزيمة وتركوا وراءهم كرها وحقدا لدى سكّان البلاد قاطبة. وأزيدك ما حدث مؤخّرا، فقد نزل النّصارى بجزيرة جربة وتركوا كذلك أسوأ الأثر في نفوس سكّانها، ومع ذلك ورغم كلّ ذلك فأنت تعيش يا سنيور أنطونيو في تونس معزّزا مكرّما، لا يلحقك سوء، ولا يعتدي عليك أحد لا من الخاصّة أو من العامّة. تذكّر جيّدا أنّك كنت المعتدي ذات يوم على حرمة السّلطان ولم تعاقب سوى بثلاثة أيّام سجنا عوضا عن ثلاثة عقود؟ تعمل وتقوم بطقوسك الدّينيّة بكلّ حرّيّة، هذا لو كانت لك طقوس، ولا أحد يضايقك. وهذا نتيجة ماذا يا بندقيّ؟ نتيجة الأجواء المطمئنة في البلاد،

فقد انتشر العدل، فكان الاستقرار عاما نتيجة السّياسة الحكيمة الّتي توخّاها الأمراء الحفصيّون في إدار مملكة واسعة الأرجاء، وآخرهم السّلطان أبو فارس عبد العزيز. أنت يا أنطونيو ونحن وغيرنا نعيش في هناء نتيجة هذه السّياسة رغم الثّورات والحروب الّتي عاشت البلاد في ظلّها، إلاّ أنّ قوّة الحكم دفعت النّاس للعمل وللعيش في أمان. نحن نعيش هنا بمسلمينا وبنصرانينا وبيهودنا هذا الأمان وهذا التّسامح ونلمسهما ونسعد بهما.

كلمة أخيرة أقولها لك لكي تدرك قيمة هذا البلد وأهله. أنت تتعاطى اليوم التّجارة، وأنا جئت لأتعاطى العلم، لأنّ تونس بلد مزدهر علميّا ودينيّا ومعرفيّا، لأنّ أمراء بني حفص شجّعوا العلم والعلماء. واستقبلوا منهم الكثير ممّن هاجروا، أو فرّوا من الأندلس أيّام الغزو الصّليبي في حروب الاسترداد المتكرّرة، وكان على إسبانيا أن تقدّر قيمة هؤلاء باعتبارهم منارات الحضارة، لكن من أين للقلوب العمياء بسواد التّعصّب والكراهية أن تبدّد ظلمة الجهل؟

تونس - طرابلس، أفريل 1430

وليّ العهد محمّد المنصور غائب عن القصر وعن البلاد منذ شهرين، أرسله السّلطان إلى طرابلس بعدما بلغته أخبار تفيد بأنّ ثورة قامت هناك بزعامة المدعوّ ابن صعنونة، وأنّ عليه أن يسارع بإرسال الجيش لقتل التّململ في أوانه قبل أن يستفحل الأمر... وكان السّلطان أبو فارس الّذي بلغ السّبعين من العمر، يريد الخروج بنفسه للقضاء على هذه الانتفاضة، لكنّ ولده محمّد المنصور رجاه أن يبقى في العاصمة وأن يسيّر أمور الدّولة، وسوف يتكفّل هو بأمر العصاة، فقد تدرّب على الحرب منذ سنين وقمع هزّات أكبر وأعتى. فاقتنع السّلطان بكلام وليّ عهده وجهّزه بجيش انطلق به بعد أن ودّع أهل قصره وفي مقدّمتهم ريم وابنيه محمّد المنتصر وعثمان.

كانت ريم على غير عادتها هذه المرّة وهي تودّع الأمير، فقد أوصته كثيرا بنفسه ودعت له من كلّ أعماقها، وتردّدت طويلا في منعه من السّفر لولا معرفتها بواجبه وبمهمّته الّتي سيسافر من أجلها.

- أراك كئيبة يا ريم على غير عادتك رغم أنّك متعوّدة على سفراتي المتكرّرة سواء كان ذلك وقت سلم أو وقت حرب...

- أخاف من وحدتي يا مولاي. فقد كبر الولدان واختصّ بهما جدّهما، ولم أعد أراهما إلاّ لماما. فهما في تنقّل دائم أو في مجلس لا ينتهي، وأخاف

عليهما وعلى مداركهما من هذه الدّروس الّتي تبدو لي أكبر من سنّهما، وأراك لا تُعنى بهما كما يجب، فأنت والدهما أوّلا وقبل كلّ شيء... لهذا قلت لك أخاف من وحدتي الّتي أخذت تثقل عليّ بغيابكم المتكرّر... فمتى أراكم دائما بجانبي، لا تأخذكم منّي سفرة طويلة أو حرب قائمة...

- أنت مؤمنة يا ريم ولا ينقصك الصّبر، ومن عمّر قلبه بالإيمان خفّت وحدته وصاحبه الله في أحرج أوقاته... اطمئنّي سأعود عن قريب وأرجو من المولى أن تكون هذه آخر انتفاضة وآخر حرب.

- ألا ترني يا مولاي مدى اتّساع مملكتم حتّى أقيس المسافات والأوقات تخفيفا لوحدتي؟

ضحك الأمير وأعجب بالفكرة، فقال لها:

- لو كنت تحسنين القراءة بالعربيّة لنصحتك بالانصراف إلى قراءة ذلك الكتاب الضّخم الّذي دأبت أنا على قراءته منذ بدأت أدرك معنى الاشتغال بالسّياسة وبشؤون الحكم.

- آه، ذلك الكتاب الثّقيل الّذي كان يشغلك عنّي يا مولاي؟

- يشغلني عنك أحيانا، لكنّه يعلّمني ويفتح بصيرتي على أشياء عظيمة تهمّ مملكتنا والعالم الّذي يحيط بنا، وأكاد أقول إنّ صاحبه قد كتبه خصّيصا لمولانا السّلطان أبو العبّاس أحمد المرحوم جدّي، برّد الله ثراه، وقد أهداه كاتبه نسخة منه قرأها أبي وأقرأها أنا اليوم، وإن شاء الله يقرأها أولادنا وأحفادنا للعبرة وللاعتبار.

- ما هو عنوان هذا الّذي يعلّم النّاس والملوك والسّلاطين؟

- كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في معرفة أيّام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر لعبد الرّحمان ابن خلدون، هيّا بنا سأريك ما سيسهّل فهمك للأمور.

اصطحب معه ريم إلى الجناح الّذي يجتمع فيه السّلطان مع أركان حربه، وأدخلها قاعة واسعة الأرجاء، مستطيلة الشّكل تتوسّطها طاولة كبيرة الحجم عليها مجسّم ضخم من طين يمثّل تضاريس ومنبسطات غرست فيها أعواد صغيرة متناثرة في بقع متعدّدة:

- ما هذا يا مولاي؟

- هذا مجسّم للمملكة الحفصيّة وما جاورها من بلدان، يستعمله السّلطان كلّما طرأت أحداث أو وقعت حروب، فهو يجعل من المتأمّل بمثابة طائر يحلّق فوق مواقع البلدان، وبنظرة واحدة يحتويها فتتكوّن لديه بتلك النّظرة الفوقيّة فكرة عامّة عن المملكة وتخومها، وبهذه الطّريقة يسهل وضع الخطط الحربيّة ويتحدّد هدف التّدخّل، انظري مثلا أين يوجد بلدك إنّه هنا، ولاحظي هذا المنبسط، فهو يمثّل البحر الّذي يفصلنا عنكم. وفي هذه النّقطة موقع بلدنا وهناك موقع بلدكم، وهذا الفضاء الشّاسع كلّه حتّى حدود المغرب يمثّل مملكتنا، وهنا بلاد الأندلس. وفي هذه النّقطة من النّاحية الشّرقيّة تقع طرابلس حيث الانتفاضة، وحيث سأسافر لإخماد الفتنة، وتاريخ هذه الممالك وطبائع أهلها مذكور في الكتاب الّذي كنت أحدّثك عنه.

وضعت ريم كفّيها على خدّيها دلالة على إكبارها لما فات عن إدراكها من معرفة عن عظمة السّلطنة الحفصيّة الّتي ربّما ستصبح ذات يوم هي ملكتها فقالت:

- كيف ستقدرون يا مولاي على التّحكّم في كلّ هذا؟ يلزمكم رجال وأموال وعتاد و... عزائم.

- ومن يا ترى سيقف على كلّ هذا؟

- السّلطان أو... أنت وليّ عهده... ومعكم رجال الدّولة.

- ها أنّك أدركت حجم المسؤوليّة الملقاة على عواتقنا، لذلك نتحرك ولا نقعد إكراما لعيون النّساء، فبعزائم الرّجال وبهممهم، تصان الأوطان يا حبيبتي.

*****

وصل وليّ العهد إلى طرابلس فوجد أنّ العصيان قد دبّ في صفوف القبائل الثّائرة واستفحل أمرها فحاربهم طويلا واقتفى أثرهم يريد القضاء على ثورتهم أو إرجاعهم إلى الطّاعة. ولم يهدأ له بال أو أراح الجسم مادامت المعارك قائمة، إذ لم يكتف بقيادة الجيش بل نزل إلى الميدان يستحثّ رجاله ويدفعهم إلى الاستبسال، رغم محاولات أمير جيشه ثنيه عن إلقاء نفسه في المعامع... لكنّ الأمير كان يجيبه بما يسكته...

- لم آت إلى هنا لكي أتفرّج على المعارك وأقبع في خيمة أنظر إلى الرّجال يموتون، بل جئت لأقمع من خرجوا عن الصّفّ وأرادوا تفرقة الإخوة المسلمين، فلا تخف عليّ يا رجل، فأجلي مكتوب وأمري موكول إلى الله فهو ناصري، ولا أتمنّى إلاّ أن أموت يوما وأنا أدافع عن وحدة بني أمّتي وإبقاء اللّحمة بينهم.

وكان ما تمنّاه وليّ العهد. ففي عشيّة الأحد منتصف الشّهر أصيب الأمير محمّد المنصور بطعنة قاتلة أسقطته من جواده ولم تترك له من رمق الحياة إلاّ ما تمكّن به من النّطق بالشّهادة.

طار الخبر إلى تونس فنزل على السّلطان نزول قدر ماحق، لكنّه تجلّد وصبر صبر المؤمن بقضاء الله وقدره، وحاول لعدّة أيّام أن يظهر للنّاس شجاعته وتحمّله لوقع المصيبة.

أمّا ريم فقد أظلمت الدّنيا في عينيها ولم تستطع أن تظهر لا تجلّدا ولا صبرا فاستسلمت إلى نواحها وعويلها، وعاودتها الأحلام المزعجة الّتي

كانت تتناها قبل سفر الأمير وأثناءه. وكان كلّ يوم وكلّ ليلة يمرّان عليها إلاّ ويزيد في انقباض نفسها كأنّها كانت تستشعر بما سيقع. واستطاع من التفوا حولها أن يواسوها وأن يصبّروها لبضعة أيّام. لكن حين علمت بوصول جثمان وليّ العهد ليدفن بالحاضرة أيقنت أنّه مات فعلا، وأنّ الموت يبقى أعظم حقيقة، وأنّ حياتها قد بدأت تموت بموت من أحبّت بكلّ جوارحها ومن أعماق وجدانها...

يوم دفن المنصور بتربة آله المحاذية لمقام الوليّ الصّالح سيدي محرز بن خلف بباب سويقة سقطت ريم مريضة ولم تفدها زيارة السّلطان لمؤازرتها ولا زيارة ابنها ولا صديقاتها ووصيفاتها، ولم تعد ترى في وجوه من انكبّوا عليها لتقبيلها ولتعزيتها سوى وجه الحبيب الّذي رفعها وأسعدها ثمّ ذهب عنها إلى الأبد لتدخل دوّامة الحزن والأسى والوحدة...

لم تسكت الألسن النّمامة عن إثارة الشّكوك في أذهان النّاس حول حقيقة مقتل وليّ العهد. فقد ذهب بعضهم إلى الادّعاء بأنّ الأمير قد قتل غرّة، وأنّ أعداءه قد اندسّوا في صفوف جيشه للقضاء عليه حتّى يخلو موقعه لغيره باعتبار أنّ السّلطان أبو فارس قد شاخ ولم يعد ذلك الأسد الّذي كان.

إذ كيف يقتل أمير وهو محاط برجاله يمنعون عنه الغدر والقتل، حتّى لو كان في معمعة اقتتال؟

من ترى سيكون وليّ العهد بعد موت الأمير محمّد المنصور؟ هذا السّؤال لم يطرحه السّلطان أبو فارس على نفسه. فقد استعدّ لهذا الطّارئ، ورتّب أفكاره واتّخذ قراره النّهائيّ دون أن يستشير أيّا كان، حتّى أقرب النّاس إليه. فاستدعى مجلسه لجلسة طارئة وأحضر حفيديه المنتصر وعثمان وأعلن للحاضرين من كبار الدّولة أنّه اختار حفيده محمّد المنتصر ليكون وليّ العهد الجديد.

همهم الحاضرون وقد عقدت الدّهشة ألسنتهم ولم يصدّقوا ما سمعوا وتساءل بعضهم، كيف يقدم السلطان على اختيار غلام في هذه السّنّ ليكون وليّ العهد في حين أنّ للسّلطان ابن آخر أحقّ بولاية العهد وهو الأمير المولى "المعتمد" أمير بجاية؟ وكيف يمكن أن يحكم كلّ السّلطنة الممتدّة من طرابلس إل تلمسان غلام ليس له من تجربة الحياة والحكم سوى انتماؤه إلى آل بني حفص؟

تكاثرت التّساؤلات حتّى خرجت إلى الأسواق ومنها إلى كامل المملكة وتداولها النّاس بدون أن يجدوا لها إجابة.

لم تعر ريم أهمّيّة لهذا الحدث. فقد كانت غائبة عن الدّنيا الّتي تتحرّك حولها، غائبة عن السّلطان الّذي جاء يواسيها ويعلمها بما قرّره. وغائبة عن ابنها الّذي شعر بالنّخوة وهو يلقّب بوليّ العهد ويريد أن يرى أمّه كيف تقاسمه هذا الشّعور، وغائبة عن نساء القصر اللاّئي حاولن بكلّ الطّرق أن يثنينها عن التّمادي في حزنها وفي الغوص في حالة اليأس. فلم تسمعهنّ أو لم تعر لوجودهنّ اهتماما، فقد كانت تعيش على صور احتفظت بها في مخيّلتها وراحت تحييها كلّما اختلت إلى نفسها.

في الأثناء علم المعتمد ابن السّلطان ووالي بجاية بخبر وفاة أخيه وليّ العهد فطمع في المنصب وعزم على القدوم إلى تونس لتعزية والده. فتحرّك في محلّة كبرى من بجاية إلى الحاضرة ودخلها كأنّه ملك مظفّر على رأس جيش فاتح، لكنّ آماله سرعان ما تبخّرت وتبخّرت معها أحلامه الّتي رافقته طوال سفرته، فقد أعلمه السّلطان أبو فارس أنّه اختار فعلا لولاية العهد حفيده المنتصر، فصعق الأمير إلى درجة التّجاسر بالقول:

- كيف يا مولانا؟ إنّه صبيّ... إنّه حفيدك... وأنا ابنك... فمن أحقّ بالولاية؟

- جئت معزّيا أم جئت طامعا يا معتمد؟ ثمّ ما هذا الجيش الّذي دخلت به علينا... أتريد مكاني وأنا ما زلت أرزق؟

- العفو يا مولانا... العفو... ما كنت أقصد والله... جئتك معزّيا لا غير...

- معزّيا أو غازيا؟ العزاء المصحوب بالقوّة يعني الغدر والإغارة. فارحل. لقد قبلت التّعزية فحسب، أمّا استعراض العضلات فلا. ارحل إذن وَعُد إلى ولايتك... فهي أحوج منّي لحضورك ولا تغادرها مستقبلا إلاّ عندما أطلبك... ارحل...

أضمر الأمير شرّا، فعسكر بالسّيجومي وتباطأ في الرّحيل، فالتف حوله رجاله يوغرون صدره على أبيه وعلى وليّ العهد الجديد، ويزيّنون له طريق المجد والسّؤدد إن هو انقلب على من كان السّبب في إبعاده عن حقّه الشّرعيّ....

شعر السّلطان أبو فارس أنّ ابنه سيزيغ عن طاعته وسيحدث بلبلة في البلاد فاستدعاه وقد أظهر أنّه غافل عن نواياه العدوانيّة...

- ما بك يا معتمد لم ترحل؟ ألم آمرك منذ مدّة بالرّحيل، وها إنّي أراك اليوم على غير ما أمرتك به؟ فما الّذي أقعدك عن الالتحاق ببجاية؟ أخبرني بالحقيقة فأنا أبوك وأستطيع أن أساعدك...

كان السّلطان يتحدّث وقد أظهر من اللّين ما جعل ابنه يجرؤ على أن يفيض بما يكنّه في صدره ويخفيه منذ أيّام...

- أنت أبي ومولاي وأنا ابنك، فلماذا تضعني موضع الصّغير وتضع الصغير موضع الكبير يا مولانا؟

لم يتمالك السّلطان طويلا فصاح في ابنه:

- أ وَعُدتَ إلى ضَلالك يا رجل؟

ثمّ استدار نحو الحرس وقد احتقن وجه وصاح فيهم:

- خذوه واسجنوه حالاّ في سانية باردو، واقبضوا على من زيّن له القعود عن السّفر إلى بجاية.

ثمّ التفت إلى ابنه حانقا:

- لقد عزلتك يا معتمد من ولاية بجاية، وعيّنت عوضك مملوكنا القائد أبو النّعيم رضوان، فهل مازلت بعد اليوم تطمع في ولاية العهد؟

لم يصدّق المعتمد ما رآه وما سمعه، ولم يلمس الحقيقة المرّة إلاّ حين أخذه الحرس عُنوة وقادوه إلى باردو ورموا به بعلوّ كائن بسقيفة سانية القصر الجديد، لا يرى الدّنيا إلاّ من خلال كوّة صغيرة، ولا يسمع من الأصوات إلاّ ما يترامى إلى أذنه من لغط حراسه أو وقع حوافر الجياد الدّاخلة أو الخارجة... أو زقزقة العصافير.

*****

حزن أنطونيو حقّا لحزن ريم بدون تملّق ولا مواربة، وتأسّف لوفاة الأمير محمّد المنصور الّذي لم يحصل له شرف التّعرّف عليه. لكنّه كان يشعر نحوه بإحساس لم يعرف له تفسيرا، هو شعور قريب من الصّداقة أو من الصّحبة البعيدة رغم أنّه غريمه وسبب ضياع ريم منه، وسبب وصوله أيضا، ولو من بعيد، إلى هذه الحال من سعة اليد.

مشى مع سي إبراهيم بن مخلوف في جنازة الأمير وسط كلّ المشيّعين من خاصّة وعامّة، وهم خلق كثير، كأنّ الحاضرة كلّها قد حضرت الموكب المهيب، فقد أحدثت وفاته أثرا محزنا في قلوب النّاس.

كان أنطونيو طول الطّريق يتخيّل ريم في حزنها العميق، ويتخيّل نفسه يواسيها بكلّ ما يحمله لها من حبّ. الحبّ؟ يا الله، رغم كلّ هذه السّنين الّتي مرّت... ورغم سفره المطوّل إلى عديد البلدان، ورغم كلّ ما حدث، فقد بقي الحبّ الأوّل، الحبّ الّذي ما زال يعشّش في عروقه رغم مرور خمسة عشر سنة على ولادته...

قطع عليه سي إبراهيم حبل الذّكريات حين سأله:

- أتفكّر في الجنازة، أم في الموت... أم في الحبّ... يا أنطونيو؟ فهذا غريمك قد مات، وها أنك تسير في جنازته، ويبدو لي أنّ الأمل قد عاد إلى قلبك؟

- أرجوك يا سي إبراهيم، نحن نسير وراء ميت وليس هذا وقت الكلام في موضوع نسيته من زمان.

- من زمان؟ لا أظنّ يا صديقي... لا أظنّ؟ إنّي ما زلت أشعر بأنطونيو السّنوات الخمس الأولى الّتي عاشها هنا في تونس... أمّا السّنوات العشر الّتي قضاها في البراري وفي البحور والموانى، فهي كغفوة قصيرة أتت عليها استفاقة فتلاشت، أليس كذلك يا صاحبي العزيز؟

سكت أنطونيو وترك سي إبراهيم ينتظر الجواب أو ردّ الفعل، وغرق هو في لجج أفكاره وغاص في الجرح القديم الّذي انفتح فجأة بموت وليّ العهد، فقد وجد له سي ابراهيم ديارا في ربط باب الجزيرة وربط باب المنارة وقرب باب قرطاجنّة، لكنّه رفضها كلّها وانتظر حتّى وجد له دارا صغيرة في حومة باب البنات من النّاحية الشّرقيّة وغير بعيدة عن دار ريحانة ودار ماريو شقيق ريم، وبذلك أصبح قريبا من القصبة يتصيّد الأخبار خفية عن سي إبراهيم حتّى لا يتفطّن هذا الأخير إلى نواياه.

مع مرور الأيّام بعد موت الأمير حاول أنطونيو أن يتّصل بريم عن طريق رسل ليعزّيها ويواسيها ويذّكرها أنّه مازال على العهد، وأنّ الحياة أمامهما لتتدارك ما فات، لكن فشلت كلّ مساعيه، ولم يرجع أيّ مرسول بنتيجة، ولم يستطع أحد أن يتمكّن من مقابلة الجارية الحزينة، فقد كانت تصدّهم وترفض حتّى رؤيتهم حين تعلم أنّهم من قِبلِ أنطونيو، الّذي حاول حتّى الاتّصال بريحانة، لكنّه عدل عن ذلك خوفا من شكوك زوجها وخوفا عليها من تهمة تودي بها كما أودت بمنّانة من قبل.

عاد لليأس من جديد، لكنّه لم يغرق فيه بل استطاع من تلقاء نفسه أن يعدل عمّا كان السّبب في ضياعه في الأعوام الماضية، وقرّر أن يبحث عن زوجة يسكن إليها.

فاتح سي إبراهيم في موضوع زواجه بجدّية وطلب منه مساعدته في البحث عن عروس تليق به.

- أنا أبحث لك عن عروس؟ ... أنت تتزوج واحدة لا تحبّها؟ ماذا؟ هل تهزأ منّي؟ ... ومن هي هذه المرأة الّتي ستروق لك وتنسيك حبيبتك؟

- ألا يوجد في بلدك أيتام مثلا أو فقراء بدون أهل؟ ألا يمكن أن أعثر على يتيمة مقطوعة من شجرة أخرجها من فقرها ومن بؤسها وأجعلها أميرة؟

- ابحث يا صديقي من جهة ربط النّصارى أحسن لك. فلن تتزوّجك تونسيّة مسلمة أبدا وأنت على دينك. ثمّة في ربط النّصارى فتيات جميلات لا ينتظرن سوى إشارة فاذهب إلى هناك... وإذا أردت فأنا مستعدّ للذّهاب معك. أو أشير عليك بعجوز تعرف أهل الرّبط فردا. فردا.

استساغ أنطونيو هذه الفكرة وقرّر أن ينفّذها بمعيّة صديقه. وذهبا إلى عجوز تسكن داخل باب الجديد وأغدق عليها أنطونيو العطاء ففتحت في وجهه آفاقا وزيّنت له حسانا يقبعن وراء الأبواب ولا ينتظرن سوى إشارة واحدة من فارس مثله.

خرج الإثنان بعدما وعدتهما العجوز بالاتّصال بعائلة من العلوج أصيلة إسبانيا لها فتاة جميلة جدّا، جمالها يكسف القمر كما قالت.

استغرب أنطونيو من شعوره بالهدوء والسّكينة وهو يغادر دار العجوز فقال لصديقه:

- إنّي أشعر بالسّعادة يا صديقي، لذلك أستدعيك للفطور معي لنبدأ من اليوم بالاحتفال بزواجي.

غادرا ربط باب المنارة في اتّجاه باب البنات، وما إن وصلا إلى نهاية سور قصر القصبة حتّى توقّف أنطونيو فجأة وقد خذلته قدماه فوضع يده على صدره وكتم شهقة. فقد لمح ليزا رفقة ريحانة.

لم يدرك سي إبراهيم من أوّل وهلة ماذا أصاب أنطونيو الّذي توقّف عن السّير وتسمّر في مكانه وسكت عن الحديث. فنظر حواليه فلم ير سوى بعض المارّة وامرأتان تسيران جنبا إلى جنب ثمّ ما لبثتا أن دلفتا إلى دار بابها كبير فسأل رفيقه:

- ماذا؟ هل تذكّرت شيئا؟ هل نسيت شيئا؟

- سي إبراهيم! سأجنّ، سيطير عقلي... لقد رأيت ماريا توّا... لا... ليست ماريا، لكنّها تشبهها كثيرا... نفس القوام ونفس الوجه والنّظرات... سانتا مادونا! من تكون يا ترى؟ من تكون؟

- لم أر أحدا. ما رأيت سوى امرأتين ملتحفتين تدخلان تلك الدّار... ماذا أصابك يا رجل... هل عدت إلى موضوع ماريا فجأة... هل عدلت عن أمر الزّواج؟

- ... لن أتزوّج يا سي إبراهيم... لن أستطيع التّزوّج بعد اليوم... سوف أسأل ريحانة عن هذه الفتاة ومن تكون...

- ريحانة؟ هل تعرف صاحبة هذه الدّار؟ ماذا أسمع يا إلاهي؟ هيّا بنا... هيّا نسرع من هنا قبل أن ينزل بنا مكروه أو تجرّنا إلى كارثة لا قبل لنا بها. هيّا.

*****

قضى أنطونيو أيّاما وهو يتسكّع بين حومتي باب سويقة وباب البنات ويحاول أن يعرف سرّ تلك الفتاة الّتي لمحها للحظات كانت كفيلة بأن تعيد إلى ذاكرته كلّ ماضيه وتقلب رأسا على عقب ما توصل إليه مؤخّرا، وحسب نفسه قد وجد الحلّ بالبحث عن زوجة يستقرّ إليها وتشدّه إلى البلاد. ولم يهدأ له بال إلاّ حين عرف من تكون تلك الفتاة الّتي أضاعت عليه موعده مع العجوز الخاطبة وأفسدت عليه نيّته في الزّواج. ولم يتهوّر هذه المرّة. بل ركن إلى الهدوء التّامّ والتّفكير

المتّزن ليضع خطّة توصله إلى أخت ريم دون خسارة أو إخفاق، فجمع كلّ المعلومات والمعطيات وبدأ بأوّلها، وهي مصادقة ماريو شقيق ريم الّذي اتّضح أنّه شابّ مقبل على الحياة بشراهة، ويحبّ النّساء ومعاقرة الخمر بصفة مستمرّة عند يهوديّ يتستر بتجارته نهارا في سوق التّبّانين ويفتح محلاّ باللّيل يقع في أطراف باب قرطاجنّة لخاصّة منتقاة من مسلمين ونصارى يجتمعون عنده لقضاء اللّيالي الملاح.

اكتشف حياة ليليّة أخرى عند اليهوديّ إسحاق فانغمس فيها، وتعرّف هناك على ماريو فصارا في وقت وجيز نديمين يلتقيان كلّ مساء فينغمسان في اللّهو والشّراب وتعاطي الكيف أحيانا، وكان أنطونيو يستقي أخبار ريم من أخيها فلا يظفر منه سوى بالفُتات من الأخبار الّتي لا تزيد من معرفته. فيحاول معرفة تفاصيل أخرى عمّن قدم إلى تونس من عائلة ماريا. وبدا له أنّ ماريو يعيش هو الآخر همومه وتشتّته الفكريّ رغم ما يبديه من مرح، فعدل عن الجري وراء السّراب وانصرف إلى الإنفاق من ماله ومن وقته في متع اللّيل. وكان يستسلم في غيومه اللّيلية إلى تصوّراته الحميمة فيستحضر وجه ماريا ويركّبه على أجساد نساء كأس الرّاح وبنات اللّيل من يهوديّات الحارة. كان إسحاق يحضرهنّ له حين يغرق في السّكر، لكنّه لم يكن يظفر معهن بالمتعة إطلاقا، بسبب إفراطه في الشّراب، لكنّ إسحاق كان يقبض من عنده أضعاف ما يستحقّ.

أصبحت الصّداقة بين أنطونيو وماريو حميمة، فسقطت الكلفة بينهما رغم فارق السّنّ... وبالرغم من مرور الأيّام فإنّ أنطونيو لم يظفر برؤية الفتاة ليزا، ولا رآها تزور شقيقها، وكان يتحرّق شوقا إلى السّؤال عنها، لكنّه لم يجرؤ خوفا من افتضاح مخطّطه، حتّى جاء اليوم الّذي رآها فيه وملأ عينيه من جمالها الأخّاذ الّذي ذكّره حالا بكلّ أطوار مغامراته الفاشلة مع ريم.

- هذه ليزا أختي يا سنيور أنطونيو... تعيش مع أختي ريم في قصر السّلطان ولا تزورني إلاّ لماما ولولا هذا الصّبيّ العزيز الّذي يجرّها دوما إلى هنا ما طرقت بابي ولا سألت عنّي...

انحنى أنطونيو أمام ليزا انحناءة طويلة عبّر بها عن كلّ ما اعتراه في تلك اللّحظة من أحاسيس ممتعة، وكأنّه يقدّم نفسه هديّة إلى هذه الفاتنة الّتي تقف أمامه ممسكة بيد صبيّ جميل الطّلعة.

قالت ليزا بعدما ردّت التّحيّة بحركة خفيفة من رأسها وهي تقيس في ذهنها مدى تطابق صورة هذا مع صورة كانت رسمتها لها أختها عن أنطونيو آخر:

-... أختي ريم حكت لي عن شابّ تعذّب من أجلها وأحبّها دون أن تبادله الشّعور، اسمه أنطونيو وقد انقطعت عنها أخباره منذ سنوات طويلة، فهل تكون أنت يا سنيور؟

- لا... لا... يا جميلتي... ليس كلّ من يحمل إسم أنطونيو هو الرّجل الّذي أحبّ أختك... أنا أنطونيو آخر... لكن إذا كانت أختك في مثل جمالك فأنا مستعدّ لأن أصبح مثل الأوّل...

ضحك الثّلاثة لهذه الدّعابة...

- من يكون هذا الغلام الجميل؟

- إنّه عثمان الابن الأصغر لأختي ريم... لا يفارقني أبدا. يحبّني كما يحبّ خاله ماريو ولا يصبر على فراقه أكثر من يومين.

انحنى أنطونيو على عثمان ليقبّله فنفر منه الصّبيّ واختفى وراء خالته ليزا.

- ماذا يا صديقي الصّغير... لماذا تهرب منّي؟ سأكون من اليوم بمثابة خالك... تعال سلّم عليّ...

التفت أنطونيو إلى ليزا وقال لها:

- أرجو يا سنيورينا ليزا أن ألقى منك في قادم الأيّام نفحة من الإقبال لا نفخة من الإجفال.

*****

انتقل السلطان أبو فارس وبلاطه وحاشيته إلى قصر باردو الجديد للاستقرار به بعد موت وليّ عهده وتم إخلاء قصر القصبة للبنّائين والطّلاّئين ليعيدوا بناء ما تداعى من بعض جوانب سوره وترميم أجنحته ودهنها، كما أبقى حامية من الجند تحرسه وتحرس المدينة.

تلكّأت ريم في الرّحيل مع بقيّة الرّاحلين ورفضت في أوّل الأمر الانتقال إلى باردو، لكنّها رضخت للأمر الواقع بعدما رأت أنّها ستبقى لوحدها لا ولد ولا حاشية، حتّى أنّ أختها ليزا حاولت أن تثنها عن عزمها وتليّن من طبعها الّذي أصبح حادّا إلى أبعد الحدود.

- أختي العزيزة... إنّي أتألّم كلّما رأيتك على هذه الحال، لم أعد أجد فيك الأخت المرحة الّتي عرفتها ولم أعد أجد فيك الأميرة السّعيدة الطّيّبة الّتي رأيتها حين جئت إلى تونس... أَمِنْ أجل رجل، حتّى لو كان أميرا، تفعلين هذا الفعل؟ لا ينفعك الحزن يا ريم... لا ينفعك وأنت في عزّ الشّباب.

- لا تعودي إلى هذا الموضوع يا ليزا... أنت لن تفهمي ما يحترق في داخلي، وعندما تصابين بمرض الحبّ وتتعلّقين برجل، تعالي حينها وكلّميني، أمّا الآن فأنت خالية الفؤاد...

- طيّب... لماذا ترفضين الانتقال إلى قصر باردو؟ هل ستعيشين وحدك هنا؟ لقد رفضت، أو بالأحرى تجاهلت دعوة السّلطان لك... فما معنى هذا السّلوك؟

- إنّي لا أرتاح لقصر باردو يا ليزا، وقد شعرت بهذا الشّعور عندما زرته صحبة المرحوم الأمير وقلت له إنّي لن أقيم به فكيف تريدين منّي اليوم أن أذهب إلى هناك وأبتعد عن قبر الأمير! إنّي هنا في القصبة

قريبة من الأشياء ومن الغرف ومن الأجنحة ومن الجدران الّتي رأت أيّام سعادتي واحتضنت حبّي. لطالما فكّرت هذه الأيّام في التّسلّل إلى قبر الأمير لأذرف عليه الدّمع وأشكو إليه لوعتي وقسوة الدّهر عليّ. فهل تريدون منّي أن أنسى كلّ هذا وأن أترك ذاتي وأذهب بذات أخرى إلى مكان آخر لا يوحي إليّ بشيء ولا يذكّرني في شيء؟

اضطرّت ريم إلى الانتقال إلى قصر باردو بعدما وعدها السّلطان بتركها تعود إلى القصبة حالما ينتهي العمّال من إصلاحه. ومرّت ثلاثة أشهر والأعمال ما زالت قائمة بالقصبة وريم تعيش نهارا بقصر رأس الطّابية تستعيد ذكرياتها وتعتني بابنيها اللّذين يذكّرانها بأبيهما. وتعود ليلا إلى قصر باردو لتقضي ليلها في التّأمّل وفي الصّلاة وقراءة القرآن.

أمّا أنطونيو فقد غرق في ضياعه اللّياليّ بعدما رأى أنّ حاشية القصر قد رحلت عن ديار القصبة. وأنّ ليزا تبعت أختها إلى باردو فلم تعد تزور أخاها ماريو وبذلك شحّت الأخبار.

كان أنطونيو كلّما غرق في شربه يتذكّر اللّحظات الّتي اِلْتقى فيها بليزا. فهي الّتي كانت السّبب في العودة به إلى الماضي، وأثارت في وجدانه ذكريات صارت تؤلمه وتؤرّقه. فلا قدر السّكر ولا تعاطي الكيف على طردها من حياته.

قالت له ليزا ذات مرّة بعدما صارا على انفراد في فناء دار ماريو ذات عشية لمّا خرج الشّابّ لقضاء شأن طارئ. فسألها عن شعورها نحوه، وهل تقبل الزّواج به؟

كادت تطلق ضحكة قاتلة كالقذيفة لولا تداركها في آخر لحظة، فقالت بنبرة هادئة:

- سنيور أنطونيو، أنا لا أحبّ الرّجال الأغنياء... ولا أحبّ الرّجال الّذين يدّعون أنهم يموتون في حبّ امرأة ثمّ يتحوّلون عنها لامرأة أخرى بسبب

رفض أو فشل أو عشق آخر... وأكره الرّجل الّذي يحبّ امرأة ولا يصل إليها فيدفع بنفسه إلى عشق امرأة أخرى تشبهها أو قريبة الشّبه منها؟... أنت... يا سنيور أنطونيو تبحث عن أختي ماريا في قسمات وجهي وفي قوامي... تبحث عن حبّك الضّائع في شخصي، وأنا لا أقبل هذه اللّعبة. فإمّا أن يكون الرّجل لي وحدي فكرا وقلبا وجسدا وإمّا فلا...

اهتزّ أنطونيو لهذه التّعرية السّافرة الّتي أسقطت عنه ستارة التّخفّي فسأل بتعجّب:

- لكن؟ كيف عرفت السّرّ... كيف؟

- عرفت ذلك من اليوم الأوّل... لأنّي شككت في أمرك وأخبرت أختي فأعطتني أوصافك وأخبرتني حتّى بقصّتك مع صديقتها منّانة، لكنّها لم تمنعني من رؤيتك أو من مصادقتك، بل تركت لي حرّيّتي كاملة، وقالت لي: "إذا أحببت هذا الرّجل فلن أمنعك عنه". لكنّي يا سنيور أنطونيو، لا أحبّ البدائل، يعني لا أحبّك... بل أحترمك فقط، ليس غير ذلك... وأعجب، كما أتعجّب لصبرك الطّويل ولحبّك الرّاسخ لأختي... أنت رجل مجنون بحبّ ميت، ولا أراك تبرأ منه أبدا، فهل بعد هذا يميل قلبي إليك؟ وهل تستطيع فعلا أن تثبت حبّك لي ونسيانك لريم وأنت عاقد العزم على الوصول إليها بكلّ الطّرق، حتّى لو كان ذلك عن طريقي أنا؟

انسحبت الأرض في تلك العشيّة من تحت قدميه فسحبته إلى هوّة ذاته الكسيرة فتعطّل فيه القلب والعقل، ونبتت في نفسه نبتة خيبة جديدة حال سماعه هذا القول، فلو كانت طعنة أصابته في لحمه لهان الأمر، لكن جاء الطّعن في الذّات، فتحوّل في الحال إلى وِشام رُسم رسما أبديّا في الأعماق.

من يومها انغمس في اللّهو نكاية في نفسه وفي الدّنيا. كأنّه صبيّ يتيم لا وازع ولا رادع يردّه عن غيّه، وراح ينفق من جسمه ومن عقله

ومن ماله، وترك نفسه يعود إلى حالته الأولى وقد أيقن أنّه منبوذ نهائيًا من أحبّ النّساء إليه.

راحت الأيّام واللّيالي تباعا ولا عزاء له، وبدأ يغيب عن الميناء وعن باب البحر ويتواكل على سي إبراهيم ليقوم عنه بأعماله فيقضي نهاره نائما وليله ساهرا واليهوديّ إسحاق ينخر من ماله ومن آماله، ويقرضه أحيانا بالرّبى الفاحش وهو غافل عن الحساب.

ولم يفكّر إطلاقا في الرّحيل إلى بلد آخر، فقد قال ذات ليلة لنفسه بدعابة السّكران: لماذا الرّحيل والقلب مدفون هنا، لماذا الرّحيل والسّماء والماء والقمر والشّمس مثلها مثل ما هي عليه هناك، أجمعها كلّها هنا، في كأسي متى شئت ثمّ أقلبها في جوفي، وبذلك أسافر دون أن أتحرّك... ههاه!... أشرب على نخبك وعلى صحّتك... يا أنطونيو البائس.

*****

عاشت البلاد فترة سلم ورخاء منذ سنوات، ولم يعكّر صفوها إلاّ بعض الانتفاضات المتباعدة لبعض القبائل الّتي ترفض الدّخول في الطّاعة، ولم تشعر إفريقيّة بالقوّة والسّلم منذ قيام الدّولة الحفصيّة إلاّ في ظلّ السّلطان أبو فارس عبد العزيز الّذي نجح في الحفاظ على ما اكتسبه من احترام في الدّاخل والخارج، لذلك كان يغادر الحاضرة تاركا إدارة الدّولة لمساعده ووزيره الأوّل شيخ الموحّدين محمّد بن عبد العزيز، وهو على يقين من أنّه لن يجرؤ أحد على القيام عليه والاستيلاء على العرش.

بعد سنتين من موت وليّ العهد، خرج أبو فارس في محلّة كبيرة ليقوم بجولة تفقدّية طويلة الأمد، واصطحب معه أولاده وحاشيته وحفيديه المنتصر وعثمان، وترك ريم وحدها في عزلتها وفي حزنها. وتوغّلت المحلّة في عمق البلاد فكانت تحطّ كلّ مرّة حيث يدركها اللّيل والتّعب فيهرع

إليها شيوخ القبائل لتقديم فروض الطّاعة والولاء للسّلطان ثمّ تواصل المسيرة لبسط الوئام والسّلام، إلى أن وصلت ذات يوم بمكان بالجنوب التّونسيّ لتأخذ نصيبا من الرّاحة لأنّ الحرّكان وقتها في أوجه.

مضى من النّهار أكثر من نصفه حين قدم إلى المحلّة فرسان وطلبوا مقابلة السّلطان حالا، ولما دخلوا عليه أخبروه بأنّ الملك أراغون القطلاني طاغية النّصارى نزل على جزيرة جربة في عدد كبير جدّا من العسكر وأنّه بصدد احتلالها، فلم ينتظر السّلطان استشارة أركان جيشه وانطلق يروم إدراك هذا الدّخيل الّذي يريد احتلال جربة.

وصل جربة وقد دخلها ملك الأراغون فاضطر لمحاصرتها عدّة أيّام حتّى ساعده أهل جربة على دخولها من مكان خفي لا يعرفه إلاّ بعضهم، وتمكّن بعد معارك عنيفة من دحر الجيوش المحتلّة وإرجاعها على أعقابها بحرا فكان هذا الانتصار بالنّسبة إلى السّلطان فرصة جديدة لتثبيت قوّته حتّى يدرك ملك الأراغون وملك جنوة وغيرهما من الّذين يطمعون في احتلال سواحل إفريقيّة أنّ الدّولة مازالت قويّة.

رحل أبو فارس بعد أشهر عن جربة بعدما تركها آمنة ومحصّنة، وكافأ من دخل في صفوف العسكر في ذلك الظّرف العصيب وسرّحهم وأعطى العطايا لقوّاده وجنده النّظاميّ ثمّ استعدّ للعودة إلى العاصمة، لكنّ أخبارا جاءته من تلمسان جعلته يعدل عن التّوجّه إلى الحاضرة ويقرّر الاتّجاه رأسا إلى الغرب. فقد بلغه أنّ صاحب تلمسان الأمير أحمد بن السّلطان أبي حمو موسى بن يوسف الزّناتي يعمل في الخفاء للاستقلال عنه كعادة أسلافه، فقرّر تأديب هذا الخارج عن الطّاعة أو يحاصره في منطقته حتّى يستسلم أو يطلب الصّفح.

ما أطول الطّريق من جربة إلى تلمسان، وما أوعره، فقد كانت الرّحلة طويلة وشاقّة والسّفر من الجنوب إلى مشارف إفريقيّة الغربيّة يمرّ من صحارى ومفازات وبراري، ويشقّ جبالا وأودية، ومع ذلك فقد كانت سعادة وليّ العهد المنتصر وأخيه عثمان تضفي على السّلطان بهجة وحماسة رغم التّعب والقلق من طول التّرحال، لكنّ محكّ التّربص هذا بالنّسبة إلى الولدين بعث في نفس السّلطان الأمل وجعله على يقين من أنّ هذين الشّابّين سيمسكان بزمام الأمور من بعده، فقد مضى طول هذه الرّحلة يرقبهما ويمتحنهما، فلمس فيهما حبّ السّفر وخوض المعارك وقيادة الجيوش، وبالخصوص الأمير المنتصر، أمّا عثمان فقد كان كثير التّأمّل صموتا، صاحب عقل حصيف، حالما أحيانا، ينظر إلى الطّبيعة بإعجاب، ينبهر بالمرتفعات الّتي تصبغها الشّمس وبالظّلال الّتي تجعلها تبدو في ألوان غريبة وعلى أشكال لا متناهية، ورغم أسئلته الذّكيّة فإنّ بعضها كان يدلّ على أنّه مازال ذلك الصّبيّ الّذي يحنّ إلى حضن أمّه، ويفكّر فيها ويسأل عن أخبارها كلّ رجال البريد الّذين يفدون من تونس حاملين الأخبار، فقد بقيت وحيدة في قصر القصبة بعدما أصرّت على العودة إليه قبل سفرهم في المحلّة، وكان حنينه إليها يتفاقم كلّما اقترب الجيش من المرتفعات الّتي تحيط بتلمسان والّتي أخذت تظهر جليّا رغم بعدها... سأل جدّه وهم على مشارف الوصول:

- مولاي، هل سندرك عيد الإضحى في تلمسان أو في الخلاء؟

- ما بك يا عثمان... هل تريد أن تقضيه في القصر وتتركنا؟ أنت كبرت عن الاحتفال بالأعياد مثل الصّغار...

- لا... لا... لم أقصد يا مولاي، فقد تذكّرت والدتي وتمنّيت لو أطير لأقبّلها وأهنّئها بالعيد ثمّ أعود إليكم... فالعيد غدا...

- لا تفكّر هكذا يا ولدي خصوصا عندما تكون في محلّة حرب. يجب عليك أن تطوي قلبك وتنسى شعورك ولا تفكّر إلاّ فيما هو أكبر. واستعن بالله إذا فشلت في طرد أيّ شعور يثنيك عن عزمك ويعطّل مسيرتك. نحن ذاهبون للدّفاع عن سلطنتنا وإرجاع الخارجين عنها وتأديبهم، وهذا أكبر من الأعياد ومن التّهاني ومن الشّعور بالغربة أو بالبعد... سوف تقضي أعيادا قادمة مع أمّك ومع كلّ من تحبّ. أمّا الآن فنحن نتعذّب لكي تكون أعيادنا القادمة في كنف السّلم والسّعادة.

واصلت المحلّة الكبيرة رحلتها إلى أن وصلت ليلة عيد الأضحى قرب جبل "وانشريس" من عمل تلمسان وحطّت الرّحال عند عين ماء صافية تسمّى "عين الزّال" وقد مالت الشّمس إلى المغيب فانتشر الجند في المكان ونصبوا الخيام وأعدّوا ساحة لصلاة العيد ولخرفان الذّبائح الّتي طغى ثغاؤها على صهيل الجياد ورغاء البعير...

"ولجة السّدرة" في 18 جويلية 1434 - 837 هـ

لم يستطع السّلطان أبو فارس مواصلة النّوم فجر يوم عيد الإضحى هذا، فقد هجره الكرى من ساعات ولم يدر هل كان يقظا أو نائما، يحلم أو يرى رؤى لا تستقرّ على رؤية واضحة، بل كانت تتسابق كأنّها في عجلة من أمرها، تختزل حيوات وأشخاص ومواقف ومواقع، وأحبّة وأعداء، وحتّى معارك. فكان يستفيق مبسملا أو مستعيذا بالله، أو مستجيرا به بصوت كان يعتقد أنّه عاليا فإذا هو صوت من الدّاخل لا يُسمع ولا يُفصِح.

أعلنت النّسمات الباكرة أنّ النّهار سيكون قائظا، لذلك خرج من خيمته واتّجه صوب "عين الزّال" الّتي كان ماؤها يحدث خريرا يبعث في النّفس السّعادة والدّعة، ماء رقراق صاف يجري من بين الصّخور الّتي كان لونها يزداد ألقا كلّما طلع النّهار.

أجال بصره في المكان المترامي الأطراف، فامتدّ إلى الجبال الشّاهقة المحيطة بأرض قفر مال لونها إلى الزّرقة بفعل ظلال المرتفعات ثمّ سحبه إلى ما يحيط بمنبع العين وما حوله فرأى بعض الأشجار الباسقة وخضرة تقاوم جفاف هذا المكان الّذي تناقضت فيه الطّبيعة تناقضا عجيبا.

شعر وهو قرب العين بهدوء لم يشعر بمثله من زمان، فرفع بصره إلى السّماء وحمد الله في سرّه على كلّ نعمة أنعمها عليه طوال حياته. وعلى النّصر الّذي واكبه كلّما خرج إلى حرب أو لتلبية داعي الواجب. واستحضر في ذهنه وجوه كلّ من عرفهم وأحبّهم ثمّ دعا إلى حفيديه وحبيبيه بالتّوفيق والنّجاح والنّصر وقام ليتوضّأ استعدادا للصّلاة.

لمّا أشعّت أولى خيوط الشّمس في أفق السّماء أنهى أبو فارس وضوءه وجلس تحت شجرة عظيمة الجذع وأسند ظهره إليها ينظر أمامه في عمق كأنّه يمشي مع بصره بكلّ تلقائيّة وفي سلام. فاستسلم لهذه الرّحلة الرّوحيّة الّتي لم يعرف كم طالت، فقد انتهت في ناظره حين نزل على عينيه ظلام زحف على كامل جسده كأنّه مغيب نهار.

قام آذان صلاة الفجر في المحلّة الّتي استعدّت لصلاة العيد وخرج القادة وحاشية السّلطان وحفيديه إلى السّاحة لأداء الصّلاة وانتظروا قدوم السّلطان ليؤمّهم، لكنّ السّلطان العجوز لم يحضر بعد، وكاد يفوت ميعاد الصّلاة حين قدم أحدهم واقترب من محمّد المنتصر وليّ العهد وهمس في أذنه بكلمات خاطفة. فتغيّر وجه الأمير وألقى أمرا إلى كبير الأئمّة المرافقين للمحلّة ببدء الصّلاة دون انتظار السّلطان.

حين رأى المنتصر جسد جدّه السّلطان أبو فارس عبد العزيز مسجّى داخل الخيمة الكبيرة لم يتمالك من الإسراع إليه والارتماء عليه وهو في حالة تشنّج لم يقدر على إخفائها. ثمّ تمالك وقام عندما سمع حاجب السّلطان يعزّيه ويواسيه بكلمات رقيقة...

- إنّا لله وإنّا إليه راجعون. رحمه الله رحمة واسعة... البركة فيك يا مولاي، فأنت اليوم السّلطان وقائد تلك الجموع الّتي تصلّي في خشوع صلاة العيد وهي لا تدري أنّها تصلّي أيضا على روح فقيدنا العزيز. تجلّد يا مولاي فنحن إليها ماضون، وكلّ من عليها فان.

تحوّل وليّ العهد الصّغير في الحال إلى سلطان كبير فأمر الحاجب قائلا:

- ... لا تترك أحدا يدخل إلى الخيمة... مهما كان السّبب...

خرج محمّد المنتصر مسرعا ولحق بالمصلّين وصلّى معهم صلاة العيد وحضر مراسم الأضحية. ثمّ أشاع في الجند أنّ السّلطان أصبح مريضا ولا يقدر على مواصلة السّير إلى تلمسان وأنّه قرّر العودة إلى تونس.

حُمل جثمان السّلطان على مِحفّة أسدلت عليها ستارة كثيفة. وأسرع بها جمع من خاصّة الحرس يتداولون على حراستها لإيصالها إلى الحاضرة في أسرع وقت ممكن.

كان السّلطان أبو فارس وقت خروجه إلى جربة لقتال أراغون القطلاني. قد أفرج عن ابنه المعتمد الّذي كان سجنه في سقيفة قصر باردو. فأخذه معه خوفا من فراره وأشركه في القتال، ثمّ أخذه معه ضمن الجيش حتّى هذا المكان الّذي توفّي فيه السّلطان والمعروف "بولجة السّدرة" بالقرب من جبل وانشريس غربيّ الجزائر. وكان طوال هذا الوقت مطيعا لأبيه، مظهرا له ما لا يبطن، لكن حين قفلت المحلّة راجعة على أعقابها أعلم محمّد المنتصر عمّه المعتمد بوفاة السّلطان عن طريق أحد قادة الجند ثمّ أمر بالتّوقّف عن السّير والاستعداد للرّاحة، وكان في نيّة ولي العهد المنتصر إظهار موت السّلطان للجند لتلقّي البيعة منهم، فتمّ له ذلك في موكب مهيب من طرف كامل المحلّة وتلقّى التّهاني ثمّ انطلق الجميع عائدين.

حالما اعتلى السّلطان الجديد صهوة جواده جاءه أحد الجند مسرعا وألقى عليه الخبر بصوت مرتبك:

- مولاي... لقد هرب عمّكم المولى المعتمد حالما بلغه خبر وفاة والده...

- اقتفوا أثره واقبضوا عليه...

أظهر محمّد المنتصر رغم صغر سنّه شجاعة وقوّة شكيمة وحسن قيادة للجيش الّذي أصبح قائده بين يوم وليلة واستطاع أن يلفّ حوله كل الرّجال الّذين أخلصوا طويلا لجدّه. فقد عرفوا أنّ السّلطان

المتوفّى كان يحبّ حفيده ويؤثره على أبنائه بمن فيهم اللّذان يرافقان المحلّة، وهما المولى أبي الحسن عليّ، والمولى المعتمد الّذي فرّ.

احتار المنتصر في كيفيّة معاقبة عمّه الّذي خرج عليه من اليوم الأوّل، ولم يرغب في استشارة أحد، لذلك استنجد بعمّه الثاني "المولى أبي الحسن عليّ" وطلب منه النّصح:

- أنت عمّي وهو عمّي كذلك... لكنّ أمر الدّولة فوق كلّ أمر، وهذا الخارج عنّا لن يهدأ له بال ولن يسكت إلاّ عندما يقوم علينا مع كمشة من أتباعه، لقد تمّ القبض عليه منذ حين وهو محروس الآن حراسة مشدّدة، ولا أريد أن أراه... فبماذا تشير عليّ لمعاقبته؟

- اِفعل يا مولانا ما بدا لك... نحن معك فأنت هو السّلطان...

*****

اجتمع الجند حول ساحة كبيرة أعدّت خصّيصا لحفل تعذيب الأمير المارق، فنصب في وسطها وعاء به نار موقدة غرست فيها مناشب من الحديد في انتظار أن تحمى، بينما راحت التّعاليق والهمهمات تسري في صفوف العسكر الّذي كان معظمه مواليا للسّلطان الشّابّ، وينتظر اللّحظات الّتي سيرى فيها كيف سيكون قصف أحلام هذا الطّامع في السّلطة.

لم يطل انتظار الجميع فقد دفع حرّاس أشدّاء بالأمير المعتمد الّذي كان موثوق اليدين إلى الخلف وربطوه إلى جذع نخلة يابس ثمّ شدّوا عنقه وجبينه برباطين إلى نفس الجذع وانتظروا إشارة من كبيرهم الّذي كان يقف غير بعيد عن موقد النّار يراقب عمليّة القيد، ولمّا اطمأنّ إلى صلابة وثاق الأمير أعطى الإشارة المنتظرة فتقدّم الجلاّد وسحب من النّار منشابا رفيعا حمي نصفه حتّى التّوهّج، ثمّ تقدّم به في حذر نحو وجه الأمير المعتمد وقرّبه من عينيه. فصاح الأمير الموثوق

يستغيث ويطلب الرّحمة والمغفرة، ويذكّر الحاضرين أنّه ابن السّلطان أبو فارس عبد العزيز وما أدراك، وأنّه من العيب ومن الكبائر أن يقع إذلاله والتّمثيل به، لكنّ وجه الرّجل الّذي يحمل المنشاب كان صارما جامدا كأنّه قدّ من صخر.

لمّا لامس الحديد جفن الأمير صاح هذا الأخير صيحة أفزعت الحاضرين وجعلت بعضهم يدير وجهه لكي لا يرى ذلك المنظر الفظيع.

تحوّل صياح الأمير واستنجاده إلى ما يشبه الخوار والحديد الحامي ينغرس ببطء في المقلتين ويحدث تشتّشة تاركا دخان الشّواء يتصاعد من العينين المفقوأتين حتّى بحّت حنجرة الموجوع وخارت قواه فأغمي عليه. وعندها فُكّ وثاقه وحُمل إلى جواده وأركب عليه وهو على تلك الحال.

انطلقت المحلّة بعد مشاهدة هذا الفصل من التّعذيب الّذي أخاف الجند والقادة وجعلهم يقرؤون ألف حساب لسلطانهم الجديد الّذي أفهمهم بالملموس أنّه لن يتسامح مع أيّ رجل يعصي أوامره أو يظهر خذلانا حتّى لو كان أقرب أقربائه. وكانت مدينة "مسيلة" هي المحطّة الأولى في طريق العودة، فأقام بها حتّى جاءته بيعة قسنطينة، وقبل أن يغادرها عقد على منطقة "بجاية" لعمّه المولى "أبي الحسن عليّ" وأمره بالالتحاق بمركز ولايته، ثمّ انطلق إلى قسنطينة الّتي وصلها مع وصول بيعة حاضرة تونس فاستبشر بها وفرح لذلك كثيرا وأمر بأن يقرأ نصّ البيعة بمحضر النّاس في جامع قسنطينة، ولمّا تمّ ذلك، خطب في الحاضرين قائلا:

- أيّها النّاس... يا أهل قسنطينة، ما جئتكم غازيا ولا محاربا... بل أمرّ عليكم مرور الكرام وقد أحسنتم وفادتي وأكرمتم مقامي، واعتبارا لذلك اخترت لأولي عليكم أعزّ النّاس عندي وأقربهم إليّ وهو شقيقي "أبا عمرو عثمان".

غادر السّلطان محمّد المنتصر قسنطينة بعدما نصّب أخاه عثمان واليا عليها، وتوجّه إلى تونس وقد شعر بشيء من راحة البال، وإن كان قد تأسّف في قرارة نفسه بما أنزل بعمّه المعتمد من عقاب وحشيّ.

لم تطل الرّحلة رغم حرّ الصّيف ووصل السّلطان الجديد مشارف حاضرة تونس الّتي حكمها جدّه أبو فارس مدّة إحدى وأربعين سنة وأربعة أشهر وسبعة أيّام. وكان يوم دخوله إليها يوما مشهودا خرج فيه كلّ أهل الحاضرة لاستقباله استقبالا لم يقوموا بمثله من زمان.

*****

العين تدمع والقلب ينزف حزنا وألما، ويرفرف في الآن فرحا، والبسمة على الشّفتين شاحبة لا تدري هل تبقى ابتسامة أو تنقلب إلى رجفة بكاء؟ وأصوات التّهنئة والعزاء تلغو متضاربة، ولا يدري الجسد النّحيل أيقف من الغبطة أم ينهار جرّاء وقع هذه الصّدمة الجديدة؟

تلك كانت حال ريم لحظة تلقّيها نبأ وفاة الشّيخ السّلطان أبو فارس الّذي أحبّته كوالدها، ولحق به نبأ مبايعة ابنها المنتصر سلطانا على إفريقيّة. فالحزن ساكن في قلبها، آخذ مكانه الواسع فيه، فقد بكت بحرقة على أبي فارس حين حضرتها صورته وهو يواسيها، ولحقت بها صورة حبيبها المنصور الّذي رحل عنها مبكّرا ولم يعيشا أيّام السّعادة إلاّ ما قلّ منها... لقد تركت النّساء يعزّينها ويواسينها وينكببن على تقبيل يدها وهي لا ترى من خلال الدّموع سوى المنصور يبتسم لها ويداعبها بحنان والسّلطان أبو فارس يحنو عليها وعلى ولدها ويقول لها كلمات تقطر أبوّة، أو يذكّرها باليوم الّذي أسلمت فيه على يديه... وتختلط الصّور وتدور، ويعصرها الحزن فيغمى عليها حينا لتستفيق بعد قليل بعدما يرشّونها بالعطور...

- ماذا أقول لك وأنت المؤمنة يا ريم؟ هل أمسكك عن الحزن وأنت غارقة فيه منذ أعوام؟ ... يكفيك هذا يا حبيبتي ولا تظلمي نفسك بهذا السّلوك المدمّر... عيشي على الأقلّ لولديك، فهما اليوم في أمسّ الحاجة إليك، واتركي الأموات إلى رحمة ربّهم... هيّا... قومي واخرجي معي إلى الحديقة... فأنت اليوم أمّ السّلطان يا ماريا، فهل تدركين هذا؟

- ياه!... أنا ماريا الّتي كنت، وأنا ريم الّتي أصبحت؟ أنا أمّ السّلطان؟ أعيدوا عجلة الزّمان إلى الوراء وأوقفوها في اليوم الّذي دخلت فيه قصر القصبة.

استطاعت ريحانة أن تقنع ريم بالخروج من مضيق الحزن وأن تفرح قليلا أو تتناسى همومها... لكن لحين، فصور الماضي تعاودها فتشرد معها وتنقاد إلى سردابها القاتم.

- عجيب أمرك يا ريم... ابنك يصبح سلطانا... وأنت تصبحين أمّ سلطان ولا تفرحين؟ كنت تحلمين بأقلّ من هذا، وتتمنّين أقلّ وأقلّ بكثير، فماذا دهاك وماذا تريدين؟

- تعوّد قلبي يا ريحانة على الحزن بعدما خفق بالسّعادة، وخفق بالحبّ حتّى أصبح رقيقا شفّافا. ولمّا أصابه الحزن سقط بسهولة كالفراشة الجميلة الّتي تحرقها نار مصباح... لقد فقدت حبيبي دون أن أرتوي منه... وفقدت أمّي دون أن أراها وتراني... وها أنّي الآن أفقد هذا الرّجل الكبير الّذي اعتبرني كابنته وهداني على يديه واحتضن فلذتي كبدي وجعلهما فوق أبنائه الأربعة... ثمّ ترك السّلطنة لابني المنتصر، وبذلك أبعدهما عنّي مرّة أخرى وشغلهما بما هو أكبر من أن يتحمّلاه، أفلا يتداخل الحزن بالفرح وبالخوف؟ فعلى من لا أحزن يا ريحانة، ولمن لا أفرح وأنا مثقلة بثقل يسحقني ويميتني وأنا حيّة؟ ...

*****

كان يوم وصول جثمان السّلطان أبو فارس عبد العزيز إلى الحاضرة يوم حزن عامّ خرج فيه النّاس أفواجا وجاؤوا من كلّ حدب وصوب لتوديع ملكهم الوداع الأخير، فطافوا به من جامع القصبة إلى السّاحات العامّة مرورا بالأسواق، وتسابق كلّ رجل إلى نيل ثواب السّير في الجنازة أو التّشرّف بالمشاركة في حمل النّعش ولو لخطوة واحدة. حتّى وصلوا به إلى تربة آل بني حفص قرب زاوية سيدي محرز أين دفن قرب قبر والده أبي العبّاس أحمد وولده المنصور، ولم يتخلّف عن هذه الجنازة المشهودة إلاّ من أقعده العجز أو المرض أو حاجة أبعدته عن المدينة، وكان من بين القاعدين أنطونيو كازيلا؟

كان أنطونيو لحظة مرور الجنازة السّلطانيّة قاعدا أمام داره، في شبه غيبوبة غارقا فيما أغرقه فيه اليهوديّ إسحاق، لا يعي ولا يدري هل هو يعيش النّهار أو اللّيل. وكان الشّراب لا يفارقه خصوصا منه ذلك الّذي تحضره له إحدى الحسناوات اليهوديّات مخلوطا بمسحوق نبتة جافّة مجلوبة من أقاصي بلاد الشّرق، وكان كلّما شرب منه غادر دنيا العقل إلى دنيا الحواسّ والضّياع وعاش في أجواء غريبة بعضها مفرح والآخر مفزع... ولم يعد يخرج من داره الّتي كاد بابها لا يفتح إلاّ لندمائه من سمّار لياليه الطّويلة، حتّى أنّ سي إبراهيم بن مخلوف لم يعد يزوره في داره فيرسل له خادمه ليعلمه بأمر طارئ أو ليطلب منه ترخيصا لبيع جزء من تجارته الّتي أخذت تتضاءل مع مرور الأيّام بسبب الإنفاق المفرط الّذي دأب عليه منذ انزلق إلى دروب المتعة والضّياع، إلى أن جاء اليوم الّذي اضطرّ فيه سي إبراهيم إلى طرق باب أنطونيو مضطرّا وقال له وهو غير واثق من أنّ صديقه سيسمعه وسيأخذ بكلامه:

-... جئتك لأنّي ما زلت أنظر إلى صداقتنا القديمة وإلى الماء والملح والطّعام الّذي أكلناه معا، وإلى أيّامنا الحلوة والمرّة، جئتك لأنقذك من

هذه الهاوية الّتي تردّيت فيها والّتي دفعك، ومازال يدفعك إليها ذلك الفأر النّتن إسحاق. جئتك لكي أخبرك بأنّ ثروتك قد ذابت ولم تعد تملك من متاع الدّنيا إلاّ هذه الدّار ومصروف لا يفي حتّى بالإنفاق العادي... وأنّك لم تعد صاحب تجارة واسعة، وفقدت موقعك في الميناء وفي مصارف الموانى الأخرى...

لم يردّ أنطونيو على صديقه القديم إلاّ بنظرة غائمة وبابتسامة بلهاء ارتسمت على شفتين انفرجتا انفراجا لا إراديّا بفعل المخدّر ثمّ عاد إلى رحلة الغيبوبة، لكنّه تدارك كأنّه استفاق فجأة وتذكّر أمرا:

- أين... الولد عمر... يا سي إبـ... إبـ...

- أخبرتك كم من مرّة يا أنطونيو أنّه سافر إلى البندقيّة منذ أكثر من ثماني سنوات رفقة أحد القناصل السّابقين الّذي استنجبه فتبنّاه وأخذه معه، وهو مقيم هناك... في بلدك... قم يا أنطونيو أصلح الله أمرك، وتُب إلى رشدك، فمازال أمامك... الـ...

صاح أنطونيو مقاطعا، فأجفل سي إبراهيم:

- الموت... ها... هاهأه... يا سي إبـ... إبـ...

انصرف سي إبراهيم قهرا وفي عينه دمعة طافرة.

*****

لم يرض بعض الأمراء والكبار من العائلة الحفصيّة والمدّعين بأحقّيّة الولاية وبعض شيوخ القبائل والمتربّصين بالدّولة عن تولّي محمّد المنتصر أمر السّلطنة حتّى أن بعضهم أخذوا ينتظرون الفرصة السّانحة ويتحيّنون أوّل متحرّك ليلتفّوا حوله للإطاحة بالسّلطان الجديد، فقد بدأت بوادر المعارضة قبل وصول المنتصر إلى الحاضرة، وكان ذلك في "تيفاش" عندما هاجمه جمع من أتباع أمير من أقاربه بمساعدة محمّد ابن محمّد بن عبد العزيز شيخ الموحّدين والوزير الأكبر ونائب السّلطان

عند غيابه عن تونس، فقبض المنتصر على الرّجلين وعلى من كان يخدمهما وفرّ أكثر أتباعهما طلبا للنّجاة. فأرسل من لاحقهم وقبض على مجموعة منهم وأعدم البعض الاخر. عندها شعر المنتصر أنّه سيثير غضب الوزير الأكبر الّذي سينقلب عليه حتما. فخاف على مصير الحاضرة وأمر قائد جيشه المملوك العلجي نبيل ابن أبي قطاية ومساعده محمود ابن قدادة بالتّوجّه إلى تونس على رأس العسكر لتقصّي الأخبار وتدبير الأمور.

وجد القائدان أنّ الوزير الأكبر قد أغلق أبواب المدينة لمّا بلغه القبض على ولده فرتّب الرّجال على الأبواب والأسوار ومنع الدّاخل والخارج ثمّ ركن لتدبير أمر فراره خفية من القصبة بعدما أيقن أنّه لن يستطيع الصّمود والمقاومة طويلا.

ما أن أذّن لصلاة العشاء حتّى فرّ شيخ الموحّدين هو وأولاده وبعض خدمه حاملين معهم ما خفّ وعزّ.

دخل القائدان الحاضرة بعدما علما بفرار بن عبد العزيز وأطلقا العنان للعسكر ولمن تبعهم من الرّعاع والغوغاء فانتهبوا ديار الوزير الأكبر وديار أولاده ومن يخدمهم، وعندما تأكّد القائد نبيل أنّ الأمن قد استتبّ في المدينة انطلق في نفس اللّيلة إثر الشّيخ الهارب فأدركه في مكان يسمّى الجزيرة بين وادي الرّمل وسوسة فقبض عليه وعلى من معه وقفل راجعا إلى تونس فدخلها صباحا ومعه الأسرى فطاف بهم في المدينة على مرأى ومسمع من كلّ النّاس ثمّ اعتقلهم في سجن القصبة وعذّبهم ومنع عنهم الطّعام والشّراب حتّى هلكوا جميعا في سجنهم، وكان هؤلاء أوّل القائمين في وجه السّلطان الجديد.

لما أيقن القائد نبيل أنّه أمسك بزمام الأمور أرسل للسّلطان محمّد المنتصر يخبره بما حدث ويطلب منه القدوم، فكان يوم وصول

السّلطان الجديد إلى تونس يوم عاشوراء الموافق لمنتصف أوت 1434م، بعد غيبة دامت أكثر من عامين. فدخلها في موكب عظيم وجدّد له الأهالي البيعة وكانت مناسبة ليطلق سراح المسجونين وليتصدّق بأموال كثيرة على الفقراء والمساكين وطلبة العلم.

واختار يومها وزيره الأكبر الجديد "محمّد بن هلال" وقدّمه على مشيخة الموحّدين واختار رجال دولته ممّن عرفهم وعرف فيهم العلم والاستقامة.

دخل المنتصر على أمّه فوجدها في انتظاره على أحرّ من الجمر، وحالما رأته قامت إليه وارتمت في عنقه تعانقه وتقبّله بحرارة والدّموع طافرة من عينيها.

- إبني حبيبي... اشتقت إليك كثيرا... أصبحت سلطانا يا منتصر؟ إنّي فرحة بك كثيرا وحزينة على فقدان كبيرنا العزيز... أين أخوك عثمان؟

- عيّنته واليا على قسنطينة يا أمّي.

- كيف؟ غلام في مثل سنّه تتركه في الغرب بعيدا عنّي بعد هذه الغيبة الطّويلة؟ أريد أن أراه يا منتصر...

- هو رجل الآن ومسؤول عن عسكر وعن رعيّة ولم يعد غلاما.

- سمعت عنك أشياء غريبة كأنّي لا أعرفك... قيل لي إنّك إلى جانب ذكائك الثّاقب وحيويّتك الفيّاضة صلب وخشن لا ترحم... فلا تكن هكذا يا ولدي، فلن يدوم في هذه الدّنيا لا ملك ولا سلطان، ولا يبقى فيها إلاّ أخبار يتناقلها النّاس... فكن عادلا رحيما لتكسب ثواب الآخرة...

- لا أستطيع يا أمّي، فكلّ من حولي طامعون في الملك، ولا يمكن أن أكون ليّنا وقد تعلّمت من المرحوم جدّي كيف أسوس النّاس وكيف أرحم وكيف أقسو. فلا تخافي عليّ واطمئنّي... ولا أريد أن أراك من

اليوم حزينة، سوف نخرج من هذا القصر ونعيش في قصر باردو.

- باردو؟ ... لا... لا... لا يا ولدي... أرجوك لا تجتثّني من مكان ذكرياتي، ابق هنا وسأكون كما ابتغيت...

- لا أستطيع يا أمّي، فقصر باردو هو الّذي يلائمني، وقد أمرت بإعداده لنا جميعا وسأجعل من قصر القصبة مركز عسكر.

صمتت ريم، وطوت خيبتها في صدرها، فعزّ على المنتصر أن يراها غير راضية فأسرع يلاطفها ويسترضيها:

- كما تريدين يا أمي، سأخرج الآن لزيارة قبر جدّي وأعرّج على مقام سيدي محرز، ثمّ أذهب إلى الأسواق علّني أعثر على أحمد بن عروس، فقد رأيته في منامي منذ أسبوع يشير إليّ بعصاه ويردّد كلمات لم أفهمها، كأنّه يطلب منّي أمرا.

- أنت مثل جدّك، تحبّ الأولياء كثيرا وتخاف منهم، لكن من يكون هذا الوليّ الحيّ؟ ألا يكون دجّالا مثل الكثير من الّذين يدّعون الكرامات وغيرها من الترّهات؟ دعك يا ولدي من هؤلاء واترك عقلك صافيا، واعتمد على أصحاب الرّأي السّديد، ولا تسعى وراء السّراب.

*****

مضت أيّام والسّلطان الشّابّ في أخذ وردّ بينه وبين نفسه في مسألة الذّهاب لملاقاة بن عروس الّذي ذاع صيته في أوساط العامّة، وكاد يعدل عن تنفيذ هذه الفكرة، لكنّ الفضول كان أقوى من توصية والدته، فقرّر الخروج والذّهاب إلى حيث يلقى هذا الوليّ المجذوب.

تنكّر في زيّ عاديّ بعدما استدعى صاحبه وسميره وزير قلم الجباية "محمّد ابن قليل الهمّ" وطلب منه مرافقته إلى جولة في الأسواق.

- لماذا تفعل هذا يا مولاي؟ ... هل تتنكّر لتعرف أحوال الرّعيّة كما كان يفعل هارون الرّشيد ووزيره جعفر البرمكي؟

- نعم وهي أفضل طريقة لملامسة أحوال النّاس والاستماع مباشرة إلى آرائهم فينا وفي سياستنا، ثمّ إنّي أريد أن أرى أحمد بن عروس، الّذي حدّثوني عنه، رؤية إنسان عاديّ، ولا أحبّ أن أثير الفضوليّين عندما أمرّ بمكانه والحاشية ترافقني، لذلك طلبت منك أن تجمع عنه ما يعرّفنا بأخباره قبل تعرّفنا عليه مباشرة؟ ... فهل عرفت قصّته ومن أين جاء، وهل صحيح ما يُحكى عن أعماله ومناقبه؟

- نعم يا مولاي، هو سيدي أحمد بن عروس الهواري، ولد في سنة غير معروفة بإحدى قرى الوطن القبلي تسمى قرية "المزاطين" على وادي الرّمل قرب الحمّامات، ويقول هو عن نفسه إنّه ينتسب إلى أبي بكر الصّديق رضي الله عنه، وقبيلته من عرب تميم، ويعتزّ بهذا الأصل. يتيم الأب في سنّ مبكّرة، ربّته أمّه "سليمة" وهي أصيلة قبيلة بربريّة من مسراطة، وقد تزوّجت بعد وفاة زوجها رجلا لم يعمّر طويلا ومات هو الآخر، فاضطرّ الولد إلى السّفر ومغادرة أمّه والالتحاق بشقيقيه الكبيرين الّذين فضّلا العيش بعيدا عن أمّهما الّتي اختارت الزّواج من آخر، وبعد مدّة أخذ سيدي أحمد يتعاطى عدّة مهن متواضعة جدّا ليضمن لقمة العيش، فحفظ القرآن في أوقات فراغه في زاوية الشّيخ محمّد المحجوب قرب جامع الهواء بالمركاض والّتي أقام بها، ثمّ عمل خادما بعدّة زوايا ومقامات، ومؤدّب صبيان، وتابع إلى جانب ذلك دروسا دينيّة في مدرسة "المعرض" قبالة سوق العبيد، ثمّ انتقل إلى خدمة زاوية سيدي محرز وكُلّف بحراسة القبر وصيانة المقام.

- يبدو أنّه تأثّر كثيرا بأجواء أهل الذّكر؟

- ربّما يا مولاي، فقد انتقل من الحاضرة وأخذ يجوب البلاد شرقا وغربا، يعمل مرّة حطّابا، ومرّة نجّارا يصنع المحاريث، ثمّ بنّاء، ثمّ وقّافا ببعض الأفران وبقي على هذه المهنة زمنا، وسكن في زاوية ابن الولي سيدي عيّاش بطبلبة، وهناك تعلّم الطّريقة الصّوفيّة. ودرس على يد شيخ متخرّج من جامع القيروان فانساق إلى الحياة الصّوفيّة وقرّر الاستزادة من العلم والبحث فسافر إلى مدينة باجة وأصبح يقتات بالقليل من الأكل أو ممّا يعترض طريقه من قوت بسيط، ثمّ استقرّ لفترة زمنيّة بقرية "ميلة" بالجزائر حيث عمل مؤدّب صبيان ومنها أقام فترة بضريح سيدي "مدين" قرب تلمسان وحطّ الرّحال أخيرا بالمغرب فزار فاس وسبتة وأخيرا استقرّ بمراكش.

- أوه مراكش العظيمة منبت سلالتنا، لكن لماذا مراكش؟

- أظنّ أنّه كان يبحث عن الأمور المتعلّقة بالعادات الصّوفيّة والرّوحيّة لحياة الرّيف بجنوب المغرب وقد عاش هناك زمنا ثمّ قفل راجعا إلى تونس بعدما اكتملت تجاربه وتعمّقت معارفه في علوم التّصوّف.

- ليدرّس أليس كذلك؟ ...

-... لا... عاد من هناك وقد تغيّر تماما وأصبح يتكلّم كلاما له معان عميقة وغريبة في نفس الوقت، يتندّر ويتفكّه وهو يقول حقيقة أو يتنبّأ بأمر، وأصبح يقيم في الأماكن الخربة قرب سوق أو وراء منزل مهجور، ويحضر ويصلّي الصّلوات الخمس بجامع الزّيتونة، ويقضي بقيّة وقته يتسكّع في الدّروب وفي الأزقّة أو خارج المدينة.

- عجبا له، رجل عالم متفقّه لا يخالط العلماء أو علية القوم؟

- لا يا مولاي، فأبغض النّاس إليه أرباب الدّنيا، لا يألفهم ولا يعبأ بهم، ولا يجالسهم، وأحبّ النّاس عنده، أهل الخمول والفقراء والمساكين، يأوي إليهم ويألفهم ويتسوّل لهم الطّعام بنفسه، ويخدمهم ويبالغ في إكرامهم بما استطاع.

- هذا رجل مجذوب فعلا وكريم، ولن نتمكّن اليوم من رؤيته؟

- ربّما يكون اليوم خارج الحاضرة.

- لماذا، هل مازال يسافر إلى بعيد؟

- لا يا مولاي، هو يعطف على المسافرين ويحمل إليهم الماء ويسقيهم بعدما يلاقيهم على مسافة بعيدة.

- أرجو أن نجده في مكانه المعتاد قرب فندق الرّصاص قبالة "حوانيت العدول".

- ... أوَ يسعى وراء النّساء والبنات..

- ماذا؟

- إنّه يحبّ النّساء ويلاطفهنّ وبالخصوص منهنّ البنات، فهو كثيرا ما يباسطهنّ ويداعبهنّ ويخاطبهنّ ويكلّمهنّ في أثناء ذلك بكلام يجري فيه الجدّ مجرى الهزل، ولك أن تدرك يا مولاي معنى هذه الغمزة.

طالت جولة السّلطان ووزيره في أسواق المدينة دون أن يعثرا على سيدي أحمد بن عروس الهواري، وسألا عنه المارّة وبعض التّجّار فدلّوهما على مكانه وقالوا لهما: كنّا رأيناه منذ حين يجلس على مدرج جامع الزّيتونة، أو على عتبة الفندق الّذي يبيت في سقيفته، فاذهبا وابحثا عنه هناك أو قرب سوق الفلقة...

لمّا يئس المنتصر من رؤية سيدي بن عروس قرّر العودة إلى القصبة بعدما شعر بالتّعب وبحرارة الشّمس تأخذ من هدوء أعصابه، وأحسّ بالعطش فتوقّف أمام حانوت في سوق الفلقة[1] وطلب من صاحبه شربة ماء، ولمّا ارتوى أراد مكافأة الرّجل فلكزه وزيره لكزا خفيفا وهمس له:

- لا تنس أنّك الآن واحد من الرّعيّة فلا تكشف تنكّرك يا مولاي وهيّا بنا.

---

[1] سوق الفلقة: سوق النحاس فيما بعد والذي اندثر اليوم.

لم يرغب المنتصر ساعتها في العودة إلى القصبة، فقد شعر بأنّه مشدود إلى هذا المكان الّذي يعجّ بالعبيد من السّودان وبتجّار هذا الصّنف، ثم التفت فجأة إلى صاحب الحانوت الّذي انشغل عنه بالحديث مع جاره.

- سيّدي... هل رأيت سيدي أحمد بن عروس؟

- من؟ أبو الصّراير؟ ... إنّه هناك، تستطيع أن تلحق به فهو كالعادة يمشي ويتحدّث ثمّ يتوقّف للتّأمّل وأحيانا يزعق في وجوه المارّة.

أسرع السّلطان المتنكّر ليتعرّف عن كثب على الرّجل الغريب الّذي سمّاه صاحب الحانوت "أبو الصّراير"، فسأل وزيره:

- أبو الصّراير؟

- هو معرف بذلك عند النّاس لحمله صرائر كبيرة يعلّقها بطرفي عصا غليظة ويضعها تارة على كتفه الأيمن وتارة أخرى على كتفه الأيسر، ويجوب بها على ثقلها دروب المدينة وأزقّتها.

اندهش المنتصر لرؤية رجل قصير، ممتلئ الجسم، قويّ البنية تبدو عليه علامات الصّحّة والعافية، وجهه عريض ومدوّر، تميل بشرته الصّافية إلى اللّون الورديّ الفاتح، عيناه زرقاوان تميلان إلى اللّون الرّماديّ، لحيته كثيفة وشعر رأسه نصف محلوق واقف كالشّوك، يلبس ثوبا من الصّوف الأبيض ويتحزّم بخرقة من القماش، وينتعل نعالا من الحلفاء، ويضع على كتفه عصا غليظة بطرفها صرّ كبير يبدو ثقيلا لكنّه لا يؤثّر على ما يبدو على الرّجل.

- لماذا يضع هذا الصّرّ على كتفه، أهذا كلّ ما يملك من متاع الدّنيا؟

- كما أسلفت لك يا مولاي، هكذا يفعل دائما، فهو لا يسير إلاّ وقد حمل مثل هذا الثّقل وأكثر، ولا يمكن أن ترى أثرا للتّعب لا على وجهه ولا على جسمه، لذلك سمّاه العامّة "أبا الصّراير".

- وأين يسكن؟

- في مكان قريب من جامع الزّيتونة، هو فندق مشبوه.

- مشبوه؟

- يعني يا مولاي... فندق يتعاطون فيه الـ... الخناء.

- ماذا؟ رجل صالح مثله ويقيم في موطئ فساد؟ ومن يكون صاحب هذا الفندق؟

- هو من الأملاك السّلطانية يا مولاي.

- عجبا؟ هل كان جدّي رحمه الله على علم بهذا؟

- لقد كان يعلم حتّى بوجود بن عروس هذا، وقد أمر رحمه الله، بخفض قيمة كراء الغرفة الّتي يسكنها هذا الرّجل، لمّا علم أنّه صوفيّ وتظهر عليه علامات الأولياء الصّالحين، وقد كان يدفع عنه معين الكراء أربعة أشخاص بالتّساوي تبرّكا وتقرّبا من هذا الرّجل.

- لا... لا... لا يمكن... يجب إعفاء هذا الرّجل الصّالح من الدّفع. أو...

- هو لا يدفع يا مولاي... بل يدفعون عنه.

اقترب الاثنان من سيدي أحمد بن عروس الّذي توقّف عن السّير دون أن يلتفت إليهما ثمّ أنزل حِمله الّذي كان على كتفه ووضعه على الأرض، ثمّ ضرب بعصاه ضربة كاد كامل أسفلها ينغرس في التّراب، ثمّ وضع يديه على طرفها الأعلى في وضع المتّكئ... وصاح بصوت جهوريّ:

- الله... الله... الله... الولد يلعب...

التفت فجأة إلى ناحية المنتصر واتّخذ هيئة من يفاجئ شخصا تخفّى عنه وقال:

- طي...[1]

---

[1]طي: هي تصغير محبّب لكلمة أطلّ وإطلالة، كانت معروفة عند الصّغار حين يلعبون لعبة التخفّي عن بعضهم، وحين يفاجئ أحدهم رفيقه في مخبئه بإطلالة فجئية يقول له: طي

ارتبك السّلطان وحاول مداراة ارتباكه بالالتفات إلى الوراء كأنّ الأمر لا يعنيه، لكنّ بن عروس صاح قائلا وهو يشير ناحيته بعصاه:

- أنت؟ ... ها... ها... ها... الله... الله... الولد يلعب... يلعب لعبة المسكين وهو السّلطان... والمسكين يحلم دوما أنّه سلطان... ها... ها... ها... ما يدوم سلطان في الأوطان... إلاّ سلطان الرّحمان... الواحد القهّار... وهو الباري خالق الكون والأنام... كلّ من عليها فان ويبقى وجه ربّك ذو الجلال والإكرام.

ارتجف المنتصر لكلمات هذا الرّجل الّذي بدا له كالمعتوه، يقول ما يخطر على باله، فأراد وزيره أن يجرّه ويبعده عن الرّجل... لكنّ ضربة أخرى بالعصا أوقفتهما في مكانهما وقد شعرا برهبة... ثمّ أشار مرّة أخرى إلى السّلطان بعصاه...

- هو ولد طيّب... والطّيّب حبيب الله... وأفضل مقامه بجوار الله... قريب... قريب... واحد... واحد من الزّمان... يا ولد السّلطان... العقل بصير والعمر قصير... حيّ... قيّوم... حيّ... مع السلامة يا ولد...

سار الرّجل بعدما رفع صرّه في طرف عصاه وترك السّلطان ووزيره متسمّرين في مكانهما ينظران إليه وهو يمشي بثبات ويخاطب المارّة بصوته القويّ.

عاد المنتصر إلى رشده وأخذ يتمعّن في كلمات الرّجل، وخاف منها عندما ردّدها في أعماق نفسه ثمّ التفت إلى وزيره قائلا:

- أجزم أنّه عرف من أكون، ففي كلامه أوزان من المعاني، هل فهمت شيئا يا محمّد؟ تُرى ماذا يقصد بكلامه؟ لا تخفي عنّي شيئا.

- لا أدري يا مولاي... لكن لا تشغل بالك بحديث معتوه...

- لا... لا تقل هذا... هو ليس كما تعتقد... هو وليّ صالح... أشعر بذلك... فقد هزّ حضوره كياني ودخل كلامه إلى أعماقي ولم أرهب من قبل كما رهبت في حضرة هذا الرّجل... هيّا بنا... أريد أن أرى هذا الفندق الّذي يقيم به الرّجل...

حين وقف السّلطان المتنكّر ووزيره أمام باب الفندق، شعر بالاشمئزاز من هذا المكان الّذي يتستّر وراء بابه أهل الفسق والفجور. وهو مع ذلك من الأملاك السّلطانيّة، ويقع على مرمى حجر من قصر السّلطان فقال في نفسه:

- كيف سكتَّ عن هذا يا جدّي في حين أنك أغلقت مثله في باب البحر وحوّلته إلى مسجد[1]؟

سكت دون أن يبدي رأيه للوزير، وواصل السّير وفي ذهنه قرار لم يفصح عنه لرفيقه، وقبل أن يصلا إلى القصبة توقّف الوزير مستدركا وقال:

- تذكّرت يا مولاي أمرا غفلت عنه.

- ما هو؟

- مستشاركم أبو سالم إبراهيم السّليماني يعرف سيدي أحمد بن عروس شخصيّا.

- لماذا لم تخبرني بهذا من قبل، كنّا نأخذه معنا في هذه الجولة.

- لا يا مولاي، كان وجوده معنا سيكشف أمرك لسيدي بن عروس، لكن من الممكن أن ترسله إليه لو رغبت في معرفة أمر.

- هل تذكر أين شاهدنا سيدي بن عروس منذ قليل في سوق الفلقة؟...

- أذكر يا مولاي المكان، إنّه يؤدّي إلى ساحة مهملة...

- سأبني هناك مدرسة للعلم[2].

لمّا عاد السّلطان إلى قصر القصبة، ذهب رأسا إلى أمّه فأخبرها بما رآه اليوم وبما سمعه وطلب منها محاولة فكّ رموز الكلام أو تفسيره بمعرفتها...

---

[1] مازال هذا المسجد الصّغير قائما إلى اليوم ويقع ملاصقا للمغازة العامّة خارج باب البحر.

[2] هي المدرسة المنتصريّة الكائنة بنهج الوصفان المتفرّع عن سوق النّحاس وهي قائمة إلى اليوم.

لم تستطع ريم أن تنظر في عينيه، فقد شعرت بانهيار رهيب يُسقط قلبها في قاع كيانها، فقالت له وفي نبرتها حزن دفين:

- لا أعرف، لا أعرف يا ولدي... اللّهمّ اجعله خيرا... أنا لا أعتقد أبدا في كلام الدّجّالين، وعلى ما أذكر فإنّ في القرآن ما يبرّر كلامي، وفي الآخر لا يعلم الغيب إلاّ الله.

لمّا خرج من عندها أطلقت العنان لبكائها المتشنّج وضربت صدرها بيدها ضربات قويّة وقالت متأوّهة:

- يا للوعتي ويا لشقائي... لماذا... لماذا يا ربّ؟

*****

أقعد سي إبراهيم بن مخلوف مرض خفيّ أتى على لحمه وشحمه فأوهنه حتى اضطرّه إلى تصفية تجارته والاعتكاف بمنزله يستقبل أصدقاءه الّذين لم ينقطعوا عن زيارته منذ اليوم الأوّل من مرضه. لكنّه كان في شوق كبير لرؤية أنطونيو ومعرفة أحواله، فهو لم يره منذ أشهر، وبالتّحديد منذ اليوم الّذي دخل عليه في داره قرب حومة باب البنات ووجده على تلك الحال من الضّياع وأخبره بأنّه لم يعد يملك من متاع الدّنيا سوى داره.

لم يعلم أنطونيو بمرض سي إبراهيم، فهو نفسه مريض بدنيّا وعقليّا، لا يعرف داءه، يعيش في سهوم ولا يرى من النّاس إلاّ نساء اليهوديّ إسحاق، أو إسحاق نفسه الّذي كان يجالسه ويتحدّث معه في أمور التّجارة حين يكون العقل ضائعا في ضباب السّكر أوالمخدّر، ولم يدر أنّ إسحاق كان يجرّده تدريجيّا من كلّ ما يملك ويجعله يمضي على رقاع تنقل المال والعقار من يده إلى يد غيره، والأدهى والأمرّ من ذلك أنّ الحشيشة الّتي يقدّمها إليه إسحاق مخلوطة بالشّراب هي بمثابة السّوس الّذي كان ينخر خلايا دماغ المزطول الباحث عن عالم أفضل من واقعه.

لكنّ هذا العالم الخاصّ بدأ يفقد ألوانه ورونقه في رأس أنطونيو. وأصبح الصّداع الشّديد هو الّذي يحلّ محلّ الأحلام الممتعة. صداع مرير ومؤلم لا يطاق إلى درجة فقدان الأعصاب وفقدان القدرة على القيام والمشي ولو خطوة واحدة. إلى أن انقطع أنطونيو عن شرب الخليط لمدّة يومين. لكن لم يصبر في اليوم الثّالث. فقد كاد يصاب بالجنون وهو يحسّ بأنّ جيشا من الحشرات الزّاحفة تحتلّ عروقه وتدغدغها دغدغة تحطّم الأعصاب. فاستعان بصبيّ من الحومة وأسرع إلى إسحاق يطلبه في منزله فلم يجده، وذهب إلى السّوق فلم يجده أيضا. فاندفع نحو مسكن إحدى المومسات اليهوديّات ودخل عليها وهو يكاد لا يستقيم في وقفته وقد اصفرّ وجهه وغارت عيناه...

- أعطني هذا الخليط الملعون وإلاّ... قتلتك حالا... أعطني منه كمّيّة لا تعيدني إلى هنا مرّة أخرى...

رأت المرأة الخنجر يلمع في يد هذا المجنون. فخافت على نفسها ولم تدر ماذا تفعل. هل تعطي ما عندها من حشيشة فتتعرّض إلى عقاب إسحاق القاسي، أو تمتنع فتتلقّى طعنة قاتلة؟

خرج أنطونيو من محلّ المرأة بعدما تناول حصّته المعتادة وهدأت فورة آلامه. وبعدما حصل على كمّيّة كافية لشهر أخفاها في ملابسه الدّاخلية خوفا من انكشاف أمره من طرف إسحاق أو أحد خدّامه. وكان طوال الطّريق يحسّ بآلام تعذّبه وتُجيّش جسمه في آن واحد. فحتّى ضحكه وتأوّهاته صارت توجعه وتجعله يبدو أمام النّاس كالمعتوه أو كالمصاب بلوثة في عقله...

تذكّر فجأة أعزّ أصدقائه فتوقّف عن السّير وأسند ظهره إلى حائط، فلم تسعفه قدماه بالقوّة الكافية لحمل جسمه فتزحلق بظهره على الحائط إلى أن برك حيث وقف. مرّت في ذهنه الضّبابي صور عن عمّ

الجيلاني والقائد عبد الله التّرجمان وسي إبراهيم بن مخلوف. ذلك الرّجل الطّيّب الّذي أحبّه محبّة الصّديق الصّدوق. والأب الحنون. فأخذ يبكي وينتحب كالطّفل الصّغير... ولم يستطع أن يوقف بكاءه وشهيقه فقد استرخت أعصابه ولم يعد يتحكّم فيها. فحاول الوقوف فلم تسعفه قواه. فأدركه أحد المارّة وهو على تلك الحال وقد حسبه في حاجة إلى المساعدة. فاقترب منه ليواسيه ويسأله عن حاجته. لكنّ رائحة الخمر الّتي كانت تنبعث من هذا المسكين كانت كفيلة بإبعاده عنه وجعله يلعن هذا العلج القذر.

بعد ساعة جمع أنطونيو شتات ما تبقّى له من قوّة وقام يترنّح في مشيته ويستعين بالجدران لكي يتكئ عليها. وكان في نيّته الذّهاب إلى دار سي إبراهيم لكنّه لم يستطع تبيّن الطّريق فقد حلّ الغروب وأخذ برده يؤلم جسمه النّحيل ففضّل عندئذ العودة إلى داره والإحجام عن الذّهاب لرؤية صديقه.

لمّا وصل إلى حومة باب البنات في طريقة إلى مسكنه توقّف أمام دار ماريو وطرق الباب فخرج له ماريو بنفسه ولمّا عرفه صاح في وجهه:

- انصرف... وإلاّ استدعيت صاحب الشّرطة... اذهب فقد أصبحت كالكلب الهرم لا تصلح حتّى لحراسة قبر... اذهب فأنت عار على الرّجال... ولا تعد إلى طرق بابي مرّة أخرى...

ذهب أنطونيو كسير الخاطر، لكنّ ابتسامة سخرية كانت مرسومة على شفتيه... سخرية من نفسه ومن قدره الّذي أوصله إلى هذا الدّرك. لقد حضرته صورة الولد عمر الّذي لم يره منذ سنوات طويلة. لكنّ صورته كانت تلحّ دوما على فكره. فيعجب من سخرية الأقدار الّتي جعلت من ذلك الصّبيّ المعدم بالأمس شابّا جسورا تعلّم اللّغة الرّومية وانطلق إلى دنيا أفضل من دنياه فصار تاجرا في

البندقيّة. ياه يا دنيا! عمر تاجر في البندقيّة؟ وأنا فاجر في أزقّة تونس؟ ليتني أخذت بكلامك يا عمر، لكنّي كنت أصمّا معتقدا أنّ النّصح لا يأتي من صبيّ مثلك، لكن تبيّن اليوم أنّك كنت أنت الذّكيّ، وأنا الغبيّ.

لم يكن طرد ماريو له أولى مفاجآت المساء، فقد تلتها أخرى أتعس وأنكب. فقد وجد أمام باب داره اليهوديّ إسحاق ومجموعة من خدمه ينتظرونه، وحالما رأوه جذبوه إلى سقيفة الدّار وانهالوا عليه ضربا موجعا حتّى كاد يقضى بين أيديهم. ثمّ اقترب منه اليهوديّ وكشّر في وجهه بكلمات خرجت من فمه كالفحيح:

- اسمع يا هذا... إذا أردت أن تحافظ على حياتك القذرة هذه، لا تضع قدمك في هذه الدّار مرّة أخرى... هذه داري ولي ما يثبت ذلك... هيّا!... ارموا به إلى الطّريق.

كانت تلك أولى اللّيالي الطّويلة الّتي يقضيها أنطونيو إمّا تحت أديم السّماء أو في سقيفة باب البنات أو في خربة بعدما ولّت أيّام العزّ وحلّت محلّها أيّام البؤس.

*****

لم يستطع السّلطان الشّابّ محمّد المنتصر أن ينعم بكرسيّ السّلطنة في راحة وهدوء، فقد تألّب عليه الطّامعون في الملك من أمراء وأبناء عمومة وأقارب وغيرهم من الّذين لم يقبلوا بالأمر الواقع، وكادت الشّهور تمضي دون أن يتمكّن من الالتفات إلى أمور البلاد والعباد، إذ قضى الأشهر الأولى يحاول مراضاة الطّامعين أو مهادنتهم أو معاقبة المارقين. وكان كلّ مساء يخلو إلى أمّه ريم يستشيرها ويطلب منها النّصح والدّعاء والرّضا لمواجهة الأعداء وتحمّل ما ثقل عليه من أعباء... ومع ذلك فقد كان يتحرّق شوقا لمعرفة ما ينتظره مستقبلا من فم أحمد بن عروس فاستدعى ذات مساء مستشاره إبراهيم السّليماني واجتمع به على انفراد وقال له:

- علمت أنك على صلة بأبي الصّراير، فهل تثق به كرجل صالح له كرامات؟

- هو كذلك يا مولاي.

- في ذهني سبع مسائل لا أذكرها لك حتّى لا تذكرها أنت للشّيخ. بل اذهب إليه غدا كأنّك تزوره زيارة خاصّة ثمّ تكتب ما تسمعه منه وتوافيني بالمكتوب.

ذهب المستشار إلى حيث يقيم بن عروس ودخل عليه ووقف بين يديه إجلالا، وأخبره بأنّه كان مارّا من المكان فعنّت له زيارته للسّؤال عن أحواله وعن حاجته.

نظر إليه الشّيخ نظرة كأنّها ضربة إزميل فتحت ثقبا في جدار وقال له:

- جئت تكتب لمولاك يا سليماني؟ اقعد.

ارتجّ المبعوث السّلطاني وشعر بالارتباك لانكشاف أمره، فجلس قبالة الشّيخ وأخرج قرطاسا وقلما واستعدّ لسماع ما سيمليه عليه الشّيخ.

- اكتب، إنّ عربان "حكيم" الّذين نزلوا بمرج الزّواغين لحصار المدينة، وتسبّبوا في هرج وشدّة للنّاس، سأكفيك أمرهم وسوف ينجلون عن حصار المدينة في قادم الأيّام، وسوف ينقلبون خاسرين مشرّدين.

اكتب يا سليماني الثّانية، قل له: أردت في سرّك أن تحوّل مكان الفجور إلى زاوية للصّلاّح؟ اعملها إذن زاوية.

لم يفهم السّليماني القصد من هذا الأمر فرفع بصره إلى الشّيخ فرآه قد أدخل رأسه في ثوبه وأخرج سفرجلة في غير إبّان السّفرجل، لم ير أحسن منها وقال له:

- تحمل له يا سليماني هذه السّفرجلة.

أراد السّليماني أن يأخذها فحبسها عنه الشّيخ وقضم منها قِدْمَة صغيرة ودفعها له قائلا:

- إنّها ليست كلّها له، فما له منها إلاّ هذه، والبقيّة... لأخيه.

أشار له الشّيخ بالانصراف، لكنّه تلكّأ طمعا في سماع بقيّة الأجوبة عن أسئلة السّلطان السّبعة، فالّذي حصل له ثلاث أجوبة لا غير من مجموع سبع أسئلة؟ لكنّ الشّيخ أشار له مرّة أخرى بالانصراف منهيا الكلام بوضع يده على فمه.

خرج المبعوث السّلطاني يجرّ قدميه جرّا وقد شعر بأنّهما مثقلتين بأرطال من الرّصاص، فالكلام الّذي سمعه لا يمكن أن ينقل حرفيّا للسّلطان خوفا من إيلامه، لكن ما على الرّسول إلاّ الإبلاغ... مع شيء من التّحفّظ واللّباقة.

ذلك ما حصل مساء ذلك اليوم فدفع للمنتصر بالقرطاس وبقدمة السّفرجلة مصونة في كاغد وقال له:

- هذا يا مولاي ما حصل لي منه، فقد أجاب عن ثلاث مسائل وطوى الذّكر عن البقيّة.

- ما هذا يا إبراهيم؟ قضمة من سفرجلة في غير أوانها؟ ما أعطاك منها غير هذا؟

- نعم يا مولاي.

- قال لك، حسب ما فهمت، ما له فيها إلاّ هذه القُدَيْمَةَ؟

- نعم يا مولاي.

تنهّد السّلطان تنهيدة عميقة مشحونة بالأسى وقال:

- اللّي يعمل ربّي مليح، والأعمار بيد الله لا بيد عبد الله.

في الغد اجتمع السّلطان بوزيره وأمره قائلا:

- كما أمرتك ببناء مدرسة علم في المكان الّذي التقينا فيه الشّيخ أحمد بن عروس، آمرك اليوم بإخلاء فندق الفساد من جميع من فيه وتهديمه بالكامل وبناء مكانه زاوية فخمة تليق بمقام الرّجل الفاضل، بها مسجد

وميضاة، ومحلاّت وبيوت سكنى الشّيخ وأهله وأتباعه المقرّبين، وحبّسه مع كلّ ما يحيط به من محلاّت... أريد أن تنتهي أشغال البناء في أقرب وقت.

*****

كانت ريم تعيش في قصر باردو عن مضض، فقد قبلت فقط لتكون قرب ابنها في وحدة عظمته السّلطانيّة، وكانت لا تخفي عنه شعورها بعدم الارتياح لهذا المكان الّذي لا يوحي لها بشيء، ولم ترتح ولم يعد لها صفاؤها إلاّ عندما خرج ابنها من الحاضرة في محلّة كبيرة لتفقّد أحوال البلاد وتهدين القبائل، فعادت إلى قصر القصبة وجمعت حولها أختها ليزا وأخوها ماريو وزوجته وابنته الّتي رزق بها منذ شهرين وكذلك ريحانة الّتي عادت لملازمتها. وقضت الأيّام تتابع أخبار ابنها وقلبها واجف خوفا عليه من القتل أو من الغدر به، وترسل الرّسل إلى عثمان في قسنطينة تطلب منه القدوم لرؤيته بعد طول الغياب، وكانت تذهب من حين لآخر إلى تلك القاعة الفسيحة الّتي بها مجسّم السّلطنة وأرجاءها، فتتابع عليها تحرّكات السّلطان وتقيس الأبعاد والمسافات والأوقات، فتدرك بذلك مدى العناء الّذي يتكبّده ابنها لفرض سلطته على المنفلتين والمشاغبين، فتشفق على شبابه الّذي سيفنيه على ظهور الخيل.

وصل المنتصر إلى مشارف قفصة وقد أحسّ بالإعياء والوهن فجأة، ولم يعرف سبب ذلك فظنّ أنّه إعياء جرّاء السّفر الطّويل، لكن وجعا سرى في كامل جسمه جعله على يقين من أنّه مصاب بداء غير معلوم، ولقطع شكوكه طلب من طبيبه أن يكشف عليه ويشخّص له الدّاء، وكانت كلمات الطّبيب مشجعة ومطمئنة:

- مولاي... لا تشغل بالك بتخمينات واهية، أنت شابّ مليء بالصّحّة وبالعافية، ورجلك في ركاب الشّباب، وما أصابك اليوم سوى عوارض تعب ستزول بخلودك إلى الرّاحة.

فرح الأمير واستبشر فأمر بالتّصدّق على الفقراء والمساكين وطلبة العلم وفوّض أمر الجيش إلى قائده وخلد إلى الرّاحة ليستجمع قواه.

مضت بضعة أيّام والسّلطان مازال يعاني من المرض الّذي لم يذهب رغم الدّواء الّذي كان يستحضره له طبيبه يوميًا، لكنّه لم ييأس من رحمة الرّحمان وراح يصلّي ويدعو الله لشفائه لينهض من مرقده ويتولّى أمر بلده وعسكره الّذي يجمع مئات الأمراء من الأهل والعشيرة.

لكن ما طرأ ذات يوم من أخبار زادت في سقمه وفي توجّعه ما أتى به أحد مماليكه من أخبار مزعجة قائلا له:

- مولاي أعزك الله... ما كنت أبغي الدّخول عليك إلاّ بما يفرحك ويسرّك ويخفّف عنك المرض، لكن ما ساقني إلى هنا في هذا الظّرف إلاّ جسامة ما طرأ منذ وقت قصير وأحدث البلبة في صفوف الجيش.

- تكلّم يا حسام فإنّي منتظر لكلّ ما يخطر على بال.

- لقد فرّ من المحلّة صباح الأمس الأمير أبو يحي زكرياء...

- من؟

- أبو يحي زكرياء حفيد الأمير أبي عبد الله يحي زكرياء صاحب بونة (عنابة) وقد أعلمني من اقتفى أثره أنّه لحق بالعربان واستقرّ عند أولاد أبي اللّيل صحبة أخيه، وإنّ هؤلاء اجتمعوا حولهما وما مرادهم إلاّ العصيان والقيام على مولانا؟

- اخرج حالا بفريق من الجيش وتوجّه إلى الحاضرة لحفظها وسألحق بكم، فلا قعود هنا بعد الآن.

بُعثت في السّلطان المريض روح جديدة أملتها الظّروف الطارئة فنسي مرضه لحين واستنهض جيشه وقفل راجعا إلى تونس وبعث وهو في الطّريق إلى شقيقه عثمان يطلب منه اللّحاق به على رأس جيش، وأن يولّي عنه في قسنطينة القائد نبيل ابن أبي قطاية ويأمره بحفظها.

كانت الطّريق طويلة، وكان الألم الّذي يعصف بالسّلطان أكبر من الأحداث، لكنّ الإرادة كانت أقوى من كلّ ذلك، فرغم نصائح الطّبيب بالرّكون إلى الرّاحة فقد ضرب المنتصر بالنّصائح عرض البراري والمفازات، وقاد محلّته يستنهضها ويحثّها على الوصول إلى الحاضرة في أقصر وقت. وكان رغم ظهوره أمام عسكره بمظهر القائد الممسك بزمام الأمور يتعذّب في داخله بدنيّا ونفسيّا، فقد تألّبت عليه الأيّام وحملت له أعداء من دمه ومن أبناء عشيرته، ولم يكفها ذلك فزادت عليه بمرض مبكّر لم يفهم مأتاه ولم يعرف دواءه. وكان طول الطّريق يفكّر في سيدي أحمد بن عروس ويسترجع كلماته ونبوءته المخيفة، فيزداد يقينه أنّ الرجل ليس ذلك المعتوه، بل هو من أولياء الله الصّالحين... وها أنّ الواقع يصدمه بالحقيقة الّتي ادّعاها بن عروس:

"واحد... واحد من الزّمان... يا ولد... واحد.. العقل بصير والعمر قصير... واحد... واحد".

*****

كما توقّع السّلطان محمّد المنتصر فقد هجم أولاد أبي اللّيل على الحاضرة بعدما عاضدوا الأمير الهارب أبو يحيى زكرياء، وجاءوا غازين، إذ استطاعوا أن يفلّوا من عزيمة جيش السّلطان وأن يهزموهم في معركة قرب جبل الرّيحان قبل أن يتمكّن المنتصر من تعبئة كامل الجيش وقبل لحاق باقي العسكر، وشعر السّلطان الشّابّ بطعم المرارة يزيده همّا على آلامه الّتي توجعه وتؤرّقه بعدما علم أنّه محاصر من طرف هؤلاء العربان الّذين جاؤوا طامعين في كلّ شيء، يسعون وراء طامع آخر يريد بدوره أن يقتل ويهدم وينهب ليصل في آخر المطاف إلى العرش.

*****

انطلق الأمير عثمان لمّا علم بمحاصرة الحاضرة من طرف أولاد أبي اللّيل وأنّ أخاه المريض لن يقدر بمفرده على مواجهة هذه المعارك. فجاءته حيلة حربيّة قديمة وهي تأليب قبيلة على أخرى وخداعها بوعد يضمن لها المال والسّبايا، فسار إلى جهة قبيلة أولاد مهلهل وعرض عليهم ما دفعهم إلى الالتفاف حوله والانطلاق معه إلى مواجهة أولاد أبي اللّيل الّذين عسكروا بسبخة السّيجومي.

كان المنتصر يتكلّف الرّكوب كلّ يوم على حصانه وهو مريض ويخرج بعسكره إلى ملاقاة أولاد أبي اللّيل ومن معهم يرافقه أهل الحاضرة الّذين أسرعوا إلى معاضدة سلطانهم ومقاتلة المهاجمين.

علم أولاد أبي اللّيل أنّ الأمير عثمان قادم نحوهم مع أعدائهم أولاد مهلهل فخافوا من الهزيمة وأقلعوا عن الحاضرة بعدما تكبّدوا خسائر في الأرواح، وكان في نيّتهم الهروب حتّى لا يصادف طريقهم جيش عثمان، لكنّ المحظور وقع إذ لحق بهم عثمان وقاتلهم وزاد في هزيمتهم حتّى فرّوا في عدد قليل ثمّ دخل تونس وأعاد إليها الأمن وأراح أخاه من عناء القتال، لكنّ الفارّين اتّجهوا نحو القيروان طلبا لنجدة قبائل أخرى فعسكروا مع الأمير أبو يحيى زكرياء وجمعوا حولهم ما أعاد تكوين جيش آخر وقرّروا السّير إلى تونس.

علم المنتصر أنّ العربان قد أعادوا الكرّة، وأنّهم في طريقهم إلى الحاضرة في عدد أكثر وعدّة أقوى فأخرج إليهم أخاه عثمان الّذي كان أظهر في معركة السّيجومي مقدرة فائقة على المناورة والقتال وقيادة الجيش، وكان لقاء الجمعين قرب "تاكرونة" حيث دارت معركة طاحنة قُتل فيها خلق كثير من جانب العربان ومن معهم واضطرّ من بقي منهم لأخذ رحالهم وما خفّ وعزّ والفرار مشتّتين.

لمّا رجع عثمان إلى تونس ظافرا هبّ إلى استقباله أهل المدينة والرّبطين وأعدّوا له صنوفا من مظاهر العظمة والإجلال ممّا جعل البعض يعتقد أنّ عثمان هو السّلطان الفعليّ للبلاد في غياب أخيه المريض الرّاقد في قصر باردو، لكنّ عثمان كان ينتظر شيئا آخر... كان ينتظر عند دخوله إلى معمعة الاحتفال والاقتبال متى ينتهي ذلك ليسرع إلى ملاقاة أمّه الّتي لم يرها منذ أشهر، وحال وصوله إلى باردو أسرع إلى جناح أمّه فقيل له أنّها تلازم أخاه المنتصر الّذي اشتدّ عليه المرض وأصبح لا يقوى على القيام واكتفى بتوجيه أمور الدّولة من فراشه.

لمّا رأى عثمان أمّه اندهش ممّا رأى، فقد تغيّرت كثيرا وذبلت إلى حدّ الضّمور، فأين قوامها الفارع، وأين وجهها الصّبوح، أين ريم الغزال؟ لقد ذهبت الأحزان بتلك الأمّ الشّابّة فلم يجد الأمير أمامه سوى امرأة بدت له مسنّة رغم أنّها مازالت في الثّلاثين.

- أمّي... أمّي العزيزة... هل أنت مريضة؟

أسرع نحوها معانقا فوجدها شاحبة اللّون لا تكاد هي الأخرى تقوى على الوقوف، فحتّى ابتسامتها الشّاحبة لم تقدر على انفراج قسمات وجهه كأنّه يعاني مرضا خافيا.

- ابني... صغيري عثمان... بل كبيري الغالي، رعاك الله... قد أصبحت قائد جيش وأنت في هذه السّنّ؟ ... تبارك الله... لكن لا يهمّني الآن هذه العظمة وهذه الهالة من الانتصار بقدر ما يهمّني وجودك بقربي، فلا تذهب... لا تبتعد عنّي يا ولدي... ابق هنا... أريد أن أراك كلّ يوم... أريد أن أنهي بقيّة أيّامي وناظري لا يفارق طلعتك البهيّة... لم يبق لي في هذه الدّنيا إلاّ أنت وأخاك المنتصر شفاه الله...

- ما هذا يا أمي... ما هذا؟ أنت المرأة القويّة الشّجاعة تقولين لي هذا؟... أخي بخير وسيقوم من مرضه إن شاء الله معافى ليعود إلى ديوانه وإلى...

جذبته من يده ثمّ قامت ببطء شديد وأشارت إليه بالدّخول إلى المقصورة المواجهة لفراش المنتصر وهي تطلب منه أن لا يحدث حركة...

- أخوك يا ولدي مريض... مريض جدّا... ولا أمل في شفائه على ما أرى، وأظنّ أنّ الدّور عليك الآن لتمسك بزمام الأمور، فكن كجدّك وكأبيك وكما عهدتك رجلا تعتمد عليه البلاد.

لم تنه ريم كلامها فقد شعرت بدوار شديد يلفّها ويجعلها لا تقوى على الوقوف فانهارت فجأة وسقطت. وقبل أن تصل إلى الأرض سارع عثمان وتلقّفها ثمّ حملها على ذراعيه وقد شعر بأنّها في وزن قطّة، وصاح في الخدم...

- استدعوا الطّبيب... بسرعة... الطّبيب... الطّبيب...

حضر الطّبيب المشهور "سعيد الشّريف الصّقلّي" فبادر بفحص أمّ السّلطان لمعرفة أسباب مرضها المفاجئ ويسألها بماذا تحسّ، وكانت المريضة تجيبه بتقطّع وفي بعض الأحيان تأخذها الغيبوبة فتذهب فيها ثمّ تعود لتستفيق وهي على حال من الوهن.

بعد ساعة خرج الطّبيب بعدما ناول المريضة الدّواء وأمر بمراقبتها والسّهر عليها طول الوقت وترك مساعده يقوم باستحضار الدّواء اللازم والمكمّل للأول.

*****

صارت ريم تهذي وتذكر أسماء وأماكن وتنادي أمّها، ثمّ أخذت تردّد اسم ابنها عثمان وتطلب رؤيته فأسرع مساعد الطّبيب وطلب منه الوقوف إلى جانب أمّه الّتي يبدو أنّها تريد أن تقول له شيئا...

جلس عثمان إلى جانب أمّه الممدّدة وقد أشفق عليها إشفاقا جعله لا يقدر على إخفاء دموعه الّتي انسابت على خدّه، فانكبّ على أمّه لينصت إلى الكلمات الّتي عسر خروجها من فم هذه المرأة الّتي لم

يشبع كثيرا من حنانها، والّتي أحبّته أكثر حتّى من أخيه المنتصر الّذي يرقد هو الآخر مريضا في الغرفة المجاورة...

- عثمان... عثمان ولدي... اعتن... بأخيك... كن حنونا عليه... لا تقف... في وجهه... سانده... لا تخنه... فالأعداء...من حوله كثيرون... وليس له... في ذلك يد... إنّي... آه...

انكبّ عثمان على يد والدته يلثمها ويقبّلها وقد بلّلتها دموعه...

- أمّي العزيزة... لا تقولي مثل هذا الكلام... لا ترحلي عنّا... أعطيك عمري كلّه لكي تبقي... لكي تعيشي...

- لا يا ولدي... أحسّ بدنوّ أجلي... سألحق بأبيك وبجدّك... وبأمّي... وبكلّ أحبابي... اسمعني جيّدا... كنت... أرسلت منذ أيّام... إلى أخوالك... أطلب منهم الحضور، فإذا حضروا... أكرم وفادتهم... واجعلهم في مقام أهلك... فهم منّي... وهم كخالتك ليزا وكخالك ماريو يحبّونك، وقد أرسلت لهم ليزا منذ جاءت إلى تونس... عديد المكاتيب... تصف فيها كيف هو المنتصر وعثمان... ناولني جرعة ماء يا عثمان... أريد أن أموت في القصبة... أكره باردو...

ما أن شربت ريم جرعة خفيفة حتّى فتحت عينيها أكثر، ثمّ نظرت بكلّ ما أوتيت من حنان إلى ابنها وقالت له آخر الكلام:

- عثمان... ادفنّي بجوار والدك الأمير محمّد المنصور.

قبل أن تغيب عن الوعي نطقت بآخر كلمة من الشّهادتين ثمّ أسلمت الرّوح إلى باريها تاركة عثمان بين يديها ينتحب بحرقة ولوعة وهو غير مصدّق أنّ الموت قد غدر بأعزّ عزيز عليه وبهذه السّرعة ولم يمكّنه من التّمتّع بحنان أمّه، في الوقت الّذي فيه اعتقد أنّه عاد إليها أخيرا، ولا أسعفتها الأقدار بطول العمر لبسط حبّها وحنانها عليه.

*****

ماتت ريم العلجيّة يوم 10 سبتمبر 1435 وهي في السّابعة والثّلاثين من العمر، وفي الغد نادى المنادي في النّاس مخبرا إيّاهم بأنّ أمّ السّلطان محمّد المنتصر قد انتقلت إلى رحمة الله، وأنّ جنازتها ستخرج من قصر باردو، وأنّ موكب الدّفن سيمرّ بأهمّ الأمكنة في المدينة حتّى يصل إلى مثواها الأخير في تربة آل بني حفص قرب زاوية سيدي محرز.

كان أنطونيو كازيلا العلجي وقتها قابعا في مكان تظلّله شجرة كبيرة غير بعيد عن سور باب سويقة من ناحية درب باب البنات. وكان لا يشعر بشيء ممّا يدور حوله. فقد فقَد منذ طرده إسحاق من داره طعم الحياة وأصبح لا يميّز الأشياء، ويروح في غيبوبة ثمّ يستفيق منها ليستعيد بعضا من مداركه العقليّة، وفي حالات أخرى يضيع في هوس هستيريّ جرّاء فقدان المخدر، وكان كلّ من يمرّ به أو يراه يرأف لحاله ويحسبه مجنونا أو مسكينا فيقترب منه ويمدّ له يده بالإحسان...

عندما سمع في ذلك اليوم صوت المنادي يعلن عن وفاة ريم، ارتجّ واستفاق ثمّ قام من مكانه فجأة كأنّه مارد خرج من قمقم، وراح يصيح ويستغيث ويحاول الاندفاع إلى الأمام كأنّه يبغي إدراك الحبيبة قبل أن توارى التّراب، لكنّ قواه الخائرة خذلته فلم يقدر إلاّ على الخطو خطوتين ثمّ تعثّر وسقط في الثّالثة...

- قتلوها يا ناس... قتلوها حبيبتي... أخذوها منّي... وحقّ الرّب سأقتلهم كلّهم... ماريا... ماريا... لا تذهبي إليهم... انتظريني يا حبيبتي...

لم يهدأ إلاّ حين سقط من الإعياء ومن الإنهاك، وصار يلهث وقد ابتلّت لحيته الكثيفة القذرة بلعابه وبمخاطه، فغارت عيناه وبهتت نظراته، وحين خفّ لهاثه نظر إلى التّراب نظرة عميقة وانفجر ضاحكا...

- ها... ها... ها... ماريا... فعلوا بك خيرا ها... ها... قتلوك لتكوني لي... لتكوني لي لوحدي... لن يقترب منك بعد اليوم أحد... سوف آتيك... انتظريني... يا حبيبة عمري...

وأجهش بالبكاء الشّديد، ثمّ مال على جنبه، وبقي هكذا إلى أن أدركته غفوة عميقة فلم يشعر بجلبة موكب الجنازة وبأصوات الدّعاء والتّكبير وهي تقترب من المكان الّذي يرقد فيه، حتّى مرّ موكب الدّفن دون أن يحضره أو يتبعه أو يسعد بإلقاء آخر نظرة على جثمان تلك الّتي طوّح به حبّها إلى فناءات الغربة والكربة، ولم يستفق إلاّ عندما عسعس اللّيل ونامت المدينة، ولسع البرد جسمه وعندها عاد ينتحب في صمت وقد تذكّر كلّ شيء...

*****

مرّ أسبوع والقصر حزين بمن فيه، والبلاد حزينة أيضا على فقدان تلك المرأة الطّيّبة ريم العلجيّة أمّ السّلطان محمّد المنتصر. ولم تستطع ليزا أن تسلّم بالأمر الواقع وتقتنع بأنّ أختها قد ماتت فحبست نفسها في غرفتها تبكي وتجترّ حزنها الّذي لن يذهب إلاّ بعودة الفقيدة، وكانت هذه الفكرة راسخة في ذهنها، فكلّما فتح باب أو سمعت وقع خطوات إلاّ واستعدّت لترى وجه ريم الصّبوح الّذي عرفته قبل أن تمرض، والّذي يشعّ بالأمل وبالجمال وبالحنان رغم مسحة الحزن الّذي طبعته منذ وفاة الأمير الكبير محمّد المنصور.

أمّا ريحانة فلم تصدّق الخبر ولم تصدّق حتى ليزا الّتي أعلمتها بالنّبأ المفجع وكادت أن تكذّب عينيها وهي ترى صديقتها ورفيقتها العزيزة مسجّاة وعلى وجهها سكون الأموات، فأصابها سهوم منعها من البكاء ولم تطلق لأعصابها العنان إلاّ حين أخرجوا الجثمان من قصر باردو فأخذت في العويل والنّحيب ولم يستطع أحد أن يهدّئ من فورتها

الحارقة فتركوها تفعل وتعبّر عن لوعة رفيقات ريم اللاّئي اجتثتهنّ يد الغدر والعبوديّة من أوطانهنّ وقذفت بهنّ في بطون سفن القراصنة لينتهي بهنّ المطاف إلى هذا البلد حيث تغيّرن في العيش وفي المعتقد. كلّهنّ كنّ جئن إمّا قبلها أو معها من بعيد ذات يوم، وقاسمنها أيام الأفراح والأتراح، ورأينها كيف صعدت السّلّم بأمان وبذكاء وتربّعت على عرش حريم أمير بني حفص، وخلّفت سلطانا وأميرا من أفاضل الرّجال رغم صغر سنّيهما وطراوة عوديهما.

أمّا المنتصر... محمّد المنتصر، سلطان البلاد المريض، فلم تسعفه الأيّام بالسّعادة وبالهناء وبرؤية أيّامه تزهر بالعدل وبالإنجازات، وحتّى بالاستمتاع بعظمة الكرسي، ولا حتّى بأبسط ما ينعم به الله على عبده حين يسير، بعد طول العمر، في جنازة أبويه وبالخصوص في جنازة أمّه العزيزة الّتي لم تبخل عليه برأي وبقبلة حنان في أحلك ظروف حياته القصيرة في الدّنيا وفي الحكم، أمّه الّتي جعلت منه شبلا وشجّعته على أن يكون رجل ميدان لا رجل مخادع وجواري وقيان... رحلت عنه ولم تكمل السّهر على تمريضه وعلى رعايته، رحلت عنه دون أن يتمكّن من السّير وراءها ونيل ثواب إيصالها إلى مثواها الأخير والصّلاة على جثمانها.

زادت كلّ هذه الأفكار والأحزان ولوعة الفقدان في سقمه فاستسلم لدائه الّذي لم يرحم جسده الشّابّ بعدما عجز الطّبيب الصّقلّي عن إدراكه بالعلاج الشّافي. فأسلمه إلى مشيئة الأقدار ولم يتمكّن إلاّ من مشاهدته عاجزا وهو يسلم الرّوح ليلة الجمعة 22 صفر 839 هـ * 16 سبتمبر 1435 بعد سنة واحدة وشهرين و12 يوما من الحكم الّذي قضاه في مصارعة الطّامعين في العرش ومحاربتهم محقّقا بذلك نبوءة سيدي أحمد بن عروس الّذي قال له ذات يوم جهارا... "واحدة... واحدة يا ولد... العقل بصير والعمر قصير..." ولم يتمكّن من إنجاز إلاّ

جزء من مقام الوليّ سيدي بن عروس ومن إتمام مدرسة العلم الّتي أمر ببنائها وأطلق عليها اسم "المدرسة المنتصريّة". وبإنجاز سبيل ماء خارج باب سعدون.

في الغد هرع سكّان الحاضرة لتشييع جثمان سلطانهم الشّابّ محمّد المنتصر بعد صلاة الجمعة بجامع الزّيتونة ورافقوه إلى حيث دفن بتربة آله وأهله قرب مقام سيدي محرز ابن خلف بباب سويقة. بعد أسبوع واحد من رحيل أمّه الأبديّ، فشيّعه المشيّعون وراءها لا ماشيا كما رغب وأراد، بل مسجّى على نعش ليدفن بجوار تلك الّتي ساقتها الأقدار من بعيد لتنجبه ولا تسعد به طويلا، والّتي أحبّها حبّا لم يحمله لامرأة أخرى.

كانت الجموع الغفيرة الّتي احتشدت داخل جامع الزّيتونة وفي صحنه وحوله في الأسواق لا تعدّ من كثرتها في انتظار الفراغ من صلاة الجمعة الّتي يحضرها الأمير عثمان الّذي بويع صبيحة هذا اليوم سلطانا على إفريقيّة وعمره لم يتجاوز السّادسة عشر وستّة أشهر فقط... لكن قامته المديدة وطلعته البهيّة أنست الحاضرين أنّه ما زال لم يبلغ سنّ الرّشد، وأنّ أعماله العسكريّة المشهورة جعلت الجميع يفرحون به ويرتاحون إليه.

لكنّ السّلطان عثمان... أو كما لقّب هذا الصّباح بالمتوكّل على الله السّلطان أبو عمرو عثمان، لم يكن ينظر إلى الحاضرين بل كان يستحضر وجه أمّه الّتي لم يسعفها القدر لتراه سلطانا وتعيش في ظلّه وسلطانه، تسانده في وحدته وترعى مسيرته، فهذه الوجوه الحاضرة من أمراء وعمومة وأبناء عمومة وأقارب لا تعبّر له عن أيّ شيء، سوى عن الغيرة والحقد، والبعض منهم ينتظر اليوم الّذي يتألّبون فيه عليه ليأخذوا ثأرهم من المرحوم جدّه أبو فارس عبد العزيز الّذي قدّم عليهم غلامين وجعل منهما سلطانين في وقت قصير...

في ذات الوقت قرّر السّلطان الشّابّ أن يواجه كلّ هؤلاء بمفرده، وأن يثبت للمرحومة أمّه، ولهؤلاء جميعا أنّه خير خلف لخير سلف...

عندما وارى التّراب جثمان السّلطان المتوفّى محمّد المنتصر وقف عثمان يترحّم عليه ويعده بأنّه سيواصل ما بدأه، ثمّ اتّجه إلى قبر أبيه محمّد المنصور وقرأ عليه فاتحة الكتاب، وانتقل إلى قبر جدّه خاشعا وتمتم كأنّه يحدّثه حديثا خاصّا ثمّ عرّج على قبر أمّه وتحدّث إليها حديث الرّوح:

- نامي يا أمّي نوم الأبرار، سوف أستقدم كلّ الوجوه الّتي تذكّرني بوجهك العزيز... سوف تعيشين معي في أشخاصهم، وسوف أحبّهم كما أحببتك، هذا وعد من سلطان... يا أمّ سلطان.

*****

مضت بضعة أشهر والسّلطان الجديد "أبو عمرو عثمان" يركّز دعائم دولته ويحاول أن يحدّ من أطماع الثّائرين عليه في مختلف مناطق السّلطنة، والمطالبين بأحقّيتهم في التّربع على العرش. وكان أقرب المقرّبين إليه لا يتوانى عن موالاة أعدائه والانضمام إليهم، ومن بين هؤلاء عمّ أبيه المدرّس "أبو عبد الله محمّد الحسين" الّذي فرّ من الحاضرة ليلا رفقة بعض أولاده ولحق بأولاد "أبي اللّيل" الّذين كانوا متربّصين قرب الحاضرة، ووقع بسبب ذلك هرج وتشويش بين السّكّان، وذهب الظّنّ بالبعض بأنّ الأمور ستنقلب على السّلطان الشّابّ، وبأنّ عربان القبائل سينالون هذه المرّة من أمن البلاد، فارتفعت أثمان السّلع واختفت المؤن من المخازن، واحتاط النّاس للطّوارئ، فبعث السّلطان عثمان إلى أولاد أبي اللّيل وتوعّدهم بالويل إن هم أعانوا الهارب فخاف القوم وسرعان ما قبضوا على "محمّد الحسين" وعلى من معه وأرسلوا بهم إلى السّلطان فاعتقلهم بسجن

القصبة. ومات الشّيخ الثّائر في سجنه بعد شهر من مغامرته الفاشلة.

أمّا الثّائر الثّاني والأخطر فهو عمّه أبو الحسن أمير بجاية الّذي ما أن علم بموت محمّد المنتصر حتّى دعا لنفسه ببجاية وبويع بها وتمسّك بالمنطقة حتّى وفد عليه أولاد أبي اللّيل الّذين هربوا منهزمين من الحاضرة فالتفوا حوله وناصروه وأوعزوا إليه بمهاجمة قسنطينة. فحاصرها وضيّق عليها حوالي شهر يقاتل عساكرها لكنّه لم يستطع دخولها بسبب وقفة القائد "نبيل ابن أبي قطاية " الّذي دافع عنها وأرجع المهاجمين على أعقابهم خائبين، لكنّ الأمير "أبو الحسن" لم يرض بالهزيمة فأعاد جمع أتباعه من أولاد "أبي اللّيل" ومن قبيلة "الذّواودة" وانطلق نحو تونس لمهاجمتها، فأعدّ لهم عثمان جيشا كبيرا لملاقاتهم ومنازلتهم.

في الأثناء وفي خضمّ انشغال عثمان بمواجهة من واجهوه وناصبوه العداء من أهله، قدم عليه أخواله من إيطاليا ومن فالنسيا بإسبانيا ومعهم نساؤهم وأولادهم، جاؤوه مهنّئين باعتلائه عرش إفريقيّة ومعزّين في وفاة أختهم الّتي لم يروها منذ عشرين سنة، فأفرد لهم أجنحة قصر القصبة وأكرم وفادتهم وهاداهم وفضّلهم على الكثير من أبناء عمّه وأقاربه من أبيه، فاستساغوا حياة القصر وأحبّوا البلاد وراموا البقاء فيها، لكنّهم أعلموا ابن أختهم أنّهم لا يريدون أن يثقلوا عليه فاجتمعوا إليه ذات يوم:

- عزيزنا... ومولانا... قد أعطيتنا أكثر ممّا كنّا ننتظر، وعزّزت مقامنا أعزّك الرّبّ وملائكته، وأظهرت لنا محبّة أكثر دون شكّ ممّا كانت ستظهره لنا أختنا، لذلك يصعب علينا فراقك، لكنّ أعمالنا وأرزاقنا تدعونا للعودة إلى أوطاننا، وسوف نعود لزيارتك كلّما دعوتنا أو دفعنا الحنين إليك.

ردّ عليم السّلطان:

- أنتم شطر من أهلي. وقد وعدت أمّي بأن أضعكم في مقامها، ولا يرضيني أن تبتعدوا عنّي وترحلوا بعدما ملأتم عليّ وحدتي واستحضرت في وجوهكم وضحكاتكم ومرحكم وجه أمّي وطبيعتها السّمحة... لا... لا بدّ أن تبقوا هنا، فخالتي ليزا تعرف المدينة وخالي ماريو يعرفها أكثر. وسوف يعتنيان بكم ويعرّفانكم بالبلاد ويزيلان عنكم الوحشة والغربة.

- لكن يا مولانا سنضيّق عليك في هذا القصر... وكما تعرف فإنّ الكثير من الأمراء أو الجند رغم إظهارهم لنا علامات المودّة والاحترام، فإنّهم يشعروننا بغربتنا وبأنّنا لسنا لا من ملّتكم ولا من دينكم، وأنّ قرابتنا لك هي الّتي مكّنتنا من حظوتنا هذه، ولولاها لكنّا "علوجا" مثل سائر علوج ربط باب المنارة... وقد سمعنا ذلك من خالك ماريو الّذي نقل إلينا هذا الكلام الّذي سمعه صدفة...

- من تفوّه بهذا الكلام؟ أقتله حالا... حالا... هاتوا إليّ قائل هذا الكلام...

- مولانا... مولانا... لا تشغل بالك بهذه السّفاسف، سوف نكفيك مؤونة هذا الموضوع ونرحل، ويكفيك مشاكل الحكم وأطماع أهلك، فالأولى أن تعتني بتدعيم قدمك على عرش أجدادك، أمّا نحن فمكاننا الطّبيعيّ هو أوطاننا بين أهلنا وأبناء عشيرتنا.

- لا يمكن... لن تغادروا تونس مطلقا، وسوف آمر بجلب بقيّة أهلكم إن أردتم، ابقوا هنا... هذا أمر... سوف آمر ببناء دار لكل واحد منكم هنا... قرب قصر القصبة... وسوف تعيشون في حمايتي أحرارا في ديانتكم وفي دياركم الجديدة، ومن سمع منكم شيئا يشينه أو ينال من كرامته فليبلغه لي حالا وأنا أعرف كيف أعاقب...

لم تمض بضعة أشهر على استقدام السّلطان لأخواله ولأهاليهم حتّى انطلقت الأشغال في بناء ديار إقامتهم بين حومة باب البنات وحومة باب سويقة قرب سور المدينة وسور القصبة. وعرف العامّة عند تساؤلهم عن سبب قيام البناءات الجديدة بأنّ ذلك المكان

سيصبح "حومة العلوج" الجدد الوافدين على تونس... وأنّ له حرمة مثل حرمة قصر القصبة، وستبنى في طرفه كنيسة صغيرة حيث ستقام صلاة النّصارى العلوج وقدّاسهم، وسيسمع مستقبلا قرع النّواقيس مثلما هو الشّأن بالنّسبة إلى ربط النّصارى في باب المنارة.

تونس - 1443

ثماني سنوات مرّت على وفاة ريم وابنها محمّد المنتصر، استطاع خلالها عثمان أن يتربّع على عرش بني حفص وعن جدارة، وأن يثبت للنّاس أنّه الأحقّ والأولى بالسّلطنة، فخرج إلى مختلف مناطق البلاد ومهّد السّلم بها وحارب من كان وما زال يحاربه، وركّز رجاله على مختلف الولايات محافظا بذلك على ما تركه جدّه أبو فارس من ملك مترامي الأطراف. وكان يميل إلى امتلاك العديد من الجواري الجميلات، وقد اشترى وهو ما زال في الخامسة والعشرين من العمر ما يقارب الثّلاثمائة جارية أغلبهنّ من العلجيّات مثل أمّه، وكان مغرما بهنّ إلى درجة الكلف.

فقد عرف عنه أنّه لا يستطيع السّفر والتّنقّل إلى داخل المملكة إلاّ ومعه عدد كبير منهنّ يفوق في بعض الأحيان ربع ما يمتلك، وكلّما جاءه تاجر رقيق بجارية جميلة اشتراها ونقده أحيانا ما يفوق ثمنها ممّا جعل كلّ تاجر رقيق يعود له بأحسن منها، وقد واصل على هذا النّحو حتّى بلغ عددهنّ ستّمائة جارية.

صارت حومة العلوج[1] في هذه السّنة قائمة الذّات وتعدّد سكّانها بدءا بأخوال السّلطان وأقاربهم وبمن جاء بعدهم من الموالي العلوج الّذين أسلموا أو بقوا على نصرانيّتهم، وزاد عليها بعض من أهل ربط النّصارى من باب المنارة الّذين اختلطوا بهم وتزوّجوا من بناتهم وبنوا مساكن جديدة انتشرت وصارت حيّا جديدا له عاداته وتقاليده المختلفة عمّا اعتاده أهل الحاضرة. وكان يعيش وسط هؤلاء الغرباء غريب مثلهم يمتاز عليهم بغرابة قصّة حياته وبحالته الرّثّة وبجنونه الظّاهر والخفيّ، يطرق أبواب ديارهم ليتفرّس في وجوههم ويسألهم أسئلة غريبة، أو يتوجّه إليهم بكلام أغرب، فيبتسم أو يضحك عندما يرى وجه فتاة جميلة، أو يصيح ويقهقه عندما يطالعه وجه قبيح حتّى ألفوه واعتادوا عليه وأصبحوا يتساءلون عن سبب عدم ظهوره كلّما غاب يوما أو يومين عن الحومة. إنّه أنطونيو كازيلا الّذي اتّخذ لنفسه مقاما في مكان قرب سور المدينة على بعد أمتار من حومة العلوج، لا يغادره إلاّ ليقوم بجولته اليوميّة على الدّيار ثمّ يعرج على المقبرة للقعود بجوار قبر ريم، بعدما يقوم يجمع باقات زهور من المروج القريبة فينثرها على قبر الحبيبة ويبقى يناجيها ويكلّمها متناسيا أنّها راقدة تحت اللّحود رقدتها الأبديّة.

بلغ أنطونيو من العمر الثّامنة والأربعين، تغيّر فيها وجهه وضعف بصره وطالت لحيته إلى حدّ ملفت، وهدّه السّقم وآثار تعاطي المخدّرات ومعاقرة الخمر الّتي تناولها بإفراط فأصبح يبدو كشيخ تقوّس ظهره وعجز عن المشي كما عجزت عصاه عن حمل ثقله وإسناد انحنائه،

---

[1] العلوج نعت يطلق على الرّقيق الأبيض الّذي يقع سبيه من طرف القراصنة على السّواحل الأوروبية. أو على هؤلاء المغامرين القادمين من أوروبا أو الهاربين منها بسبب جنحة أو جريمة، والّذين اعتنقوا الدّيانة الإسلاميّة وارتدّوا عن المسيحيّة.

لكنّ أملا سطع بنوره الضّعيف في حياته الحالكة جعله يستعيد شيئا من طعم الحياة، فيواصل السّير بخاطره المكلوم في دروب بؤسه مستأنسا ببصيص من الأمل.

في دار من الدّور الّتي اعتاد طرق بابها لأعوام، خرجت له ذات يوم طفلة صغيرة لم تبلغ من العمر ستّ سنوات وسألته وقتها ببراءة ما حاجته فلم يجبها وبقي يحملق في وجهها الجميل فرأى فيه وجه ماريا بكلّ جزئيّاته، ودون أن يشعر جذبها إليه وعانقها بقوّة جعلتها تنفر منه وتصيح وتحاول الانفلات منه، ولمّا تركها لم تهرب منه أو تغلق الباب في وجهه بل نظرت إليه نظرة ملائكيّة وابتسمت له ببراءة، فسألها وعلى شفتيه ابتسامة كأنّها شمس غروب تحت سحاب خريفيّ كثيف:

- ما اسمك يا صغيرتي؟

- ماريانا... يا سنيور.

- ماريانا؟ ياه... ماريانا... ما أجمل هذا الإسم... وما أحلى وقعه على مسمعي... لقد أفنيت العمر أجري وراء سماعه، وأخال نفسي أهمس به بِوَلَه وبعشق في أذن حبيبتي، وما دريت أنّي أمضي في سراب كنت أخاله جنانا به خضرة وأزهار وماء، فإذا به جنون أنزلق منه إلى الفراغ ومنه إلى صحاري الضّياع، فأغوص... وأغوص. أنت ولدت هنا يا ماريانا، وأنا انتهيت هنا في تونس... أعيش الآن موتي البطيء على ذكرى امرأة تحمل تقريبا مثل هذا الإسم المقدّس... امرأة كانت السّبب في شقائي هذا الّذي أستمتع به... أستمتع به فعلا يا صغيرتي... فليس كلّ النّاس يعيشون موتهم مثلما أعيشه أنا... إنّي من هؤلاء الّذين يحبّون العذاب ولا يستطيعون أن يعيشوا بدونه، ولو كنت عكس ذلك لرحلت عن هذه الدّيار منذ اليوم الأوّل من مأساتي.

قالت له:

- لا أفهمك يا سنيور أنطونيو؟ ... أجابها وهو يستدرّ دمعة عصيّة قائلا لها، وكأنّه يحوصل لها قصّته لتحفظها في ذاكرتها:

- أحدّث فيك نفسي يا صغيرتي. سيأتي يوم يا عزيزتي الحلوة وستفهمين كلّ شيء عن عمّك أنطونيو حين يحكي لك أحدهم قصّة حياتي الكلبة. أمّا الآن فأنت تعيشين في دنيا البراءة، فأرجوك ثمّ أرجوك... لا تخافي منّي، فلست سوى شبح من الماضي، فلا تغلقي الباب في وجهي... دعيني أراك فأنت خلاصة أمسي وبارقة تبدّد ظلمة نفسي.

دامت هذه الصّداقة البريئة حتّى عام 1443 السّنة الّتي وقع فيها طاعون جارف أصاب البلاد كلّها ومات فيها من السّكّان ما يقارب أربعمائة ألف نسمة، وهلك في يوم واحد من سكان الحاضرة حوالي أربعة عشر ألف نسمة، وكان من بين الهالكين أنطونيو كازيلا الّذي عُثر عليه ميتا في مكانه المعتاذ قرب فتحة السّور الّتي أحدثها الأهالي لتسهيل إخراج الموتى ودفنهم في الحقول القريبة من السّور، بعدما عجزت مقبرة السلسلة عن استيعابهم، وبذلك أصبحت تلك الفتحة فيما بعد بابا آخر لمدينة تونس سُمّي...

صدر للمؤلف

عام الفزوع 1864

حجام سوق البلاط ج1

حجام سوق البلاط ج2

رحمانة

باب العلوج

باب الفلة

الخلخال

الكروسة

الموريسكية

الأندلسية

باب العلوج

تطلق تسمية علوج على من هم من أصول رومية أو إفرنجية انتقلوا بالعيش اختيارا أو قسرا للإقامة في البلاد الإفريقية أو الشرقية بحثا عن المغامرة أو على الإثراء السريع فيسعون إلى الارتداد عن مسيحيتهم باعتناق الإسلام أملا في الفوز بموقع سلطة أو قيادة في البحر. أو يكونون من هؤلاء الذين وقع اختطافهم أو سبيهم من سواحل بلدانهم ثم بيعوا في أسواق الرقيق الأبيض بمدينة تونس أو غيرها من مدن السواحل الشرقية.

أنشأت بمدينة تونس في أواسط القرن الخامس عشر حومة إفرنجية بكنيستها سميت حومة العلوج قرب قصر القصبة، وكان سبب إنشائها حكاية عشق غير متبادل وقع ذات ليلة في مدينة البندقية- فينيسيا بمناسبة حفل افتتاح كرنفالها الشهير الذي شهد حادثة مأساوية كانت أولى خيوط رواية باب العلوج.

حسنين بن عمو

روائي توغل في متاهات تاريخ تونس الوسيط على متن القص والحكي، بدأ المغامرة في بداية ثمانينات القرن الماضي بحكايات عن أزقة مدينة تونس نشرها بالصحافة التونسية على شكل سلسلات يومية ثم تطور المسعى إلى تأليف روايات تاريخية تواصل نشرها بنفس الشكل وبنفس النسق فأفرز المجهود على الكروسة ثم ثلاثية باب العلوج، رحمانة، باب الفلة. وتواصل العمل الروائي بالموريسكية- الأندلسية وبحجام سوق البلاط وقصص أخرى.

السعر 25 دت / 25€

9 789938 073386

تصميم الغلاف: بيرم الغانمي